الحسين عليه السلام ثائراً ومصلحاً

المنهج الحسيني في مواجهة الفساد والمفسدين

حسين الخشن

منارات

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م

husseinkhechin@gmail.com
manaratprint@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

غير خافٍ أنّ الإنسان لا يمكنه أن يعيش حياة مستقرة تضمن له التواصل الصحيح مع الآخرين دون ذاكرة تمدّه بالأفكار والمواقف المسبقة، ولا يتسنى له أن يخطط للمستقبل دون الاعتماد على ماضيه، سواء كان هذا الماضي سيئاً أو جيداً؛ ليبني على الجيد ويراكم عليه، وليتعظَّ من الماضي السيىء ويحاذر الوقوع فيه مرة أخرى، والشخص الذي لا يتعلم من أخطائه السابقة، سيبقى في الحضيض، يتجرع آلام الماضي التي لم يتمكن من التغلب عليها.

وإذا كان هذا حال الفرد فكذلك هو حال الأمم، فلكل أمة ـ بما هي كيان اجتماعي ـ تاريخها وماضيها، بحلوّه ومرّه، ولا يمكنها أن تنسلخ عن تاريخها أو تغض الطرف عن ماضيها، خاصة إذا أرادت بناء مستقبل زاهر خالٍ من الأخطاء التي وقع بها السابقون ودفعوا ثمنها غالياً.

وهنا تكمن أهميّة الكلام عن «عاشوراء»، هذا الحدث المفصلي في تاريخ الأمة الإسلامية، فعاشوراء هي تاريخ مجيد سطّره إمام الأحرار الحسين بن علي عليه السلام، وقد رسم من خلال مواقفه الأبية ودمائه الزكية التي سالت في صحراء كربلاء نهجاً لاحباً للبشرية جمعاء، إنه نهج الإصلاح الثوري في مواجهة الفساد والمفسدين.

وحول هذا النهج الحسيني وخطواته الفكرية والعملية دارت فصول هذا الكتاب

وموضوعاته. صحيح أنّ الكتب التي تناولت ثورة «الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ» كثيرة، ولكن يبقى الطمع والشوق في معرفة المزيد ممّا حصل في «كربلاء» مترسخَين في قلوب المؤمنين، طالما نعيش في زمن يطغى عليه الظلم، ويسود فيه الفساد، والذل يغيّم فوق أمتنا الإسلامية.

إنّ كتاب «الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ثائراً ومصلحاً» لمؤلفه العلامة الشيخ حسين الخشن، والذي كان لنا شرف الاطلاع عليه قبل طباعته؛ فوجدناه كتابًا مهمّاً وقيّماً على هذا الصعيد، فهو يحوي تحليلاً عميقاً لحركة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودراسة علميّة للنهج الذي بُنيت عليه أسس هذه الثورة، في مقاربة جديدة حاول فيها المؤلف مقارنة ظروف الثورة الحسينية ودوافعها بظروفنا وأوضاعنا المعاصرة؛ ليتسنى للقارئ اكتشاف مكامن الخلل والفساد في مجتمعاتنا الحالية، مستفيداً من دروس الثورة الحسينية في سبيل الخروج من ظلمات الجهل والفساد والتخلف التي تجتاح دولنا ومجتمعاتنا.

وهذه الطبعة الأولى لهذا الكتاب القيّم، مع خالص الدعاء للمؤلف بأن يوفقه الله تعالى للمزيد من هذه الكتابات النافعة، التي تجمع ولا تفرق، وتوحّد ولا تمزق، وتقدم الفكر الإسلامي بأصالته وصفائه كما أراده رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والأئمة من أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مركز الدراسات الإسلامية

منــارات

١٢ـ ٦ ـ ٢٠١٧ م / الموافق لـ ١٧ رمضان ١٤٣٨هـ

المقدمة

ويبقى الحسين رمزاً للفداء والإباء.. شامخاً تنحني لجلاله وجماله الهامات.. حياً حاضراً مدى الأزمان.. مهيمناً على الزمان آسراً للموت.. محركاً للتاريخ صانعاً للبطولات.. ويظل منهلاً عذباً روياً، وصوتاً بالحق مدوياً، يقض مضاجع الظالمين والمستكبرين..

وتبقى عاشوراء مدرسة للقيم والأخلاق والتغيير.. وصرخة مدوية في وجه الفساد والمفسدين..

سيدي يا أبا عبد الله عليه السلام..

ربما يحار المرء عندما يهمّ بالكتابة عنك أو الحديث عن نهضتك من أين يلج إلى رحابك أو يدخل إلى ساحتك؟ وكيف يستقي من معينك ومنهلك! ثمّ ماذا عساه أن يقول أو يكتب أو يتحدّث دون أن يكرر نفسه أو يجترّ ما كتبه الآخرون!

وأمام هذه الحيرة فقد يسيطر على الباحث أو الأديب أو المؤرخ انطباع مفاده أنّ العلماء الباحثين والمفكرين والشعراء والأدباء الذين كتبوا عنك وأنشدوا فيك لم يَدَعوا لذي مقال مقالاً، ولم يبقوا شيئاً يتّصل بنهضتك وتضحياتك دون أن يتحدثوا عنه ويشبعوه بحثاً ودرساً، ولم يَدَعوا زاوية دون أن يضيئوا عليها تحليلاً وتفسيراً ونقداً.

ولكنْ إذا ما أمعن الباحث النظر، فإنّ هذا الانطباع سرعان ما يتلاشى ويتبدد لأنه سوف يكتشف أنّك بحر لا ينفد معينك وأنّ ثمة متسعاً كبيراً للحديث عنك

والكتابة عن ثورتك، وأنّ ثمّة ما يغري بالبحث والدرس ..

هكذا كانت عاشوراء وستبقى.. مدرسة متجددة، لا ينضب معينها، ولا يتوقف عطاؤها، ولا يجفّ حبرها، هي لحن الحبّ ومنهل العشق، هي معدن العزة والكرامة، هي شعلة الحريّة ونبض الحياة..

وهكذا عرفْنا الإمام الحسين بن علي عليه السلام وهكذا كان وسيبقى ملهماً للثوار ورائداً للأحرار وملاذاً للمستضعفين ومعتصَماً للخائفين..

إنّ عظمة الإمام الحسين عليه السلام لا تكمن في أنّه معلم وقائد، فما أكثر المعلمين والقادة! وإنما ميزته إلى حدّ الفرادة تقريباً، إنّه من نسيج القادة الملهمين الذين يمثّلون حاجة مستمرّة، فإنّ الإنسانية بحاجة دائمة إلى الإلهام الروحي والمعنوي، وهذا في الواقع هو قدر ووظيفة الثورات الكبرى العابرة للأزمنة، إنّ قدرها أن تكون ملهمة ومحركة. وأمّا وظيفتنا تجاهها فهي أن نستعيد قراءتها ودراستها واستلهامها باستمرار، فالجمود على قراءات السابقين هو نوع حبس لهذه الثورات وشلٍّ لعطاءاتها. وإذا كانت الحاجة إلى هذه الثورات لا تنقطع فهذا يفرض تجديد النظر فيها وإعادة قراءتها، وعدم الاكتفاء بالقراءات السابقة أو الجمود عليها.

إنّ الحاجة إلى الحسين عليه السلام في زماننا هذا أكثر من ماسة، فالمسلمون يعيشون الإفلاس والوهن والضعف أمام أعدائهم، والإسلام يتعرّض لأكبر حملة تشويه في تاريخه على أيدي حملة الفكر الإرهابي التكفيري. ولا نبالغ بالقول: إن الإسلام يتعرض لعملية اختطاف وقرصنة من جماعات التوحش والقتل التي تحمل اسم نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي تعيث في الأرض فساداً، وأعتقد أن الحسين عليه السلام يشكّل سفينة نجاة للأمة ومدخلاً للتغيير على الصعيد الداخلي، ويقدم صورة أخرى عن الإسلام والمسلمين بالنسبة للآخر، فالحسين الثائر يمثّل القدوة الحسنة لكلّ الأحرار في مواجهة الظلم. والحسين الشهيد، شهيد

الحب الإلهي والمملوء حباً وشفقة ورحمة حتى على قاتليه هو الممثّل الحقيقي والأنقى للصورة الإسلامية. إنّ الحسين عليه السلام فيما يبدو لي وأراه هو أشبه ما يكون بخشبة الخلاص لهذه الأمة وللبشرية جمعاء، ولكن هذا يبقى رهناً في أن نُحسن فهم الحسين عليه السلام ونُحسن أيضاً تقديمه إلى العالم، ونرفع كلّ المعيقات التي تحجب الآخر عن رؤية صورته النقية.

وإنّها المرة الثانية التي يحالفني فيها التوفيق الإلهي لأكتب عن عاشوراء القضية والثورة، عاشوراء النهج والرمز، فقد صدر لي قبل سنوات كتاب بعنوان «عاشوراء قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء» وهو مؤلَّفٌ من محورين أساسيين:

المحور الأول منهما يحمل عنوان «مفاهيم صحّحتها الثورة الحسينية».

والمحور الثاني يحمل عنوان «الإحياءات العاشورائية، الوظيفة والأهداف والوسائل».

وهذا الكتاب الذي أقدّمه للقراء هو الثاني في هذا المجال. وربما كان الجامع بين الكتابين أنّ فكرتهما انطلقت من رحم الواقع وهمومه، فهما لم يُكتبا بلغة تنظيريّة تجريديّة بعيدة عن حركة الثورة الحسينيّة وعطاءاتها وتجلّياتها في واقعنا المعاصر. ويجمعهما أيضاً عنصر مشترك آخر، وهو أنّ مادتهما في الأصل كانت عبارة عن محاضرات أُلقيت في الليالي العاشورائية في السنوات الماضية، ومن ثَمَّ عملنا على تحريرها مع التصرف قدر المستطاع في صياغتها ولغتها، بغية تقديمها بقالب كتابي ملائم.

وأرجو أن يأخذ القارئ الكريم هذا العنصر الأخير بنظر الاعتبار في قراءته للكتاب، فلا يحاكمنا على أساس الصرامة التي تقتضيها منهجيّة الكتابة الفكرية والعلمية. وهذا ما يغفر لنا بعض الاستطرادات التي سيلاحظها القارئ في بعض الفصول، فإنّ ذلك مما تقتضيه طبيعة المحاضرات ..

فصول الكتاب:

يتألف هذا الكتاب من الفصول التالية:

الفصل الأول: كيف نفهم النهضة الحسينية؟

الفصل الثاني: النهضة الحسينية ومواجهة نظام الفساد.

الفصل الثالث: الإمام الحسين عليه السلام نبض الحياة.

الفصل الرابع: قراءة نقدية في الخطاب العاشورائي المعاصر.

الفصل الخامس: حوارات من وحي عاشوراء.

أحبتي القراء

هذا كتابي بين أيديكم آمل أن تجدوا فيه فكرة نافعة، أو إضاءة تحرّك عقولكم أو أثارة تفتح أفقاً جديداً في رحاب الإمام الحسين عليه السلام وثورته المجيدة والمعطاءة.

وكلي أملٌ ورجاء بأن يتقبل الله عملي هذا بأحسن القبول ويجعله في ميزان الأعمال الصالحة يوم الوفود عليه، وطمعي كبيرٌ بأن لا يحرمني الله من شفاعة مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الميامين عليهم السلام ولا سيّما سيّد شباب أهل الجنّة الحسين بن علي عليه السلام.

حسين أحمد الخشن

٢٥ من ذي الحجة الحرام ١٤٣٧ هـ

الفصل الأول

كيف نفهم النهضة الحسينية؟

***

المحور الأول: عاشوراء مشروع إيقاظ الأمة والعودة إلى الذات

المحور الثاني: ثورة الحسين عليه السلام حركة إصلاحية أم استشهادية؟

المحور الثالث: الثورة الحسينية في عناوينها الإسلامية وأهدافها الإنسانية

ما هي حاجتنا إلى الحسين عليه السلام في زماننا هذا؟ وماذا يفيدنا أو ينفعنا العودة إلى التاريخ واسترجاع أحداثه؟ وما الذي يمكن أن تقدمه لنا معرفتنا بالحسين عليه السلام؟ هل من تأثير لذلك على حياتنا أو تغيير في واقعنا؟ وهل ينقلنا ذلك إلى الأحسن؟

إنّ علينا أن نحدد ماذا نريد اليوم من الحسين عليه السلام؟ ولماذا نستعيده؟ فليس خافياً أن فهم الثورات الكبرى هو الشرط الأساس للإفادة منها واستلهام دروسها، فكلما كان التحليل صحيحاً والفهم سديداً كان ذلك أدعى للاستلهام والاقتداء، وكلّما كان التحليل خاطئاً أو غير موفّق فسوف ينعكس ذلك على الواقع بطريقة مضرّة. من هنا عقدنا هذا الفصل للإجابة على هذه الأسئلة:

وهذا الفصل يتضمّن ثلاثة محاور رئيسية:

في **المحور الأول**، نستهلّ الكلام بتسليط الضوء على واقعنا المعاصر وما تعانيه أمّتنا اليوم من أمراض ومشكلات، لنرى إلى أيّ حدٍّ يلتقي مرضها اليوم بمرض الأمة في زمان الإمام الحسين، وبالتالي فماذا نستفيد من نهضة الحسين عليه السلام لتغيير حالنا؟

في **المحور الثاني**، سننتقل حكماً إلى بحث تاريخي نستكمل فيه ما جاء في المحور الأول، حيث إنّ تعرفنا على الأسلوب الأجدى الذي اعتمده الإمام عليه السلام في سبيل معالجة مرض الأمة، سيُدخلنا في دراسة تحليلية للنهضة الحسينية لنعرف

طبيعتها، وهل أنها حركة ثورية أم إصلاحية؟

وأما في **المحور الثالث،** فسوف نحرص فيه على وضع النهضة الحسينية في نصابها الحقيقي، وفضائها الرحب، الذي يليق بالحسين عليه السلام، وهو الفضاء الإسلامي والإنساني، وذلك من خلال دراستنا لعناوينها وشعارتها، وسوف يتبيّن من خلال ذلك مدى الجناية التي جناها خطابنا العاشورائي على الإمام الحسين عليه السلام عندما حَبَسه في قمقم مذهبي ضيّق!

المحور الأول
عاشوراء مشروع إيقاظ الأمة والعودة إلى الذات

أين نحن من الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وهل حال أمتنا اليوم كحال الأمة في زمانه؟ وكيف نستلهمه ونستهديه؟

ثمّ كيف يتسنى لنا أن نحوّل نهضته إلى نهج يُحتذى ويساهم في تغيير واقعنا نحو الأفضل؟ وهل نحن بحاجة إلى ثورة شبيهة بثورته؟

وربما يعترض البعض قائلاً: إن عقد مقارنة بين حال أمتنا اليوم وحال الأمة إبان نهوض الحسين هو أمر خاطئ، لأنّ حالنا اليوم قد انحدر كثيراً، فنحن لم نعد أمة قابلة للإصلاح! إنّ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما قال: «**وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي**»[1]، فقد كان ـ كما توحي كلمته ـ لا يزال يرى أمامه أمة إسلامية، وهو يرمي بنهضته وحركته إلى إصلاحها أو الإصلاح فيها، أمّا عندما نحدّق نحن في واقعنا وحالنا، فإنّا لا نرى أمة؟ بل أشلاء أمة، أو قل: إننا لا نرى أمة واحدة، وإنّما نرى أمماً غير متحدة؟

أقول: ربما كان في هذا التصوير الكثير من الصحة ولكني أرفض المبالغة في التشاؤم واليأس، فبالرغم من كثرة الجراح وتعدد الدويلات، وانتشار الروح العصبيّة ببعدها المذهبي أو القومي أو القطري، وتلاعب الحكام الظلمة بمصير الشعوب والتحكم بإرادتها، فإنّ ما يجمع الشعوب الإسلاميّة هو أكثر مما يفرقها.

(١) كتاب الفتوح لأحمد بن أعثم الكوفي (ت:١٣٤ هـ) ج٥، ص٢١.

إنّ ما يجمعها هو هوية واحدة، ودين واحد، وتاريخ مجيد، ومستقبل واعد، ومصالح مشتركة، وتحديات جامعة، وهل تحتاج الشعوب المسلمة إلى أكثر من ذلك لتكون أمة واحدة؟! ولهذا لا نرى مبرّراً لطرح السؤال عمّا إذا كنّا أمة، ونظائره من الأسئلة التي تبالغ في جلد الذات، وتعيد طرح سؤال الهوية في سياق تشكيكي وإن كنّا نتفهم هواجس الذين يطرحون هذه الأسئلة ولا يمكننا تخوينهم أو رميهم بالعمالة.

الأمة وسؤال الهوية

أجل، بعد الإقرار بأننا أمة، فإنّ الأسئلة المشروعة والضروريّة التي تطرح نفسها هي: أيُّ أمّة نحن؟ ولماذا نحن على هذه الحال يا ترى؟ ألم يأنِ لنا أن نصحو من هذا السبات العميق؟ وكيف نصحو ونتحرر من القيود والأغلال والآصار التي تعرقل نهوضنا سواء كانت قيوداً داخلية أو خارجية، فكريّة أو سلوكيّة؟ ثمّ ما هي مسؤولياتنا وواجباتنا؟ وما هي أولوياتنا في هذه المرحلة؟

إنّه وبنظرة سريعة إلى حال أمتنا ماذا نرى؟ هل يختلف اثنان أنّنا في حالة يرثى لها، بحيث إنّه وأينما امتدت بنا الباصرة سوف نرى شعوباً حائرة تائهة متشتتة قد أضاعت بوصلتها الأساسية، ونجد جماعاتٍ متناحرة متمزقة تفتك بها الصراعات المذهبية والعرقيّة والحزبية، باختصار: إننا أمام أمة مسلوبة الإرادة يعمل الآخرون على مصادرة عقولها وطاقاتها وثرواتها وإذكاء نار الفتنة في كل ساحاتها وواقعها؟

أين مكمن الداء؟

وإذا كانت هذه حالنا فإنّ ثمة أسئلة متتالية ومترابطة تفرض نفسها على كل مخلص يسعى للنهوض بهذه الأمة، وهي:

١ـ أين مكمن الداء والمرض؟ أو بالأحرى ما هو المرض الذي أصاب الأمة؟

٢ـ ما هي أعراض المرض وعلاماته؟

٣ـ ما هي أسباب هذا المرض؟

٤ـ وإذا عُرف المرض وتبيّنت أعراضه وعُرفت أسبابه، فإنّ السؤال البديهي الذي يطرح نفسه بعد ذلك: هل لهذا المرض من علاج؟ وما هو هذا العلاج؟ باختصار: ما هو السبيل لنهوض المسلمين من سباتهم العميق؟

وسوف نحرص أن تكون الإجابة عن الأسئلة المذكورة مستوحاة من مدرسة عاشوراء، فالمقارنة مع أحداث النهضة الحسينة وظروفها سوف تعيننا وتمكننا من العثور على إجابات لأسئلتنا، لأنّ هناك قواسم مشتركة بين واقعنا وبين تلك المرحلة التي انطلقت فيها الثورة الحسينية، هذا ناهيك عن أنّنا معنيون بمعرفة ما الذي أصاب المسلمين في صدر الإسلام، وما الذي أوصل الأمور إلى الحد الذي يُقتل فيه رمز إسلامي كبير بحجم الإمام الحسين عليه السلام ويُسفكُ دمه ودم أطفاله وأصحابه على رمضاء كربلاء دون رحمة، ثمّ تُسبى نساؤه وعياله من بلد إلى بلد في عملٍ يُعدّ سابقة في التاريخ الإسلامي!!

محاور البحث وعناوينه الرئيسة:

والإجابة عن هذه الأسئلة ستكون من خلال مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: التعرّف على مرض الأمة.

المطلب الثاني: التفكير في سبل العلاج.

المطلب الثالث: كيف أسهمت الثورة الحسينيّة في إيقاظ الأمة؟

المطلب الأول: مرض الأمة، أسبابه ومخاطره

في هذا المطلب، يجدر بنا البحث في نقاط ثلاث:

الأولى: تشخيص نوع المرض الذي تعاني منه الأمة.

الثانية: التعرف على أعراضه ومخاطره.

الثالثة: التعرّف على أسبابه.

النقطة الأولى: مرض الأمة: فقد الثقة بالذات

إنّ المتأمل في واقع الأمة الإسلامية يكتشف أنّ هناك أكثر من مرض عانت ولا تزال تعاني منه، وهي أمراض مشتركة بين مرحلتنا الزمانية وبين المراحل السابقة، وإن كان المرض يختلف شدّة وضعفاً. واشتراك الأمم في الأمراض أمر طبيعي، لأنّ أمراض الأمم والشعوب ليست كأمراض الفرد التي قد تختلف من شخص لآخر، وقد تستجدّ أمراض لم تكن معهودة سابقاً، وإنّما هي ـ أعني أمراض الأمم ـ غالباً ما تكون متقاربة ومتشابهة، وذات مناشئ معروفة ومتداخلة.

أجل، قد تشترك أمراض الأمم مع أمراض الفرد في شيء واحد، وهو أنّ المرض إذا استفحل في الجسم فلا محالة ستكون نهايته الموت المحتّم، فكما أنّ الفرد تنتهي حياته بالموت، ويكون الفناء نهايته المحتومة، كما قال عزّ وجلّ ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾[العنكبوت: ٥٧]، فإنّ الأمة أيضاً ـ طال بقاؤها أم قصر ـ ستنتهي بالموت، قال تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ**﴾[الأعراف: ٣٤].

ومن أخطر هذه الأمراض وأشدّها فتكاً بالأمة وكيانها الحضاري: مرض

الاستلاب وفقدان الثقة بالنفس، بحيث تعيش الأمة حالة من الضياع والاهتزاز وعدم التوازن. ومعلومٌ وغنيٌّ عن البيان أنّ الثقة بالنفس هي الحصن المنيع لسلامة الفرد وسلامة الأمة معاً. إنّ الثقة بالنفس هي بمثابة جهاز المناعة في الأمة، وكما أنّه إذا فقد جسدُ الفرد المناعة فإنّه سوف يصبح عرضة لهجوم «الفيروسات» الانتهازية الكامنة وغزو الجراثيم المسمّة، كذلك هو حال الأمة إذا فقدت ثقتها بنفسها فإنّها ستفقد مناعتها وحصنها الحصين وستصبح عرضة للغزو الثقافي (غزو العقول) أو الغزو المعنويّ، وحتى الغزو العسكري.

وابتلاء أمتنا في مرحلتها الراهنة بهذا المرض هو أمر لا يكاد يخفى على أحد، فكلُّ إنسان نبيه متأمّل في حال المسلمين اليوم يرى ضعفهم ووهنهم وفَقْدَهُم للثقة بأنفسهم، ما دفعهم إلى الارتماء في أحضان الآخرين وتقليدهم ومحاكاتهم والتماهي معهم فكراً وسلوكاً، وإنّها حقّاً لمأساة ما بعدها مأساة أن ترى أمة يناهز عديدها المليار والنصف، وتملك الإمكانيات الهائلة ومع ذلك لا ترى لها ريحاً ولا وزناً ولا حضوراً يليق بها على الساحة العالمية ولا يُحسب لها حساب في ميزان القوى، وإنّما يُنظر إليها باعتبارها دُولاً مستهلكة ونامية.

وأمّا ابتلاء الأمة بهذا المرض في المرحلة الزمنية التي شهدت ثورة الإمام الحسين عليه السلام فهو مما تشهد له العديد من النصوص التاريخية. ويكفينا هنا أن ننقل شاهداً واحداً ونتأمل فيه ملياً، فإنّه يعكس الصورة بجلاء، والشاهد يتّصل بالتعرف على شخصية الإنسان الكوفي[1]، من خلال ما ينقله لنا الطبري في تاريخه عمّا جرى لسفير الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل في الكوفة، يقول الطبري نقلاً عن أبي مخنف: «حدثني يوسف بن يزيد عن عبد الله بن حازم قال: أنا والله رسول ابن عقيل إلى القصر لأنظر إلى ما صار أمر هانئ، فلمّا ضُرب وحبس

(١) والكوفة حاضرة إسلامية مؤثرة في الكثير من الأحداث الهامة في تلك المرحلة، ولأهميتها فقد اتخذها الإمام علي عليه السلام عاصمة لدولته.

ركبت فرسي وكنت أوّل أهل الدار دخل على مسلم بن عقيل بالخبر، وإذا نسوة لمراد[1] مجتمعات ينادين يا عثرتاه يا ثكلاه! فدخلتُ على مسلم بن عقيل بالخبر، فأمرني أن أنادي في أصحابه وقد ملأ منهم الدور حوله وقد بايعه ثمانية عشر ألفاً وفي الدور أربعة آلاف رجل، فقال لي: ناد يا منصور أمت، فناديت يا منصور أمت، وتنادى أهل الكوفة فاجتمعوا إليه ... ثم أقبل نحو القصر فلمّا بلغ ابن زياد إقباله تحرز في القصر وغلق الأبواب». إلى أن يقول نقلاً عن أحد شهود العيان: «ثم إنّ الناس تداعوا إلينا واجتمعوا فوالله ما لبثنا إلا قليلاً حتى امتلأ المسجد من الناس والسوق وما زالوا يثوبون حتى المساء، فضاق بعبيد الله ذرعه، وكان كبر أمره أن يتمسّك بباب القصر وليس معه إلا ثلاثون رجلاً من الشُّرَط وعشرون رجلاً من أشراف الناس وأهل بيته ومواليه».

وبعد هذا ماذا جرى؟ وماذا فعلت هذه الآلاف المؤلفة؟ وأين ذهبت وتبددت؟ وماذا كان موقفها تجاه ابن زياد الذي غدر واستحلّ الدم الحرام بقتل هانئ بن عروة، وأعطاهم بذلك فرصةً وحجّة للاقتصاص منه، فكيف واجهوا الموقف؟

إنّ المفاجأة الكبيرة أنّ ابن زياد وبالرغم من أنّه لم يكن معه في قصره سوى ثلاثين رجلاً، فقد تمكّن من أن يفضّ الناس عن مسلم بن عقيل، معتمداً سياسة التخذيل والتخويف وشراء الذمم وأن يغيّر الموقف رأساً على عقب، يقول الطبري: «فما زالوا يتفرقون ويتصدّعون حتى أمسى ابن عقيل وما معه ثلاثون نفساً في المسجد حتى صليت المغرب فما صلى مع ابن عقيل إلا ثلاثون نفساً، فلما رأى أنّه قد أمسى وليس معه إلا أولئك النفر خرج متوجّهاً نحو أبواب كندة فلما بلغ الأبواب ومعه منهم عشرة، ثم خرج من الباب وإذا ليس معه إنسان والتفت فإذا هو لا يحسّ أحداً يدلّه على الطريق ولا يدلّه على منزل ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدوٌّ فمضى على وجهه يتلدّد في أزقة الكوفة لا يدري أين يذهب حتى خرج

(١) مراد قبيلة، والنسبة إليها مرادي.

إلى دور بني جبلة من كندة فمشى حتى انتهى إلى باب امرأة يُقال لها طوعة ..»[1].

إنّه مشهد دراميّ مأساويّ بكلّ ما للكلمة من معنى! ولا يكاد المرء يصدِّق ما جرى. ثمانية عشر ألف مقاتل يتبخّرون بين ليلة وضحاها، ويذوبون كما يذوب الملح في الماء، ويتناقص عددُهم بشكل مذهل وسريع إلى أربعة آلاف، ثم إلى ثلاثمائة، ثم إلى ثلاثين مقاتلاً، ثم إلى عشر، ثم إلى أربع، ثم وفي نهاية المطاف يجد مسلم بن عقيل نفسه وحيداً فريداً تائهاً في أزقة الكوفة، ويضطرّ إلى أن يطرق باب تلك المرأة الصالحة «طوعة»!!

ماذا جرى لتلك الآلاف؟ أين تبخّرت؟ أين وعودهم وكتبهم؟ أين شجاعتهم وسيوفهم؟ أين وأين؟ وتتوالى الأسئلة الحيرى دون أن تجد جواباً مقنعاً إلا بالقول: إننا قد غدونا أمام أمة فَقَدَ كلُّ فرد من أبنائها ثقته بنفسه وبالآخرين، فأصبح خائفاً ضعيفاً متردداً لا إرادة له، ولا يتحمل مسؤوليةً ولا التزاماً، ولا يشعر بتأنيب الضمير إذا نكث بعهوده وتملّص من وعوده، ولا يعنيه كثيراً انتهاك القيم والمبادئ ودوسها بقدميه.

النقطة الثانية: مخاطر فقد الثقة بالذات وأعراضه

ومرض فقدان الثقة بالذات له الكثير من التداعيات والأخطار السلبية على كيان الأمة، وإليك أهمّ أعراض هذا المرض ومخاطره والتي نحاول استيحاءها من جعبة التاريخ، وتحديداً من سجلات تأريخ الثورة الحسينية:

١ـ الازدواجية بين المشاعر والمواقف، وانفصام الشخصية بين ما يُعلم وما يُعمل، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾[الصف: ٢ ـ ٣]، وقد قالها الفرزدق

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٧٨.

عندما التقاه الحسين عليه السلام في الطريق وسأله عن حال الناس خلفه فأجابه: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»[١]، وهكذا فإنّ نموذج ابن سعد هو خير مثال للشخصية التي تعيش الازدواجية المذكورة، وهذا ما يعبر عنه الشعر المنسوب إليه:

أأترك مُلْكَ الـريّ والريّ منيتي   أم أرجع مأثوماً بقتل حسـين[٢]

وليس خافياً أنّ مقولة «قلوبهم معك وسيوفهم عليك» هي مقولة تعكس حال الأمة اليوم بشكل دقيق، أليست قلوب مئات الملايين من العرب والمسلمين هي مع المستضعفين في فلسطين والعراق واليمن وغيرها لكنّ سيوفهم (سيوف المال والنفط والسياسة ..) هي في خدمة أعداء الأمة من الصهاينة المحتلين وغيرهم!

٢ـ الهروب من المسؤوليات والاستحقاقات، وخير مؤشر على ذلك هو ما جرى مع مسلم بن عقيل مما تقدّمت الإشارة إليه، فقد اجتمع عليه وبايعه الألوف من أهالي الكوفة، ثم بين ليلة وضحاها تبدّدت الجموع وانفضّت الجماهير، ليجد مسلم نفسه وحيداً فريداً على باب تلك المرأة الصالحة «طوعة»[٣]. وهذا نتاج طبيعي لحالة فقد الثقة بالذات والوهن الذي دبّ في الأمة، بحيث إنّ الشخصيّة الكوفيّة آنذاك قد غدت شخصيّة ضعيفة حائرة خائفة تتجاذبها المشاعر والمصالح يميناً وشمالاً. لقد كان الناس في الكوفة يعرفون الحسين عليه السلام جيداً ويحبونه حباً جماً، ولكنهم ليسوا على استعداد للتضحية دونه أو الدفاع عنه، وقد لاحظنا أنّ البعض منهم

---

(١) انظر: دلائل الإمامة للطبري ص ١٨٢، وفي تاريخ الطبري ج٤ ص٢٩٠ جاءت كلمة الفرزدق كالتالي: «قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أميّة»، وفي العقد الفريد لابن عبد ربه، ج ٥ ص ١٢٦، جاءت كالتالي: «القلوب معك، والسيوف عليك، والنصر من الله».

(٢) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥٣.

(٣) انظر بشأن ذلك: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٧٧، والإرشاد للمفيد ج ٢ ص ٥٤.

فرّ من الكوفة قبل أن يدخلها الحسين عليه السلام حذر أن يضطرّ إلى نصرته، وهو في الوقت عينه يعلم العاقبة الوخيمة للاشتراك في سفك دمه عليه السلام أو التفرج عليه وهو يُقتل! وعلى رأس هؤلاء الفارين يبرز اسم عبيد الله بن الحر الجعفي، فقد ذكر المؤرخون أنّه وفي بعض منازل الطريق إلى الكوفة رأى الإمام الحسين عليه السلام فسطاطاً مضروباً فسأل عنه، فقالوا: هو لعبيد الله بن الحر الجعفي، قال: **ادعوه لي**، فلما أتاه الرسول قال: هذا الحسين بن علي يدعوك، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله ما خرجت من الكوفة إلا كراهة أن يدخلها الحسين وأنا بها، والله ما أريد أن أراه ولا يراني، فأتاه الرسول فأخبره فأخذ الحسين نعليه فانتعل، ثم قام فجاءه حتى دخل عليه فسلّم وجلس، ثم دعاه إلى الخروج معه، فأعاد عليه ابن الحر تلك المقالة، فقال عليه السلام : **فإلا تنصرنا فاتق الله أن تكون ممّن يقاتلنا فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ثم لا ينصرنا إلا هلك قال أما هذا فلا يكون أبداً إن شاء**»[1]، وتذكر بعض المصادر أنّ عبيد الله بن الحر عرض تقديم فرسه إلى الإمام! قائلاً: «هذا فرسي خذه إليك، فوالله ما ركبته قط وأنا أروم شيئاً إلا بلغته، ولا أرادني أحد إلا نجوت عليه، فدونك فخذه. فأعرض عنه الحسين عليه السلام بوجهه، ثم قال: **لا حاجة لنا فيك ولا في فرسك، وما كنت متخذ المضلين عضداً، ولكن فُرْ، فلا لنا ولا علينا**»[2].

وفي زماننا هذا فإن الأمة ليست أفضل حالاً مما كان عليه حال أهل الكوفة، فمَنْ يجيل الطرف ويتأمل في حال أمة المليار والنصف المليار نسمة، سيجدها أمة ضعيفة خائرة القوى لا ريح لها، وتعيش على هامش الأمم! وإلاّ فكيف نفهم حقيقة أن هذه الأمة ـ بكلِّ إمكاناتها ومقدراتها وعديدها ـ عاجزة عن تحرير

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٨، والإرشاد للمفيد ج ٢ ص ٨١.
(٢) الأمالي للصدوق ص ٢١٩.

أرضها السليبة في فلسطين وفكّ أسرها من الصهاينة المحتلين الذين لا يتجاوز عددهم بضعة ملايين نسمة!

٣ـ الخوف من المواجهة الفكرية وعدم الاستعداد للاستماع إلى الآخرين، وهذا من النتائج الطبيعية للمرض المشار إليه، فإنّ من يفقد الثقة بالذات يتهرب من الحوار والمحاججة، وإذا أجاب فإنّ جوابه يكون على طريقة جواب بني إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[البقرة: ٨٨]، بينما الإنسان الذي يمتلك الثقة بنفسه فإنّه لا يهرب من الحوار ولا النقاش ولا يخيفه ذلك. إنّ الهروب من المواجهة ليس هو الأسلوب الوحيد الذي يعتمده الإنسان الضعيف في حجّته، بل إنّه يعتمد أيضاً أسلوب التشويش والتعمية، كما حدثنا القرآن الكريم عن بعض المشركين وأنّهم قالوا لأتباعهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[فصلت: ٢٦]. ويبلغ الخوف من المواجهة عند بعض الناس حداً يدفعه إلى أن يسدّ أذنيه عن الاستماع إلى دعوة الحق، كما حصل مع ذاك الصحابيّ المدني الأسعد بن زرارة، الذي دخل مكّة المكرمة في بداية الدعوة الإسلامية، وكان مُحرِماً (لأنّ العرب كانوا يحجون في زمن الجاهلية) فأراد الطواف لكنّ بعض عتاة المشركين خوّفه من الدخول إلى المسجد الحرام حتى لا يسحره محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بكلماته، فسأل ابن زرارة: ما الحلّ إذن وأنا محرم ولا بدّ لي من الطواف؟ قال له ذلك القرشي: الحلّ أن تضع في أذنيك القطن، وتذهب للطواف فلا تسمع شيئاً من كلامه، وهكذا كان! فقد فعلها أسعد وسدّ أذنيه بالقطن، ومشى في الطواف على هذه الحالة! ولولا أن تداركته صحوةٌ من عقله ولطفٌ من ربه تعالى لظلّ على حالته تلك، وهي حالة من العمى الفكري الذي يدفع الإنسان إلى تجميد عقله[1]. إنّ سياسة وضع القطن في

(١) انظر: حول هذا الموضوع ما سجلناه في كتاب: عاشوراء ـ قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء ص٨٦.

الأذنين أو دفن الرأس في الرمال قد استخدمت ـ أيضاً ـ مع الإمام الحسين عليه السلام، فقد روى العديد من المؤرخين أنّ جمعاً من رؤوس أهل الكوفة قد ردّوا على الحسين عليه السلام بينما كان يعظهم ويذكرهم برسائلهم وكتبهم قائلين: «ما ندري ما تقول!»(١).

ولا تزال هذه السياسة قائمة وتستخدم إلى يومنا هذا، وربما تطوّرت بتطوّر الوسائل، حيث يتم في أيامنا إغلاق الوسائل الإعلامية ومنعها من البثّ، ليترك المجال أمام الفضائيات الموجَّهة والتي تمارس سياسة التضليل الإعلامي أو سياسة تخدير الشعوب وإلهائها بهموم لا تمتُّ بأيّة صلة إلى قضاياها المصيرية ومشاكلها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية.

٤ـ انهيار منظومة القيم لدى الإنسان، لأنّ فقد الثقة بالذات سيجعل الإنسان عرضة للتفلّت الأخلاقيّ وحقلاً خصباً للغزو الفكريّ والثقافيّ، ومن البديهيّ أنّ المنظومة الأخلاقية هي الحصن الأخير التي تحمي إنسانية الإنسان فبانهيارها تنهار إنسانيته، ويستسهل ارتكاب كلّ الفظائع أو الجرائم، ومن هنا وجدنا أنّ الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء حاول في نهاية المطاف ـ وبعد أن استنفد كل الجهود الرامية إلى إيقاظ الحسّ الديني في تلك الجماعة التي أطبقت عليه تريد قتله ومنعت عنه الماء، وتعرّضت لأطفاله وعياله ـ استصراخ الضمير الإنسانيّ واستنهاض الحسّ الأخلاقي فيهم، فتوجّه إليهم قائلاً: «**إن لم يكن لكم دين ولا تخافون يوم المعاد فكونوا أحراراً ذوي أحساب، امنعوا رحلي وأهلي من طغاتكم وجهالكم**»(٢)، وكل ذلك لم يُجْدِ نفعاً، ما يكشف وبوضوح عن انهيار منظومة القيم والأخلاق عند تلك الجماعة.

(١) انظر: الإرشاد للمفيد ج٢ ص٩٨، وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٤٤، وإعلام الورى للطبرسي ج١ ص٥٤٩.
(٢) الكامل لابن الأثير ج٤ ص٧٧.

والمتأمل فيما آلت إليه أمور الإنسان في زماننا سيرى بوضوح حالة التردي الأخلاقي، والتي بلغت حدّ انقلاب المفاهيم لتغدو الرذيلة أمراً مألوفاً ومحمياً بالقانون، بينما يُنظر إلى الفضيلة في الكثير من الحالات باعتبارها تخلّفاً.

إننا بحاجة ماسة إلى إعادة بعث مفهوم الفضيلة والتبشير به وتربية الأجيال عليه، لأنّ الإنسان بدون الفضيلة والأخلاق يفقد معنى إنسانيته ويغدو أقرب شيء إلى الوحوش الضارية أو البهائم السائحة.

٥ـ هدر الطاقات والعقول، إنّ النتيجة الطبيعية لفقدان الأمة ثقتها بذاتها هي: هدر الطاقات والعقول والكفاءات والمقدرات، وتغدو هذه الطاقات والعقول عرضة للنهب أو الهجرة إلى دول أخرى. أليس هذا حالنا؟ ألا تتحدث الأرقام عن أنّ عشرات الآلاف من أصحاب العقول المبدعة والكفاءات المميّزة من أبناء أمتنا لم يجدوا ملجأً آمناً أو سبيلاً للعيش الكريم في بلدانهم، ما اضطرهم إلى اللجوء إلى الغرب الذي فتح أبوابه لهم وقدّم لهم كل المحفزات والإغراءات.

هذه حال أمتنا اليوم، أمة يمكن لكل إنسان عاقل أن يرصد فيها ـ وبكل سهولة ـ الكثير من الأعراض أو الأمراض المشار إليها.

النقطة الثالثة: أسباب فقد الثقة بالذات

والسؤال: ما الذي أوصل الأمة أو يمكن أن يوصلها إلى هذا المستوى من التردي والانحطاط؟

من الطبيعي أنّ مرضاً كالذي نتحدّث عنه ليس وليد اللحظة، ولا هو ابن ساعته ولا تصل الأمة فجأة إلى هذا المستوى من الهوان، بل إنّ ثمة مساراً انحدارياً تراكمياً يوصلها إلى هذا الدرك المتردي، ويمكننا تلخيص ذلك بالعناوين التالية التي نقدّر أنّها أسباب عامة تؤسس لهذا المرض في كل زمان أو مكان:

أولاً: اعتماد سياسة التعتيم، وذلك بإخفاء الحقائق، والتعمية عليها، أو عدم الاهتمام بها، ولعل أخطر ما ارتكبته السلطات الاستبداديّة في التاريخ الإسلامي هو محاولة سدّ المنابع الأصيلة للثقافة الإسلامية، فمُنعت كتابة حديث رسول الله ﷺ، فضاع بذلك الكثير من العلم النافع، ولا شك أنّ هذه السياسة التجهيليّة قد تركت أثراً بالغاً في نفوس المسلمين ولا سيما أهل الشام الذين حاصرتهم الدعاية الأموية فلم يعرفوا من الإسلام إلا اسمه، قال المسعودي: «وذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم: مَنْ أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: أراه لصاً من لصوص الفتن!»[1].

ثانياً: اعتماد سياسة التلبيس والتضليل، وذلك بالتشويش على الحقائق، ومحاولة قلبها، وهذا ما حصل من خلال فتح الأبواب أمام الوضاعين الذين اختلقوا الأحاديث التي تضلل الرأي العام، ومن ذلك: الأحاديث التي تمّ وضعها في ذمّ علي عليه السلام ومدح خصومه. يذكر ابن أبي الحديد أن معاوية «كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة فإنّ هذا أحب إلى وأقر لعيني وادحض لحجة أبى تراب وشيعته وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله. فقرئت كتبه على الناس فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها. وجَدَّ الناس في رواية ما يجرى هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر وأُلقي إلى معلمي الكتاتيب فعلّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن وحتى

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٩.

علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم فلبثوا بذلك ما شاء الله[١].

إنّ الإتيان بخبر مناقض لما ورد في حق علي عليه السلام هو دعوة علنية من أعلى سلطة في الدولة إلى ممارسة الوضع بغرض التضليل والتلبيس على الناس، لأنّه بذلك تضيع الحقائق في وسط ركام من الأخبار المتناقضة.

وأسلوبا التعتيم والتلبيس، هما أخطر الأساليب التي تعتمدها وسائل الإعلام المأجورة في زماننا، وهما أسلوبان قديمان، وقد أشار القرآن الكريم إلى اعتمادهما من قبل بني إسرائيل، وقد نهاهما الله عن ذلك، قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة: ٤٢].

ثالثاً: العمل على تحييد الأمة وإبعادها عن كل محاولات مواجهة السلطان والسعي إلى إسقاطه، عن طريق نشر «مفاهيم دينية» ملتبسة من قبيل مفهوم الاعتزال الذي يتذرّع به بعض الناس لتبرير تقاعسه عن نصرة الحق وأهله، مع إعطائه مستنداً شرعياً، أو من قبيل مفهوم «الحياد في أجواء الفتن»، وهو مفهوم صحيح، إلاّ أنه كسابقه، لا محل له ولا موضوع عندما يكون الصراع بين الحق والباطل، فإنّه لا اعتزال ولا حياد في هذه الحالة، بل لا بدّ من الوقوف إلى جانب الحق وأهله. وهذا الهدف يمكن إدخاله في بعض الأهداف المذكورة أعلاه.

وغير بعيد عن ذلك العمل على تغذية الصراعات الكلامية ذات الطابع الجدلي، في محاولةٍ لإلهاء الأمة وإشغالها بهذه النـزاعات، ويُرجَّح أن الكثير من الخلافات الكلامية الجدليّة، من قبيل الخلاف في قضية خلق القرآن وغيرها، كان للسلطة دور في تأجيجها[٢].

رابعاً: اعتماد سياسة تخدير الأمة، استناداً إلى جملة من المفاهيم الدينية

(١) شرح نهج البلاغة ج ١١ ص ٤٥.

(٢) الإلهيات على هدي الكتاب والسنة والعقل، الدار الإسلامية، ج١، ص ١٨٩.

المزوّرة والتي لا نبالغ إن أسميناها بـ «المخدرات الدينية»، والتي يفوق تأثيرها تأثير المخدّرات المعروفة، والنموذج الأبرز لذلك هو: «عقيدة الجبر»، التي تعني سلب إرادة الإنسان، وتنفي مسؤوليته عن كلّ ما اقترفته يداه من ذنوب أو جرائم. وتشير الدلائل والشواهد التاريخية، إلى أن السّلطة الأمويَّة هي من روّج لهذه العقيدة في أوساط المسلمين، إلى درجة أنّ المؤلفين فيما يعرف بـ «الأوائل»، ذكروا «أنّ معاوية أول من زعم أن الله يريد أفعال العباد كلّها»[١]، ولما نصّب ابنه يزيد خليفةً على المسلمين، واعترض عبد الله بن عمر ـ فيمن اعترض ـ على تنصيبه إياه، أجابه قائلاً: «.. وإنَّ أمر يزيد قد كان قضاءً من القضاء، وليس للعباد خيرة من أمرهم»[٢].

وقد كان أبو علي الجبائي صريحاً في اتهام معاوية بـ«فبركة» مفهوم الجبر، حيث قال على ما حكاه عنه القاضي عبد الجبار: «ثم حدث رأي المجبرة من معاوية لما استولى على الأمر، ورآهم لا يأتمرون بأمره فجعل لا يمكنه حجة عليهم.. فقال: لو لم يرني ربي أهلاً لهذا الأمر ما تركني وإياه، ولو كره الله تعالى ما نحن فيه لغيّره»[٣].

وينقل القاضي عبد الجبار بعضاً من كلمات «ملوك بني أميّة» الصريحة في تبني نظرية الجبر، ثم يعلّق قائلاً: « فهذا الأمر الذي هو الجبر نشأ في بني أميّة وملوكهم وظهر في أهل الشام، ثم بقي في العامة وعظمت الفتنة به»[٤].

ومن الأكيد أنَّ السلطة تهدف من وراء نشر هذه العقيدة (عقيدة الجبر) إلى:

---

(١) الأوائل، لأبي الهلال العسكري ج٢، ص١٢٥.

(٢) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، تحقيق: علي شيري، انتشارات الشريف الرضي، قم، ط١، ١٤١٣هـ، ج١، ص١٧١.

(٣) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، لعبد الجبار المعتزلي، ص١٤٣.

(٤) م.ن، ص١٤٤.

١ـ تبرير كافة أفعالها وتصرفاتها التي تتجاوز فيها الحدود الشرعية، سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي أو السياسي، كما برّر معاوية نَصْبَ يزيد وتعيينه خليفةً للمسلمين استناداً إلى هذا المفهوم.

٢ـ تخدير الأمة وشلّ إرادتها، بالإيحاء إلى النّاس أنَّ عليهم الاستكانة للواقع بكلّ سلبياته ومفاسده، لأنه لا يمكن تغيير ما قضاه الله وقدّره، ما يعني من الناحية العملية الخضوع التام لإرادة السلطان.

خامساً: اعتماد سياسة الترغيب واستمالة الناس من خلال شراء الضمائر بشتى الإغراءات المادية، من قبيل الإغراء بالمناصب ومنح المغانم وإعطاء المكاسب الماليّة، وأول من بدأ سياسة شراء الذمم هو معاوية ابن أبي سفيان، ينقل ابن أبي الحديد عن شيخه أبي جعفر الإسكافي: «أنّ معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام، تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جُعْلاً (عوضاً مالياً) يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه»[١].

وهذه السياسة قد أثّرت أثرها البالغ في النفوس فأفسدت الكثيرين ودفعتهم لتغيير مواقفهم، فَمُلْكُ الري[٢] هو الذي دفع عمر بن سعد إلى أن يحمل دم الحسين عليه السلام في عنقه إلى يوم القيامة. فقد ذكر المؤرخون أنّ الإمام الحسين عليه السلام أرسل إليه بُريراً، فقال له: يا عمر بن سعد! أتترك أهل بيت النبوة يموتون عطشاً وحِلْتَ بينهم وبين الفرات أن يشربوه وتزعم أنّك تعرف الله ورسوله؟! قال: فأطرق عمر بن سعد ساعة إلى الأرض ثم رفع رأسه وقال: إنّي والله أعلمه يا برير علماً يقيناً أنّ كل من قاتلهم وغصبهم على حقوقهم في النار لا محالة،

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٤ ص ٦٣.
(٢) منطقة كبيرة تقع جنوب طهران حالياً.

ولكن ويحك يا برير! أتشير عليّ أن أترك ولاية الري فتصير لغيري؟ ما أجد نفسي تجيبني إلى ذلك أبداً، ثم أنشأ يقول:

دعاني عبيد الله[1] من دون قومه ... إلى خطة فيها خرجت لحيني

فو الله لا أدري وإني لواقف ... على خطر يعظم على وسيني[2]

أأترك ملك الري والري رغبة ... أم أرجع مذموماً بثأر حسين

وفي قتله النار التي ليس دونها ... حجاب وملك الري قرة عين

فرجع برير بن خضير إلى الحسين فقال: يا بن بنت رسول الله! إنّ عمر بن سعد قد رضي أن يقتلك بملك الري!»[3].

سادساً: قتل الطاقات الواعية في الأمة، وهو من أخطر الأساليب التي اعتمدها الطغاة على مرّ التاريخ وقد اعتمدها العقل الكسروي[4] في الإسلام، وذلك للتخلص من مناوئيه، والقتل هنا اتخذ أحد شكلين:

١ـ قتل الشخص، إما باعتماد أسلوب مباشر وهو الإعدام، أو اللجوء إلى أسلوب القتل الخفي عن طريق دسّ السم أو غيره من أشكال القتل غيلة، وقد برع معاوية بن أبي سفيان بالأسلوبين معاً، فهو قد أقدم على تصفية بعض كبار الشخصيات الموالية لعلي عليه السلام والمؤثرة في الأمة، وعلى رأسهم حجر بن عدي الكندي وأصحابه في مرج عذراء[5]، وهو متهم

(١) يقصد عبيد الله بن زياد.

(٢) في كتاب «مطالب السؤول في مناقب آل الرسول» لمحمد بن طلحة الشافعي ص ٤٠١ ورد الشطر الثاني من البيت هكذا: «على خطر لا أرتضيه ومين».

(٣) الفتوح لابن أعثم ج ٥ ص ٩٦.

(٤) لعل الخليفة عمر بن الخطاب هو أول من تنبه إلى أنّ النهج الذي اعتمده معاوية في الحكم يضاهي النهج الكسروي البعيد عن منهج رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك، فقد روي أنه عندما جاء عمر إلى الشام ورآه «في أبهة الملك وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال: أكسروية يا معاوية!»، لكن معاوية اعتذر له قائلاً: «إنّا في ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة»، انظر: تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ٢٠٣.

(٥) انظر: المستدرك للحاكم النيسابوري ج ٣ ص ٤٦٨.

بدسّ السمّ إلى مالك الأشتر النخعي أحد المساعدين الأساسيين للإمام علي عليه السلام، قال السمعاني «سمّه معاوية في العسل، ولما بلغه الخبر، قال: إنّ لله جنوداً من العسل»[1].

٢ـ قتل الشخصية، وذلك من خلال تشويه صورة الخصم، ببثّ دعاية مغرضة ضده، ورميه ببعض الإشاعات التي تؤثر على سمعته بين الناس.

وإلى هذين النوعين من القتل، يشير قوله تعالى وهو يتحدث عن موقف اليهود من الرسل والأنبياء عليهم السلام: ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾[البقرة: ٨٧]، فالتكذيب هو سياسة تحاول قتل الشخصية قتلاً معنوياً.

سابعاً: إلى ما تقدّم فعلينا أن نضع في الحسبان أنّ الأمة آنذاك قد خاضت العديد من الحروب الداخليّة القاسية والتي كان الحقّ يشتبه فيها أحياناً على السذّج والبسطاء، إنّ تلك الحروب قد أنهكت القوى واستنزفت الطاقات وأوجدت حالة من اليأس، وجعلت الناس يشعرون بحاجتهم إلى قسط من الراحة.

وفي زماننا يعمل الاستكبار العالمي وأدواته من الزعماء والملوك على إدخال الأمة في سلسلة من الحروب العبثية التي تستنزف طاقاتها وتُنهك قواها، ما يجعلها مستعدة للخضوع للشروط المذلة والمهينة. ألا ترى معي ـ أيها القارئ الكريم ـ كيف أنّ أمتنا الإسلامية قد أُدخلت في العقود الأخيرة في أتون العديد من الحروب البينية والتي يُضفى عليها عناوين مختلفة، لكن يجمعها شيء واحد أنّها حروب عبثية لا هدف لها ولا معنى، إلا استنزاف الطاقات وتبديد الثروات وإلهاء الأمة وإشغالها عن ساحة الصراع الأساسية وهي الصراع مع العدو الإسرائيلي.

إنّ كل العوامل المتقدّمة أورثت الأمة فائضاً من التردد والوهن وضعف

(١) الأنساب للسمعاني ج ٥ ص ٤٧٦.

الإرادة، وحبّ السلامة، وخلقت في المسلمين حالة من الشلل والاستكانة والخنوع وفقد الثقة بالذات. وساهمت في إفساد المجتمع وإضعاف المناعة الروحية والأخلاقية لدى أبنائه.

المطلب الثاني: التفكير في سبل العلاج

إنّ عمليّة نهوض الأمّة لا تحصل صدفة ولا تحقّقها الأمنيات ولا المواعظ والخطابات ولا الشعارات، بل هي عملية دقيقة لها ظروفها وأسسها ومرتكزاتها وشروطها الحضارية التي لا بدّ أن تستنفر لأجلها كلّ الطاقات والإمكانات والعناصر البشرية التي تملك علماً ووعياً وإخلاصاً للأمة من أجل العمل على توفيرها، وإليك أهم هذه الشروط:

أولاً: وعي الذات والاعتراف بالمرض

أعتقد أنّ معرفة المرض هو البداية الطبيعيّة لعلاجه، والتفكير في مشاكل الأمة وأزماتها يعبّر عن إدراكنا للمشكلة، وإحساسنا بها، ولا ريب أنّ أخطر أمراض الأمة وأشدها فتكاً هي تلك الأمراض التي لا يعيها الإنسان ولا يحسّ بها إلاّ بعد فوات الأوان، قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً**﴾[الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

ولهذا فالمدخل الضروري والمهم في عمليّة النهوض يتمثّل بـ «العودة إلى الذات»، والعودة إلى الذات عنوان صغير في حروفه كبير في مضمونه، والذي أعتقده أنّه لن يتسنى لأمتنا أن تصحو أو تستفيق من كبوتها وتخرج من هذا النفق المظلم الذي دخلته منذ قرون إلاّ بالعودة إلى الذات، فماذا نعني بالعودة إلى الذات؟ وكيف نجسد ذلك؟ هذا ما نتطرق إليه في الفقرة التالية.

ثانياً: المراجعة النقديّة

إنّ العودة إلى الذات تفرض علينا قبل كل شيء أن نحدّد هذه الذات، فمن نحن ثقافياً وإنسانياً وحضارياً؟ ما هي علاقتنا بالآخر ونظرتنا إليه؟ وكيف نبني هذه العلاقة مع أنفسنا ومع غيرنا؟

وهذا يفرض علينا القيام بوقفة مطولة مع الذات، وقفة مراجعة مع أنفسنا لمساءلتها ومحاسبتها، ولا أقصد بالمحاسبة أو المساءلة هنا المساءلة الفردية، مع أنّ محاسبة أنفسنا كأفراد ضروريّة ومهمة، فليس ثمة ما يمنع من أن يسأل كل فرد منا نفسه: أنا من أين وإلى أين وفي أين؟ بيد أننا نتحدّث هنا عن المساءلة الجماعية، نتحدّث عن الأمة ككيان له شخصيته المستقلة عن شخصية الفرد، هذه الأمة مدعوة بمؤسساتها الاستشرافية وبنخبها وبأهل الوعي والبصيرة فيها وبكل أفرادها من العالم والطبيب والمهندس والإعلامي إلى القيام بهذه المراجعة. إنّ هذه المراجعة بعيداً عن الضوضاء والصخب، ومؤثرات العقل الجمعي، هي أكثر من ضرورية، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ**﴾[سبأ: ٤٦]. وفي سياق القيام بمراجعة نقدية مع الذات، فلتطرح الأسئلة الجريئة: ماذا جرى لنا؟ ماذا نريد؟ وإلى ماذا نتطلّع ونطمح؟ ما موقفنا من التاريخ وكيف نستعيده؟ فلنسأل أنفسنا كأمة أين كنا وأين أصبحنا؟ ولماذا؟ ما هي مكامن الخلل فينا؟ هل الخلل فينا أم في فكرنا وديننا؟ أم في تلقينا لهذا الفكر؟ أم الخلل في إرادتنا؟ لماذا يتحوّل الإنسان المسلم بين ليلة وضحاها إلى شخصية دموية وحشية بكل معنى الكلمة؟ لماذا تمزّقنا شيعاً وأحزاباً ولم نجد سبيلاً إلى الآن نلجأ إليه في إدارة الاختلاف أو تنظيمه؟ إنّ انتماءنا للإسلام يحتم علينا أن نطرح هذه الأسئلة وأن يساهم كل واحد منا في إيجاد الحلول والإجابات عنها.

وإنّ منطق السنن التاريخية يعلمنا ويؤكد لنا ـ بما لا مجال للّبس فيه ـ أهمية هذه الوقفة والمراجعة، وأنها تحتاج إلى معاناة ومكابدة ومجاهدة وتحتاج إلى الكثير من التضحيات والشهداء، أقصد شهداء الوعي الذين سوف يغتالهم الجهل بسهام التكفير والتضليل، لكنّها برغم ذلك تبقى هي الأمل، وهي تمثّل الشرط الأساس لاستفاقة الأمة ونهوضها، والمتأمل في تاريخ الأمم والشعوب التي استطاعت أن تحجز لها مكانة في سجلات التاريخ الذهبية لا يخالجه أدنى شك في أن الخطوة الأولى في نهوضها كانت في إجرائها وقيامها بمراجعة نقدية.

ثالثاً: استخلاص العبر

ويقيني أنّ المراجعة النقدية إذا جرت بالشكل الصحيح ستقود إلى مجموعة من النتائج والخلاصات الهامة:

١ـ الخلاصة الأولى: هي أنّ الدين الإسلامي في نصوصه ومفاهيمه وقيمه ليس سبباً لمآسينا وتخلّفنا وتمزّقنا.

إنّ المشكلة ليست في الدين، وإنما في فهمنا له، وبالأحرى فإنّ المشكلة هي في عدم فهمنا للدين في مقاصده، وفي سوء تطبيقنا لتعاليمه وأحكامه، فهذا الدين الذي يحمل عنوان ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[الأنبياء: ١٠٧] لا يمكن أن يكون نقمة، والدين الذي يكرّس مبدأ الكرامة الإنسانية في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[الإسراء: ٧٠]، لا يمكن أن يدعو إلى احتقار الآخر الديني أو المذهبي.

٢ـ الخلاصة الثانية: التاريخ قاعدة انطلاق نحو المستقبل

وقد يتخيل البعض أننا عندما نطرح شعار العودة إلى الذات فإننا نريد للحياة أن تعود إلى الوراء، ليعيش المسلم في كهوف الماضي وزنازينه أو ينتشي على

زهو انتصاراته، وأننا نريد أن نتشبث بتراثنا بغثّه وسمينه، مع أنّ هذا الماضي قد يكون جزءاً من تخلّفنا.

ولكننا نعتقد أنّ العودة إلى الذات لا تعني الانسلاخ عن عصرنا لنعيش في غيابات الماضي، ولكنها لا تعني حتماً أن ننسلخ من هويتنا وثقافتنا وننزع لبوسنا، فلا استنساخ تجربة الآخرين ومحاكاتهم كما يستهوي بعض المستغربين هي الحل الصحيح، ولا استنساخ تجربة ماضينا المنصرم كما يريد بعض الماضويين منا هي الحلّ، بل لا بد أن نتوازن، ففي الوقت الذي لا يحق لنا أن ننقطع عن عصرنا ومنجزاته، لا يجوز لنا أيضاً أن ننقطع عن تاريخنا ومحطاته المشرقة. إنّ أمة بلا تاريخ هي أمة بلا هوية وبلا حاضر وبلا مستقبل.

المطلوب إذن أن نبني على هذا التاريخ لا أن نسكن فيه، وأن نعيد قراءته لا أن نقدسه ونتجمد فيه، أن نبني عليه للانطلاق إلى المستقبل، وأن نفكك بين ثابته ومتحركه، وأن نميّز صَفْوه من كدره، وأن لا نخلط بين ما هو مقدّس وما هو نسبي، لأننا ـ مع الأسف ـ أضفينا هالة من القداسة على هذا التاريخ بكل مفاصله ورموزه، حتى أضحينا مسكونين فيه كما هو مسكون فينا، وهكذا أصبح الكثيرون منا يعيشون على الأطلال، فلا مشروع لهم ولا إنجازات سوى التغنّي بذكرى الأجداد، دون أن نعمل على استعادة تلك الأمجاد أو الإفادة من تلك الانتصارات.

رابعاً: السعي في بناء الثقة بالذات

ومن الخطوات الهامة في معالجة مرض الأمة: العمل الجاد في سبيل إعادة بناء الثقة بالذات، وتفعيل الارتباط بالهويّة، بمداميكها الروحية والحضارية والإنسانية والتاريخية، ويفترض بالخطاب الديني الفكري والتربوي أن يعتبر هذا الأمر أولوية له، فيعمل على تعزيز هذه الثقة بالذات وزرع الأمل في النفوس.

إنّ هذا الواقع المتشرذم والمأزوم لا ينبغي أن يبعث فينا حالة من اليأس أو يدفعنا إلى الإحباط، ومشكلة البعض منا أنه يريد القيام بمراجعة نقدية لتاريخه وتراثه تحت وطأة الانهزام النفسي والمعنوي ومن منطلق الشعور بالدونية، ومراجعةٌ كهذه محكومة بالفشل، ولهذا نجد أصحابها شرّقوا أو غرّبوا.

إنّ بداية انهيار الأمم وتقهقرها هي بداية فَقْدِها ثقتها بذاتها، فالأمم الرائدة والتي يكتب لها البقاء هي التي لا تخجل بانتمائها ولا تنسى أو تتناسى انتصاراتها، إنّ البعض يريدنا أن نكون بلا ذاكرة ليُنسينا انتصاراتنا ويزيل من قاموسنا الذكريات الجميلة والتي تمثِّل العزة والكرامة[1]، ولا شك أنّ أمثال هؤلاء هم جماعة تعيش حالة من الاستلاب الفكري وليس لهم انتماء أصيل إلى هذه الأمة، ولذا فإنّهم يخجلون من حاضرهم المشرق أو يتناسونه، وكأنهم يسعون إلى أن تبقى هذه الأمة على الهامش!

ويحضرني هنا مقطع من الزيارة المعروفة التي يزار بها الإمام الحسين عليه السلام، حيث يستحضر الزائر في فقراتها الامتداد التاريخي الذي يمثله الحسين عليه السلام، بما يجعله وارثاً للأنبياء عليهم السلام، يقول المقطع المذكور: «**السلام عليك يا وراث آدم صفوة الله السلام عليك يا وراث نوح نبي الله السلام عليك يا وارث ابراهيم خليل الله السلام عليك يا وراث موسى كليم الله السلام عليك يا وارث عيسى روح الله السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله..**»[2]، فالإمام الحسين عليه السلام إذن ليس شخصيّة طارئة، إنه خطّ ممتدّ وراسخ في أعماق التاريخ.

وفي ضوء ذلك، فإنّنا نعتقد بضرورة ابتعاد الخطاب التغييري الإصلاحي عن ممارسة النقد على طريقة جلد الذات التي لا تبقي بارقة أملٍ لدى أبناء الأمة،

(١) من قبيل ذكرى الانتصار المظفر الذي حققته المقاومة الإسلاميّة في لبنان على العدو الإسرائيلي، وذكرى تحرير أرضنا في جبل عامل من رجس الاحتلال.

(٢) كامل الزيارات ص ٣٧٥، ومصباح المتهجد ص ٧٢٠.

وتهدم البنيان القائم دون أن تقدم البدائل، فخطاب كهذا ليس موفقاً بالتأكيد، بل إنّه سيزيد الأمة وهناً على وهن، وسوف يفاقم مشكلة الثقة بالذات ويزيدها استفحالاً، بما يشكّل عائقاً أمام عمليّة استنهاض الأمة.

خامساً: الحاجة إلى الثائر والمصلح

وتبقى الخطوة الأهم في المرحلة العلاجية، وهي ضرورة البدء بعمل تغييري شامل على الصعيد النفسي والروحي والأخلاقي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وهذا العمل هو المنطلق لإعادة الأمة إلى أصالتها وإلى لعب دورها الطبيعي، أو قل في عملية بناء الذات التي أصابها الضياع والتشوّه وتحكّم بها ضعف الإرادة وتذبذب المواقف وازدواجيتها، وهذه ليست مسألة بسيطة أو سهلة، إنّها تحتاج إلى جهود جبارة وعمل دؤوب وكفاءات استثنائية، والذي أعتقده أنّ هذه المهمّة تحتاج إلى شخصيتين قياديتين: شخصيّة ثائر، وشخصية مفكر ومصلح، أو قل إنها تحتاج إلى شخصية واحدة تختزن البعدين المذكورين. وحاجتنا إلى شخصيّة الثائر تنبع من حاجة الأمة التي فقدت ثقتها بذاتها إلى صدمة عاطفية تهز الوجدان والمشاعر، وتوقظ الوعي الذي دخل في سبات عميق، إنّ هذه الصدمة ضرورية ولا يُستغنى عنها، لأنّ الأمة عندما تفقد ثقتها بذاتها فلن تنفعها المواعظ والتنظيرات الفكرية إن لم تترافق مع هزّة وجدانية، لأنّ الأفراد قد يعرفون الحق ولكنهم لضعف إرادتهم وتعلقهم بالمصالح الدنيوية والمؤقتة لا يتبعونه ولا يكون لديهم استعداد للتضحية والبذل، بل ربما حاربوا أهل الحق وعاندوهم.

وقد كانت الصدمة التي أيقظت الأمة الإسلامية آنذاك هي أن يُقدّم الحسين عليه السلام نفسه شهيداً على مذبح الحريّة، ليشكّل هذا الحدث بما تضمنه من عناصر مأساوية دامية منقطعة النظير أكبر هزة لضمائر المسلمين الذين راعهم ما حدث،

وسيطرت عليهم حالة الندم والإحساس بالتقصير والشعور بالذنب، ومن هنا انطلقت الحركات الثورية المعارضة والتي حملت عناوين دالة ومعبرة عن هذا الجرح العميق الذي حفره مقتل الحسين عليه السلام وأهل بيته في نفوس المسلمين، كحركة التوابين وغيرها.

ولكنّ العمليّة الثوريّة إن لم تترافق مع عمليّة إصلاحية فلن تؤدي غرضها المنشود، فدور الثائر هام وضروري، وهو ـ في الواقع ـ يهيّىء الأرضية أمام الإصلاح ويجعل النفوس مستعدة ومتلهفة لتلقّي عملية الإصلاح وتقبّلها. وإذا غدت النفوس مهيأة عندها يأتي دور المصلح والمفكر ليقوم بتصحيح الانحراف الفكري وتقويمه، فيثمر تظافر الجهود وتكاملها في إحداث تغيير شامل.

وخلاصة القول: إنّ الأمة لتستفيق من كبوتها وتستعيد ثقتها بذاتها تحتاج إلى مفكّر وثائر، فالمفكّر المصلح يعمل على الاجتهاد في النصوص والثائر يجتهد ويجهد في إيقاظ النفوس، المصلح يعمل على تحريك عجلة الدين التي أصابها التكلّس، بينما يعمل الثائر على تحريك نبض الأمة التي أصابها الشلل وضعف الإرادة. إنّ وظيفة المصلح أو المفكر أن يفكّ القيود التي تشلّ عقل الإنسان، بينما وظيفة الثائر أن يحرّر الأمة من قيود الظلم والعدوان.

وربما اجتمعت شخصيتا الثائر والمصلح في شخص واحد، كما حصل مع الإمام الحسين عليه السلام، الذي كان المصلح والثائر في الآن عينه، وقد تتعدّد الشخصيتان، وعندها لا بد أن يتعاونا وتتظافر جهودُهما، وأن يكمّل أحدُهما دورَ الآخر.

سادساً: إضاءة على ضوابط العمل الثوري وأساليبه

وعلينا أن نعي جيداً أنّ المهمّتين الثوريّة والإصلاحيّة لهما شروطهما وضوابطهما، ولا يمكن أن يحصل التغيير خارج تلك الشروط، ونحن سوف

نخصص فصلاً كاملاً للحديث عن المهمّة الإصلاحيّة وهو الفصل الثالث الآتي، وأمّا المهمّة الثوريّة وأسسها وشروطها فهي ما سوف نتناوله في الوقفة التالية المعدّة لتسجيل بعض النقاط التي تشكّل إضاءة حول أهم ضوابط العمل التغييري وشروطه:

١ـ التزامن بين العمل الثوري والعمل الإصلاحي

النقطة الأولى في هذا المجال هي أنّ العملية الثوريّة على أهميتها وضرورتها لا يمكن أن تصل إلى غاياتها المنشودة إنْ لم يعقبْها عمليّة إصلاحية ثقافية تربوية، تعمل من جهة على تصحيح الانحراف الفكري والتشوّه المفاهيمي الذي أصاب عقل الأمة، و تعمل من جهة أخرى على تهذيب الإنسان ليكون صالحاً في نفسه وطاقة خير في المجتمع. والشيء المؤسف أنّ بعض الحركات الإسلامية قد أثبتت نجاحاً باهراً ومتميزاً على صعيد العمل الثوري وفي مهمّة تحرير الأرض، لكنّها فشلت في مهمّة تحرير العقل وتربية الإنسان، فضلاً عن مهمّة بناء الدولة العادلة. ولطالما كنت أشعر بالذهول والصدمة وأنا استمع إلى بعض الإسلاميين الثوريين وهم يتمنون ـ في فترات الاستقرار النسبي على جبهات القتال ـ عودة ظروف الحرب والمواجهة مع الأعداء، بذريعة أنّ شبابنا لا يستقيم خلقياً ولا ينضبط روحياً إلا في ظروف الحرب والقتال! إنّ خطورة هذا الكلام أنّه يمثل إعلان عجز وفشل لأطروحاتنا الفكرية ولمنظومتنا التربوية، فإنّ أطروحة دينية لا تستطيع أن تؤثر إلا في ظرف الحرب وتقديم الدماء لهي أطروحة فاشلة دون شك، والأطروحة الناجحة هي التي تستطيع أن تجتذب الإنسان وتجد لها أنصاراً في السلم والحرب، وفي السراء والضراء.

من هنا كانت الحاجة الماسة إلى أن يكون لدينا بموازاة العمل الثوري عمل دؤوب على الصعيد الثقافي والفكري بحيث نبني أجيالنا بناءً فكرياً عقلياً متماسكاً

ونربيهم تربية روحيّة وأخلاقية تحصِّنهم من الانحراف والانسياق مع الشهوات والغرائز، حتى لا يتسنى لأعدائنا أن يعملوا على هزيمتنا في السلم بعد أن فشلوا في هزيمتنا في الحرب.

وأعتقد أنّ من الأهميّة بمكان أن ينخرط الثائر في العملية الإصلاحية والتوعوية والتغييرية، فهو أولى الناس في قيادة هذه العملية، لأنّ إخلاصه وتضحياته ستمنحه مشروعية كبيرة في الأمة، ولكن ذلك رهن أن يأخذ الثائر بأسباب العملية النهضوية وشروطها وأن لا يقتصر على العمل العسكري.

٢ـ أساليب التغيير ووسائله المشروعة

هل يشرع في عمليّة التغيير اعتماد الثورة المسلحة أو عسكرة الحراك الجماهيري المطالب بالحقوق؟

وفي الإجابة عن ذلك يمكن القول: إنّ ما نفهمه من تعاليم الإسلام ونصوصه وسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من أهل بيته عليهم السلام أنّ الأصل في عملية التغيير داخل المجتمع هو في الحراك السلمي الجماهيري والذي يتدرج في أساليبه الاحتجاجية، هذا هو المبدأ والقاعدة الأساس. ومن الطبيعي والبديهي أن يرفض الإسلام التسرع في استخدام العنف، ويحرص على عدم التسبب بإزهاق الأرواح وانتهاك الكرامات، ما دام بالإمكان الوصول إلى عملية التغيير المنشودة من خلال الطرق السلمية قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٠] وقال تعالى: ﴿**مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**﴾[المائدة: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾[فصلت: ٣٤]، وقال سبحانه في شأن أهل الكتاب: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ**

فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة: ٨]. وقد قاربنا هذا الموضوع في مجال آخر(١)، وخلصنا إلى النتيجة التالية وهي أنّ الأصل في العلاقات الإنسانية هو السلم والحوار والدفع بالتي هي أحسن، وبرهنا أيضاً على أنّ الكافر لا يُقاتل لكفره بل لحرابته وإفساده في الأرض.

ولكن هذا لا يمنع من وصول الحراك التغييري في ذروة الصراع ـ وبعد استنفاد كافة الوسائل السلمية الاحتجاجية ـ إلى اعتماد خيارات من نوع آخر، مثل العصيان المدني أو استخدام القوة. ولكن شريطة أن يكون ذلك مبنياً على تخطيط واعٍ ودراسة مستوعبة للظروف والإمكانات بما يضمن نجاح هذه العمليّة في الوصول إلى الغاية المنشودة، وأن يتم ذلك ـ تنفيذًا أو إشرافًا ـ من خلال قيادة شرعية حكيمة عارفة بالزمان، وملمّة بالعصر والظروف السياسية، ولديها كفاءة تحديد الأولويات، أولويات الأمة ومتطلباتها ومدى استعدادها للتضحية والفداء حتى لا نغرق في الفوضى العارمة بحجة التغيير.

٣ـ أسس الممارسة الثوريّة

ومن الأهمية بمكان أن نشير هنا إلى أنّ العمل الثوري لا يمكن أن يُكتب له النجاح إلاّ إذا توفرت فيه جملة من العناصر والمرتكزات وأهمها:

١ـ شخصية الثائر وكفاءته وأهليته.

٢ـ مشروعه الثوري والتغييري.

٣ـ ممارسته الثورية، التي تلتزم الأخلاقية الثورية ولا تحيد عنها.

مع توفر هذه العناصر يمكن للممارسة الثورية أن تكون فاعلة ومؤثرة، ويكتب لها النجاح، وإن لم تؤثر في الزمن الحاضر فسوف تؤثر في المستقبل وتتحول

(١) راجع: العقل التكفيري، قراءة في المنهج الإقصائي، ص ١١٤ وما بعده.

إلى مثل يحتذى ومدرسة ترتادها الأجيال، تماماً كما هو الحال في مدرسة الإمام الحسين عليه السلام، وسوف نتحدّث لاحقاً عن هذه العناصر ونتناولها بالبحث ونلاحظ مدى توافرها في الثورة الحسينية.

المطلب الثالث:
كيف أسهمت الثورة الحسينيّة في إيقاظ الأمة؟

وهنا يصل بنا الكلام إلى المطلب الثالث والأخير من هذا المحور، وهو محاولة التعرف على الإسهامات التي قدمتها الثورة الحسينية على صعيد إيقاظ الأمة، ومعالجة مرضها المشار إليه.

وفي هذا المجال نستطيع القول: إنّ شهادة الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته بتلك الطريقة المروّعة كشفت الأمة الإسلامية وعرّتها وفضحت كلّ أشكال الزيف التي تسلّلت إلى مواقع القيادة فيها، فقد تحوّل دمُه الشريف إلى مرآة أرت المسلمين حقيقتهم وذواتهم، ووضعتهم أمام مسؤولياتهم، فَقَتْلُ سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الطريقة الفظيعة، شكّل صدمة وجدانية عارمة جعلت المسلمين في حيرة وذهول، وهم يتساءلون: أليس هذا المحمول رأسه على القناة هو الذي كان يحمله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عل كتفيه؟! أليس هذا الذي يُرضّ صدره بحوافر الخيول هو من كان يلامس صدر رسول الله ؟! أليست هاتان الشفتان اللتان تُضربان بمخصرة يزيد بن معاوية هما الشفتان نفسهما اللتان طالما رشفتهما شفتا رسول الله ؟! يا لهول ما حدث! يا لعظيم الفادحة! ماذا فعلنا وماذا دهانا؟ لماذا سكتنا؟ وتتوالى الأسئلة المفجعة في ذروة من الندم الذي أقلق النفوس وقضّ المضاجع، وقد ولّد الشعور بالندم صدمة عميقة أعقبها إحساس بضرورة التكفير عن الذنب، ومن ثم تحول ذلك إلى مبادرة، وانفجر الموقف على شكل ثورات

متلاحقة جرفت عروش الظالمين. وكان ذلك ثمرة العودة إلى الذات، الذات الرسالية، والإسلامية، لقد أعادها دم الحسين عليه السلام إلى الفاعلية والحيوية والمبادرة، أعادها إلى أصالتها وجذورها.

ربّ قائل يقول: صحيح أنّ مأساة عاشوراء قد أوجدت هزة عنيفة في الوجدان الإسلامي، لما يملكه الحسين عليه السلام من منزلة في نفوس المسلمين الذين طالما رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقبّله ويلاعبه وهو طفل(١)، وطالما سمعوه صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتحدث عن حبّه له ولأخيه الحسن عليه السلام(٢) وعن مكانته لديه وأنّه سيد شباب أهل الجنة(٣)، ولكنّ هذه التفاعل العاطفي سرعان ما تبخر وذهب أدراج الرياح، حيث وجدنا نظام الحكم الأموي ممثلاً بيزيد بن معاوية قد استمر في غيّه وظلمه وإفساده في الأرض، بل إنّه وبعد جرأته على قتل الحسين عليه السلام وأهل بيته في السنة الأولى لحكمه هانت عليه كل المحرمات، فاجترأ في السنة الثانية من حكمه على إباحة المدينة المنورة لجنده العتاة لمدة ثلاثة أيام فيما عرف بوقعة الحرّة الأليمة(٤)، وفي السنة الثالثة لحكمه اقتحم جيشه مكة المكرمة ورمى

---

(١) في الحديث عن جابر قال: «دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم: والحسن والحسين على ظهره وهو يجثو لهما ويقول: «**نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما**». وعن ابن نجيح : «كان الحسن والحسين يركبان ظهر النبي ويقولان : **حل حل**، ويقول : **نعم الجمل جملكما**» . وعن السمعاني في الفضائل عن أسلم مولى عمر عن عمر بن الخطاب قال: «رأيت الحسن والحسين على عاتقي رسول الله، فقلت : نعم الفرس لكما، فقال رسول الله : **ونعم الفارسان هما**»، انظر: مناقب ابن شهر آشوب ج ٣ ص ١٥٨ . ومسند أحمد ج ٣ ص ٣٧٣.

(٢) فقد روي عن أسامة بن زيد حدث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يأخذه [الحسين] والحسن فيقول: «**اللهم أحبهما فإني أحبهما**»، انظر: صحيح البخاري ج ٤ ص ٢١٤.

(٣) في الحديث المشهور والمروي من طرق الفريقين عنه صلى الله عليه وآله وسلم : «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»، انظر على سبيل المثال: مسند أحمد ج ٣ ص ٣، وسنن ابن ماجة ج ١ ص ٤٤ .وسنن الترمذي ج ٥ ص ٣٢١.

(٤) الذي أباحها هو يزيد، ولكنّ الذي نفّذ أمره بذلك أحد قادة جيشه المسرفين في القتل، وهو مسلم بن عقبة، جاء في تاريخ الطبري حول هذه الوقعة: «وفصل ذلك الجيش من عند يزيد وعليهم مسلم بن عقبة وقال له: إن حدث بك حدث فاستخلف على الجيش حصين بن نمير السكوني، وقال له ادع القوم ثلاثاً فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم فإذا أظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً فما فيها من مال أو رقة [دابة] أو سلاح أو طعام فهو للجند»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٧٢، ونظيره في أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٢٣، وقد بلغ ضحايا هذه المجزرة آلاف المسلمين، قال المدائني عن شيخ من أهل المدينة: سألت الزهري كم كان القتلى يوم الحرة؟ قال: «سبعمائة من وجوه الناس من

الكعبة بالمنجنيق!![1].

ولكننا نعتقد أنّ الثورات الكبيرة لا بدّ أن تُقرأ بدقة وعناية في أسبابها ودوافعها وفي نتائجها وتأثيراتها، ولا يكفي النظر ـ في تقييمنا لها ـ إلى نتائجها الآنية، بل يجدر بنا أن ننظر إلى نتائجها في الحاضر والمستقبل، وإذا نظرنا إلى المسألة بهذا المنظار الواسع فسوف نكتشف أنّ ثورة الحسين عليه السلام كانت الثورة الأكثر عطاءً وبركة على مرّ التاريخ، وكان لها العديد من النتائج الطيبة على أكثر من صعيد، وإليك بعض ثمرات هذه الثورة:

١ ـ إنّ سقوط الحكم اليزيدي كان النتيجة المباشرة لهذه الثورة، وهذه النتيجة كانت واضحة لدى المؤرخين والباحثين، ولدى الرأي العام، إلى درجة أن يصبح الأمر عبرة للطغاة ومثاراً لقلقهم ومؤرقاً لهم، فقد روي أنّ عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج بن يوسف: «جنبني دماء أهل هذا البيت، فإني رأيت بني حرب سُلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين»[2]. أجل، لقد ألهبت الثورة الحسينية وما اكتنفها من مآسٍ يندى لها جبين الإنسانية مشاعر المسلمين وشعروا بالإهانة واعتراهم الندم على خذلان ابن بنت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فاندفعوا في ثوراتٍ وانتفاضاتٍ متوالية، قوّضت سلطان بني أمية، وأودت بهم وبحكمهم:

أ ـ وأولى الانتفاضات التي اندلعت في وجه يزيد بعد مقتل الحسين عليه السلام

المهاجرين والأنصار، ووجوه الموالي. وممن لا أعرف من حر وعبد وغيرهم عشرة آلاف»، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٢، وقال المدائني: «أباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام يقتلون الناس ويأخذون الأموال ووقعوا على النساء حتى قيل: إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام. وعن هشام بن حسان: ولدت ألف امرأة من أهل المدينة من غير زوج». انظر: عمدة القاري للعيني ج ١٧ ص ٢٢١.

(١) والذي رمى الكعبة هو الحصين بن نمير فقد تولى قيادة الجيش بعد وفاة ابن عقبة، وقد حاصر ابن الزبير في مكة أربعة وستين يوما وهم «يتقاتلون فيها أشد القتال ونصب الحصين المنجنيق على ابن الزبير وأصحابه ورمى الكعبة». انظر: تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ١٤ ص ٣٨٧.

(٢) العقد الفريد ج ٥ ص ١٢٦.

هي ثورة أهل المدينة في السنة الثانية لحكم يزيد، والتي قادها عبد الله نجل الصحابي الشهيد حنظلة المعروف بغسيل الملائكة، وقد قال رضوان الله عليه مبيناً سبب خروجه: «فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء. إنّه رجل ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة!!»[١].

ب ـ ثمّ تلتها ثورة التوابين في عين الوردة سنة ٦٥ للهجرة بقيادة الصحابي سليمان بن صرد الخزاعي ورفعت شعار «يا لثارات الحسين»[٢].

ج ـ وتلتها في سنة ٦٦ هجرية ثورة المختار بن عبيد الله الثقفي الذي ثار في الكوفة وانتقم من قتلة الحسين عليه السلام، وعلى رأسهم عبيد الله بن زياد وعمر بن سعد[٣].

د ـ واستمرّت الثورات وتوالت وصولاً إلى ثورة زيد بن علي في سنة ١٢١هـ في وجه هشام بن عبد الملك، ثم ثورة يحيى بن زيد سنة ١٢٥هـ. إلى غيرها من الانتفاضات والثورات.

٢ـ التأسيس الشرعي للمنهج الثوري في عملية التغيير، وإبطال الفكرة القائلة

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص ٦٦، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٣٧ ص ٤٢٩، وتاريخ الإسلام للذهبي ج ٥ ص ٢٧، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٢٨.

(٢) للتفصيل حول هذه المعركة راجع تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٥١.

(٣) لسنا هنا بصدد البحث عن مدى وثاقة ونزاهة المختار، فهذا موكول إلى محله، إلا أن الأمر الذي لا شك فيه أن الرجل قتل معظم المجرمين الذين شاركوا في قتل الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام وقد ورد في بعض الروايات ترحم بعض الأئمة من أهل البيت عليهم السلام عليه، ففي الخبر أن علياً بن الحسين عليه السلام لما أتي برأس عبيد الله بن زياد ورأس عمر بن سعد، قال: فخرَّ ساجداً وقال: «الحمد لله الذي أدرك لي ثاري من أعدائي، وجزى الله المختار خيراً»، انظر: اختيار معرفة الرجال للكشي ج ١ ص ٣٤١، كما أنّ الرجل قد أفصح عن حقيقته وهدفه من خروجه في آخر أيامه حيث قال للسائب بن مالك الأشعري: «إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز ورأيت نجدة (الخارجي) انتزى على اليمامة، ومروان على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب فأخذت هذه البلاد فكنت كأحدهم إلا أنى قد طلبت بثأر أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله إذ نامت عنه العرب فقتلت من شرك في دمائهم وبالغت في ذلك إلى يومي هذا»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٧٠.

إنّ على الأمة أن ترضخ للحاكم الجائر وتستسلم له ولا يجوز لها الخروج على السلطان الفاسد، استناداً إلى حديث يروى عن رسول الله ﷺ قال فيه: «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان أنس، قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع!»[1]. فثورة الإمام الحسين عليه السلام كانت كفيلة بتكذيب هذا النهج الاستسلامي، ليس من خلال نهجها الثوري المقاوم فحسب، بل من خلال ما حرص الإمام الحسين عليه السلام على نقله عن جده رسول الله ﷺ، بما يُكَذِّبُ الحديث الآنف، فقد وقف عليه السلام خطيباً في أصحابه وأصحاب الحر الرياحي، فيما قال لهم: «**أيّها الناس إنّ رسول الله ﷺ قال: من رأى منكم سلطاناً جائراً مستحلاً لِحُرَم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله**»[2].

٣ـ تقديم النموذج والقدوة العمليّة، حيث إنّ الإمام الحسين عليه السلام قد تحوّل إلى رمز يحتذى وملهم يقتدى من قبل الأحرار والثائرين الذين رفضوا الرضوخ للظلم والاستكانة لسلطان الجور، ولو راجعنا كل الانتفاضات الشيعية وربما غيرها على مرّ التاريخ لوجدناها تستهدي الحسين عليه السلام وتستمد منه العزيمة والصبر والإرادة، وإنّ انتصارات المقاومين في عصرنا الحاضر على العدو الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين وعلى العدو التكفيري الذي يحمل شعار الذبح والقتل لكل من عداه مدينة إلى الثورة الحسينية ودروسها وفاعليتها وحرارتها في النفوس، وهكذا فقد

(١) صحيح البخاري ج ٦ ص ٢٠.
(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٤.

كان لمبادئ النهضة الحسينية وحرارتها التي تغلي في النفوس الأثر الأكبر في انتصار الشعب الإيراني قبل عدّة عقود على طاغية عصره الشاهنشاه محمد رضا بهلوي.

ولهذا كله فإنّ علينا أن نحرص على أن يبقى الحسين عليه السلام حاضراً في نهجه الرسالي والأخلاقي، بحيث نتمثله في سلوكنا وأخلاقنا، بدل أن يتحوّل إلى مجرد أيقونة نقدسها دون أن نتفاعل عملياً معها أو نحمل شيئاً من مزاياها.

المحور الثاني
ثورة الحسين عليه السلام حركة إصلاحية أم استشهادية؟

ما هو مشروع الإمام الحسين عليه السلام ؟

هل قاد عليه السلام حركة انتحارية أم حركة استشهادية نضالية واعية؟

هل إنّ ثورته عليه السلام هي ثورة تصحيحية أم تغييرية؟

ولك أن تتساءل هنا: أترانا إلى الآن لم نعِ مشروع الحسين عليه السلام، حتى نظل نستهلك هذه الأسئلة ونستهلك تكرار الأجوبة؟

ولكنّي أعتقد أنّ السؤال ـ في حدّ ذاته ـ ظاهرة صحيّة، هذا ناهيك عن أنّ قدر الثورات العظيمة أن تبقى في الضوء، وأن تستقطب الاهتمام، والثورة الحسينيّة هي واحدة من الثورات الهامة والمؤثرة والمفصليّة في التاريخ الإسلامي، ولذا ليس ثمة خطأ في إعادة قراءتها في منطلقاتها وأهدافها ونتائجها، لأنّنا أمام ثورة قائدة وملهمة، وثورة كهذه من الضروري أن نستلهمها ونستنطقها وأن نعاود قراءتها باستمرار على ضوء المعطيات المستجدة، فهي كالنص المقدس الذي عليك أن تعاود قراءته واستنطاقه باستمرار لاستكناه معناه واستجلاء أعماقه.

وسوف أحاول في هذا الفصل أن أجيب عن سؤال من الأسئلة المتقدّمة، وهو السؤال عن هدف هذه الثورة وطبيعتها، وهل كانت حركة استشهادية أم حركة إصلاحية؟ بينما تجيب الفصول والمحاور الآتية عن سائر الأسئلة.

تفسيرات ونظريات خاطئة

وعلينا بادئ ذي بدء استبعاد بعض التفسيرات أو النظريات الخاطئة المطروحة في تحليل أسباب النهضة الحسينية، ومنشأ هذه التحليلات الخاطئة، إمّا الجهل بالحسين عليه السلام ومقامه أو عدم الإلمام الكافي بحركته وأهداف ثورته، وإما تعمد حرف الثورة عن مسارها لأهداف وغايات معينة، ومن التفسيرات التي لا بدّ من رفضها واستبعادها:

١ـ النظرية التي تعيد قضية نهوض الحسين عليه السلام إلى سبب غيبي وتكليف خاص بالإمام، استناداً إلى ما جاء في بعض المرويات، ومنها ما نقل عن الإمام الحسين عليه السلام نفسه: «شاء الله أن يراني قتيلاً»(١).

بيد أنّ هذه النظرية ليست صحيحة، ولا تساعد عليها النصوص الآتية في هذا المحور وفي المحور اللاحق والتي أوضح فيها الإمام الحسين عليه السلام بشكل لا لبس فيه أهداف ثورته، ولم يشر في كل ما صدر عنه من بيانات إلى أنّه مأمور بتكليف خاص بالتحرّك ومواجهة يزيد، وأمّا قوله: «شاء الله أن يراني قتيلاً» فهو على فرض صحة الرواية لا يدلّ على أنّ الإمام عليه السلام كان يتحرك في ضوء تكليف خاص، وإنّما غايته أنّ الإمام عليه السلام كان عالماً ـ إمّا من خلال ما تلقّاه من علم عن جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أو من خلال استشرافه لمآلات الأحداث ـ بأنه مقتول لا محالة.

إنّ خطورة مثل هذا التفسير الغيبي أنّه سيجعل الثورة الحسينية غير ذات قيمة وجدوى عملية بالنسبة إلى كافة الأجيال وغير قابلة للاحتذاء، لأنّه تفسير يحيط النهضة بإطار غيبيّ لا يفهمه أحد.

(١) اللهوف لابن طاووس ص٤٠، ولنا حديث مفصل حول هذه الفقرة لجهة سندها ودلالتها في الفصل الأخير من الكتاب فراجع.

٢ـ النظرية التي تعيد سبب النهضة إلى حالة مزاجية وشخصيّة، استناداً إلى ما يقوله البعض من أنّ مزاج الإمام الحسين عليه السلام كان حادّ الطبع وثوريّاً ولا يقبل السكوت على الظلم، بخلاف أخيه الحسن عليه السلام فإنّه كان هادئاً وديعاً، وبدافع من مقتضيات الطبع هادن الحسن عليه السلام وقاتل الحسين عليه السلام.

وهذا التفسير مرفوض أيضاً، وهو يعبِّر عن جهل كبير بحقيقة الحسنين عليهما السلام، فالإمام عليه السلام ما كان لينطلق في قضايا الأمّة من منطلقات شخصيّة، أو من اعتبارات مزاجيّة انفعالية، وهذا ينطبق على الإمام الحسن عليه السلام وأخيه الحسين عليه السلام، فعندما قرّر الحسن عليه السلام أن يهادن أو قُلْ أن يختار طريق الصلح بشروط معيّنة ومعروفة، فهو لم ينطلق من مزاج أو ميل شخصي إلى الدَّعة، بل لأنّ المصلحة الإسلامية كانت تقتضي اختيار هذا الموقف، ولو كان الحسين عليه السلام آنذاك في موقع القيادة لفعل ما فعله الحسن عليه السلام، بل إنّ الحسين عليه السلام وافق أخاه الحسن عليه السلام على صلحه وأمضى شروط أخيه، ورفض أن يثور حتّى توفي معاوية، لأنّه رأى كما رأى الحسن عليه السلام من قبل، أن لا مصلحة في الحراك والثورة في زمن معاوية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ الحسن عليه السلام كان هو الآخر ثائراً ومقاوماً، وقد حمل السلاح في أول الأمر، إلى أن رأى أنّ الظروف لا تساعد على الاستمرار بالثورة فصالح. فالحسن والحسين عليهما السلام ـ إذاً ـ لم يختلفا أبداً، فهما معاً قد صالحا عندما رأيا أنّ الصلح خير، وهما معاً قد جاهدا وحملا السلاح عندما اقتضى الأمر حمله.

٣ـ ومن أوهن النظريات في هذا المجال النظرية التي تحاول تقديم الإمام الحسين عليه السلام باعتباره صاحب مشروع انتحاري، وأنه لم يكن يملك رؤية ومعرفة بالأحداث والناس وموازين القوى، وأنه لقلة معرفته بالسياسة وبالناس فقد خُدع من قبل أهل الكوفة.

والوجه في ضعف هذه النظرية أنّ العارف بالحسين عليه السلام وشخصيته وملكاته وعلمه وبصيرته لا بدّ أن يستبعد ويرفض العشوائية أو التهور والارتجال عن حركته، فهو أحكم وأبصر من أن يقدم على أي عمل انتحاريّ أو متهور، وذلك لأننا لو بنينا على النظرية القائلة أنّ من الممكن أن يتحرك الإمام عليه السلام على ضوء علم خاص قد تناهى إليه وورثه عن جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، فخروج الحراك حينئذٍ عن كونه عملاً انتحارياً وخارج نطاق الشرعية سيكون من الوضوح بمكان، لأنّ إقدامه على هذه الثورة سيكون متصلاً بالاستجابة لرغبة إلهية. وأمّا لو بنينا على ما هو الأقرب في المقام من أنّ الإمام عليه السلام ومن حيث المبدأ لا يتحرك في نطاق الشأن العام والعمل السياسي والجهادي والاجتماعي والقضائي على ضوء ما قد يملكه من علم خاص، وإنما يتحرك في هذه المجالات على ضوء المعطيات الواقعية والميدانية، وما تمليه عليه ظواهر الأمور والأحداث، فإنّ العديد من المعطيات والمبرّرات التي بين يديه عليه السلام كانت تسمح له بالإقدام على هذه الحركة بما يخرجها عن دائرة العمل الانتحاري أو الانفعالي، فالإمام عليه السلام ـ وبصرف النظر عن عقيدتنا بعصمته ـ كان كما تؤكد شواهد التاريخ قارئاً جيداً للوقائع والأحداث، عالماً بالواقع وتعقيداته، عارفاً بالناس واتجاهاتها وميولها، خبيراً بالسياسة وأهلها، ولم يكن جاهلاً بذلك ـ حاشاه ـ. ولذلك فإنّ ثورته هي أبعد ما تكون عن العمل المتهور أو المتسرع، إنّها حركة مدروسة، تستهدف تغيير الواقع الفاسد، ابتداءً من السلطة الظالمة إلى بنية النظام الفاسد، إلى إصلاح المفاهيم المزورة وغيرها من مظاهر الفساد، وكان الحسين عليه السلام مصمماً على خوض المعركة مهما كانت النتائج.

وأعتقد أن التحليل الخاطئ لمنطلقات الثورة وأهدافها، هو من جملة المعوقات أمام امتدادها إلى آفاق جديدة، كما أنّ الخطاب المذهبي في إحيائها واستحضارها هو الآخر من جملة المعوقات.

نظريتان مقبولتان في تحليل النهضة الحسينية

بعد استبعاد هذه التفسيرات ونظائرها فإنّه تبقى أمامنا نظريات أخرى تُفَسِّرُ وتوضح أسباب نهضة الإمام الحسين عليه السلام، ويهمّني التطرق إلى أهمّ وأشهر نظريتين مطروحتين في المقام، وكل منهما تمتلك قدراً من المصداقيّة والأنصار:

النظرية الأولى: حركة إصلاحية

وهذه النظريّة ترى أنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام هي حركة إصلاحية تغييرية، ترمي إلى تغيير الواقع الإسلامي الذي استشرى فيه الفساد ودبّ الوهن في جسمه ومفاصله لأكثر من سبب، ليس أقلّه ابتلاء الأمة بولاة سوء، وسلاطين جور ليسوا من نسيج المجتمع الإسلامي في شيء، ومن الطبيعي أنّ عملاً تغييرياً كهذا وبالاعتماد على وسائل التغيير المعروفة، هو عمل مشروع، بل ربما كان واجباً دينياً وأخلاقياً، ولأصحاب هذه النظرية العديد من الشواهد التي تدعم وجهة نظرهم والمعطيات التي تؤيد صحّة قراءتهم، وأهمها:

١ـ أنّ نظرة سريعة إلى الواقع الإسلامي في تلك المرحلة الزمنية التي سبقت ثورة الحسين عليه السلام ستفيد بشكل واضح لا لبس فيه أنّ الأمة قد أصابها الكثير من التردي والتقهقر على أكثر من صعيد، سواء منها الصعيد الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي أو القضائي أو غيرها،[1] وقد كانت اللحظة الفاصلة لإعلان الإمام الحسين عليه السلام بداية الحراك التغييري والإصلاحي هي لحظة استلام يزيد بن معاوية لزمام الحكم، بعد

(١) وقد عبّرت بيانات الإمام الحسين عليه السلام عن هذا التردي خير تعبير، فمن خطابه عليه السلام في البيضة بأصحابه وأصحاب الحر: «**ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله**»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٤، وفي «ذي حسم» خطب الحسين عليه السلام فقال: «**إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أن الحق لا يُعمل به وأن الباطل لا يُتناهى عنه..**»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٥.

أنْ عهد إليه أبوه معاوية بذلك، بالرغم من كونه شخصيّة معروفة بالتهتك والفجور، ولا تمتلك أدنى المؤهلات والكفاءات التي تتيح لها إدارة شؤون المسلمين وتسنّم موقع الخلافة.

٢ـ العديد من الشواهد والنصوص والبلاغات والكتب التي صدرت عن الإمام الحسين عليه السلام والتي تنصّ على أنّه عليه السلام داعية إصلاح[١] وتغيير[٢]، وأنّه يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣]، وأنّه يرفض إطاعة السلطان الجائر[٤].

٣ـ إنّ شريحة لا بأس بها ممن تقوم بهم الحجة على القائد من أبناء الأمة وجماهير أهل الكوفة قد بايعت الإمام عليه السلام وأرسلت إليه مئات الرسائل والكتب تعبّر له عن استعدادها للوقوف معه وحمايته وأنّها تنتظره على أحرّ من الجمر.

النظرية الثانية: حركة استشهادية

وهي التي يعتقد أصحابها[٥] أنّ حركة الإمام عليه السلام هي حركة استشهادية ترمي إلى إيقاظ الأمة، لأنّ الأمة قد وصلت إلى مرحلة لم تعدْ تجدي معها كل دعوات

---

(١) كما هو مفاد قوله عليه السلام: «**إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي**»، انظر: الفتوح لابن الأعثم ج ٥ ص ٢١، ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ٢٤١،

(٢) قال عليه السلام: «**ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله وأنا أحق من غيّر**»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٤.

(٣) قال عليه السلام: «**أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر**»، انظر: الفتوح لابن أعثم ج ٥ ص ٢١.

(٤) قال المؤرخون: إن الإمام الحسين عليه السلام خطب أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يُدخله مدخله**»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٤.

(٥) من أنصار هذه النظرية السيد الشهيد محمد باقر الصدر، والأديب المصري عباس محمود العقاد، قال الأخير: «وصل الأمر في عهد يزيد إلى حدٍّ لا يعالج بغير الاستشهاد وما نحا منحاه..». انظر كتابه: أبو الشهداء الحسين بن علي، ص ١٨٤، (كتاب الهلال).

الإصلاح ووسائل التغيير المألوفة، فكانت بحاجة إلى صدمة وجدانية عاطفيّة تهزّ المشاعر وتوقظ الضمائر بما يعيدها إلى صوابها، وليس أفضل وأقدر على إيجاد هذه الهزة من دم الحسين عليه السلام. وحركةٌ استشهادية كهذه هي حركة مشروعة في ظروف مماثلة، وإنّ فعل الإمام عليه السلام هو من دلائل شرعيتها، ويعتمد هؤلاء في تبني هذه النظرية على القراءة الدقيقة لواقع الأمة الإسلامية آنذاك والتحليل المنطقي لأحداث تلك المرحلة وظروفها وملابساتها، فإنّ هذه القراءة تفيد بأنّ الظروف لم تكن ناضجة للقيام بحركة إصلاحيّة يرجى لها النجاح وفق وسائل التغيير المعروفة، وتوضيحاً لذلك نقول:

١ـ إنّ الأمة وعلى امتداد خارطة العالم الإسلامي لم تكن مهيّأة للانخراط في مشروع تغييري كبير يحتاج إلى الكثير من الجهود والتضحيات الجسام، فلا الحجاز مستعد لخوض ثورة فاصلة، ولا الشام يمكن التعويل عليها بشيء، فهي تحت سلطة الأمويين بالكامل، وأمّا الكوفة فهي وإن كانت البلد الوحيد الذي يمكن التطلّع إليها للانخراط في مشروع حركة تغييرية يقودها رجل من آل البيت عليهم السلام، لكنْ لظروفٍ شتى وأسبابٍ مختلفة، أصبح من الصعوبة بمكان أن يُعتمد عليها في قيادة الثورة واحتضانها، وهذا ما أثبتته الوقائع بعد ذلك، ويكفينا مؤشراً على وضعية الكوفة وضعفِ استعدادها للانخراط في حركة الثورة استذكار حالة المرارة التي أصابت الإمام علي عليه السلام من حالة الاسترخاء التي أصابت الكوفة، حتى أخذ يستنهض همم رجالها محرضاً ومقرّعاً، كما نلاحظ ذلك في خطبة الجهاد المعروفة[1]، كما أنّ تجربة الإمام الحسن عليه السلام مع أهل الكوفة والتي دفعته لعقد الصلح مع معاوية هي مؤشر آخر على أنّ الاعتماد الكامل على الكوفة يمثل مجازفة غير محمودة ولا مضمونة العواقب، وهذه الشواهد

(١) انظر: نهج البلاغة ج ١ ص ٦٧ ـ ٧٠.

والمؤشرات لم تكن بعيدة عن ذهن الإمام الحسين عليه السلام.

٢ـ ومن المؤشرات التي تساعد على صحة هذه القراءة، ملاحظة «النصائح» التي وجهت إلى الإمام الحسين عليه السلام من شخصيات لا يُشك في نصحها وولائها وإخلاصها له، فإنّه وباستثناء عبد الله بن الزبير الذي كان مشجعاً للإمام عليه السلام على الخروج من مكة[١]، وذلك لغرض لا يبدو أنه كان بريئاً، فقد قصد أن يخلو له الجو في الحجاز، لأنه كان طامعاً بالملك[٢]، فقد كانت معظم الشخصيات البارزة في المدينة تتخوف من خروج الإمام عليه السلام، وتوجه له «النصائح» بالعدول عن هذا الطريق، من أمثال: عبدالله بن عباس[٣]، وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية[٤]، وعبد الله بن مطيع العدوي[٥]، وعمر بن عبد الرحمن المخزومي[٦] وغيرهم من

(١) فقد قال للإمام عليه السلام عندما أخبره بما كتبه أهل الكوفة له: «أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٨٨.

(٢) ولم يكن الأمر خافياً على الإمام عليه السلام، ولذا قال تعقيباً على «نصيحة» ابن الزبير: «**إن هذا** (ابن الزبير) **ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق وقد علم أنه ليس له من الامر معي شيء، وأن الناس لم يعدلوه بي فودّ أني خرجت منها لتخلو له**»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٨٨. ولما خرج ابن عباس من عند الإمام عليه السلام وعرف إصراره على الخروج إلى العراق مرّ بعبد الله بن الزبير فقال: قرت عينك يا ابن الزبير، ثم قال:

يا لك من قنبرة بمعمر خلالك الجو فبيضي واصفري * ونقري ما شئت أن تنقري.

هذا حسين يخرج إلى العراق وعليك بالحجاز»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٨٨.

(٣) وقد تكلم ابن عباس مع الإمام عليه السلام أكثر من مرة في مكة، محاولاً ثنيه عن الذهاب إلى الكوفة، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٨٨.

(٤) المصدر نفسه ص ١٦٥.

(٥) وهو الذي التقى بالإمام في بداية حركته وانطلاقه من المدينة متجهاً إلى مكة المكرمة، فقد توجه إلى الإمام بالسؤال: جعلت فداك! أين تريد؟ قال: أما الآن فمكة، وأما بعد فإني أستخير الله . قال: خار الله لك وجعلنا فداك ! فإذا أتيت مكة فإياك أن تقرب الكوفة فإنها بلدة مشؤومة بها قتل أبوك وخذل أخوك وأعتل بطعنة كادت تأتي على نفسه، الزم الحرم فإنك سيد العرب لا تعدل بك أهل الحجاز أحداً ويتداعى إليك الناس من كل جانب، لا تفارق الحرم فداك عمي وخالي، فوالله لئن هلكت لنسترقنّ بعدك» . الأخبار الطوال للدينوري ص ٢٢٩، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٩.

(٦) انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٨٧.

الشخصيات، الأمر الذي يشير إلى أنّ ثمّة وضوحاً في الرؤية لدى كافة المطلعين على الشأن العام حول انعدام أي أمل واقعي يبعث على الوثوق بالكوفة أو الاعتماد عليها. ولا شكّ أنّ الإمام الحسين عليه السلام ـ بصرف النظر عن رؤيتنا الخاصة حول علمه وعصمته ـ إن لم يكن أكثر معرفة ودراية بالكوفة وأهلها من سائر الناس لكونه قد عاش فيها ردحاً من الزمن إبان حكم أبيه علي عليه السلام وَخَبَرَ أهلها، وعرف نقاط ضعفهم وقوتهم فهو ليس أقل منهم خبرة ومعرفة بها وبتعقيداتها.

٣ـ إنّ الذين التقاهم الحسين عليه السلام في الطريق كانوا أيضاً لا يشجعونه على إكمال الطريق ومن أبرزهم: الشاعر الفرزدق، والذي التقاه الإمام عليه السلام في منطقة «الصفاح» وهي قريبة من الحرم المكي[١]، ما يعني أنّ الإمام عليه السلام كان لا يزال في بداية المسيرة وبإمكانه تغيير وجهة الطريق، ففي هذا الموقع بالذات قدّم الفرزدق للإمام الحسين عليه السلام تصويراً دقيقاً عن الحالة العامة لأهل الكوفة، مختصراً ذلك بجملة واحدة وشهيرة وهي قوله: «قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية»[٢]، ومع ذلك أصرّ عليه السلام على المضي في مسيرته إلى الكوفة على رأس قافلة الشهادة تلك، مهما كلّف ذلك من أثمان باهظة، ويلاحظ أنّ في رواية الشيخ المفيد لهذا اللقاء زيادة وهي أنّ الفرزدق قال للحسين عليه السلام: «بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله، ما أعجلك عن الحج؟ فقال: «**لو لم أَعْجَلْ لأُخِذْتُ**»[٣]. وهي كلمة تشير إلى أنّ الأمام الحسين عليه السلام كان يقدّر أو يعلم أنّ السلطة تخطط لتصفيته أو اعتقاله، فعجل الخروج من مكة المكرمة في يوم التروية[٤].

(١) وتعرف اليوم بمدينة الشرائع الجديدة.
(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٩٠.
(٣) الإرشاد ج ٢ ص ٦٧.
(٤) هو يوم الثامن من ذي الحجة، وسمي بذلك لأنّ الحجيج كانوا يتروون بالماء ويتوجهون إلى منى لينطلقوا منها إلى عرفات، حيث يقفون في ذلك الموقف العظيم في يوم التاسع من ذي الحجة الحرام.

ودعونا لا نغفل هنا عن نكتة هامة تضمنتها بعض تلك «النصائح»، ألا وهي أنّ أهل الكوفة لو كانوا جادين في مبايعتهم للحسين عليه السلام ودعوتهم له لكان عليهم أن يمهِّدوا الأرضية لذلك بطرد عامل يزيد من الكوفة واستلام مرافق البلد والسيطرة على بيت المال ومراكز القرار، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، وهذا ما أشار إليه ابن عباس بكل صراحة في محادثتيه الشهيرتين مع الإمام عليه السلام قبيل مغادرته مكة المكرمة متوجهاً إلى العراق[1]، وأشار إلى هذا الأمر أيضاً عمر بن عبد الرحمان المخزومي[2].

٤ـ أضف إلى ذلك أنّ الإمام عليه السلام فيما يبدو لنا لم يكن حريصاً على تجميع الناس حوله، فقد وقف عليه السلام في التنعيم (على مشارف مكة) ليقول لأصحاب الإبل: «**لا أُكرِهكم، مَنْ أحبَّ أن يمضي معنا إلى العراق وفَيْنا كِراءَهُ** (أجرته) **وَأَحْسَنّا صُحْبَتَهُ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُفارِقَنا مِنْ مَكانِنا هذا أَعْطَيْناهُ مِنَ الْكِراءِ عَلى قَدَرِ ما قَطَعَ مِنَ الأَرْضِ**»[3]، بل نراه قد مارس في بعض محطات الطريق من مكة إلى الكوفة ما يمكن تسميته بسياسة فضِّ الجماهير عنه، ولئن كان هذا الأمر مفهوماً ليلة العاشر من المحرم، على اعتبار أن انفضاض بعض الأشخاص عنه في هذه اللحظة لن يغيّر نتيجة المعركة التي باتت محسومة، بيد أنّ ذلك ليس مفهوماً وهو لا يزال

(١) ففي محادثته الأولى مع الحسين عليه السلام قال له ابن عباس: «فإني أعيذك بالله من ذلك ـ أي الذهاب إلى الكوفة ـ أخبرني رحمك الله أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم؟! فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٨٧، وقال له في محادثته الثانية معه: «فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ٢٨٨،

(٢) قال المخزومي للإمام عليه السلام: «قد بلغني أنك تريد المسير إلى العراق وإني مشفق عليك من مسيرك إنك تأتي بلداً فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال وإنما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٨٧.

(٣) الإرشاد ج ٢ ص ٦٨.

في بدايات الطريق أو في وسطه، حتى لو بلغته بعض الأحداث المؤلمة، كمقتل أخيه من الرضاعة عبد الله بن يقطر(١). أرأيت شخصاً يقود الأمة إلى معركة تغيير شاملة وهي بحاجة إلى تحشيد كل الطاقات والقوى من حوله يدعو الناس للانفضاض عنه ؟! إنّ ذلك غير مفهوم، ما لم يكن له حساب آخر.

واللافت للنظر أن نرى الحسين عليه السلام في الوقت الذي يفض الناس عنه، يحرص كل الحرص على إشراك بعض الشخصيات الاستثنائية ويدعوهم للحضور معه، من أمثال زهير بن القين(٢) أو عبيد الله بن الحر الجعفي(٣)،

(١) انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠١، لكن قد يقال: إن تفريقه للناس في هذه المرحلة هو للسبب عينه الذي دفعه ليلة العاشر لتفريقهم عنه، أعني إدراكه بأن ميزان المعركة لم يعد لصالحه ولم يبق ثمة أمل بالانتصار وفقاً للموازين المعروفة للنصر، ويشهد لذلك قوله للناس وهو يدعوهم للانصراف عنه: «أما بعد فإنه قد أتانا خبر فظيع قتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وعبد الله بن يقطر وقد خذلتنا شيعتُنا فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف ليس عليه منا ذمام، قال: فتفرّق الناس عنه تفرّقاً فأخذوا يميناً وشمالاً حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠١. وثمة سبب آخر دفعه لهذا التصرف وهو ما أشار إليه المؤرخون من أنّه عليه السلام «إنما فعل ذلك لأنه ظن أنما اتبعه الأعراب لأنهم ظنوا أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون علام يقدمون، وقد علم أنهم إذا بين لهم لم يصحبه إلا من يريد مواساته والموت معه»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠١.

(٢) فقد أرسل الإمام عليه السلام في طلب زهير، وقد كان كارهاً للقاء الإمام، فوصله الرسول وقت تناول الطعام وقال له: «يا زهير بن القين إن أبا عبد الله الحسين بن علي بعثني إليك لتأتيه قال: فطرح كل انسان ما في يده حتى كأننا على رؤوسنا الطير»، فقالت زوجته: «أيبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه، سبحان الله ! لو أتيته فسمعت من كلامه ثم انصرفت، فأتاه زهير بن القين فما لبث أن جاء مستبشراً قد أسفر وجهه فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقدم وحمل إلى الحسين»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٩٨.

(٣) وهو من أشراف أهل الكوفة، فقد روى المؤرخون أنه عندما وصل الإمام عليه السلام إلى قصر بني مقاتل رأى خيمة مضروبة فسأل عن صاحبها فقيل لعبيد الله بن الحر فأرسل عليه السلام رسولاً يدعوه إليه، فما أن سمع بدعوة الحسين حتى قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون والله ما خرجت من الكوفة إلا كراهة أن يدخلها الحسين وأنا بها والله ما أريد أن أراه ولا يراني فأتاه الرسول فأخبره، فأخذ الحسين نعليه فانتعل ثم قام فجاءه حتى دخل عليه فسلم وجلس، ثم دعاه إلى الخروج معه فأعاد إليه ابن الحر تلك المقالة! فقال: فإلا تنصرنا فاتق الله أن تكون ممن يقاتلنا فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ثم لا ينصرنا إلا هلك. قال: أما هذا فلا يكون أبدا إن شاء الله».، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٧، والإرشاد للمفيد ج ٢ ص ٨٢. وقد ندم ابن الحر بعد ذلك ندماً شديداً على تركه لنصرة الحسين عليه السلام ورثاه بأبيات مؤثرة، بعد أن استدعاه ابن زياد إليه فيمن استدعى من أشراف الكوفة، وسأله أين كنت معنا أم مع عدونا؟ فخرج من عنده ورفض العودة إليه وتوجه إلى كربلاء، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٦٠.

وغيرهما من الأشخاص الذين لهم رمزية خاصة قد تعطي لاستشهادهم وقعاً مؤثراً في النفوس بسبب مكانتهم في الأمة.

٥ـ ناهيك عن أنّ إخراجه عليه السلام للنساء والأطفال معه، لا يملك تفسيراً معقولاً بناءً على النظريّة الأولى، لأنّه ينطلق في حراك ثوري يهدف إلى تغيير السلطة واستلام الحكم، وهذا الأمر قد يضطر الحركة الثورية إلى خوض أكثر من معركة عسكرية في سبيل الانتصار على الظالم، وليس من المنطقي أن يربك ـ أعني هذا الحراك ـ نفسه وحركته بإخراج الأطفال والنساء معه، وإنّما المنطقي في مثل هذه الحالات أن ينتظر القائد ما تؤول إليه الأمور، فإذا تسنى له الوصول إلى هدفه وهو الكوفة، وبسط سيطرته عليها، فآنذاك يرسل خلف عائلته وأطفاله. بينما على النظرية الثانية يكون لإخراجه عليه السلام النساء والأطفال معه تفسير مقبول، لأنّ حضور النساء والأطفال يرفع من منسوب الصدمة الوجدانية المرجوة والمطلوب تحقيقها والوصول إليها.

٦ـ وعلينا ـ أيضاً ـ أن نأخذ بعين الاعتبار النصوص التي تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان متوقعاً أو عالماً بأنّ هذه النهضة قد تؤدي إلى استشهاده، من قبيل ما حدّث به عليه السلام عن صوت الهاتف الذي سمعه عندما غفا في بعض محطات الطريق، وسمع منْ يقول: «**إنّ القوم يسيرون والمنايا تسير معهم**»[1]، أو قوله عليه السلام على ما ينسب إليه في جوابه لمحمد بن الحنفية وقد سأله عن سبب خروجه «شاء الله أن يراني قتيلاً»، ولما سأله عن سبب إخراج النساء أجابه عليه السلام: «وشاء الله أن يراهن سبايا»[2]، وفي بعض

(١) انظر: الإرشاد للمفيد ج ٢ ص ٨٢، ومثير الأحزان لابن نما ص ٣٤، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥١،

(٢) اللهوف لابن طاووس ص ٤٠، ومختصر بصائر الدرجات ص ١٣٢، وبحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٦٤. سيأتي الكلام حول هذه الرواية وبيان الحال في سندها ودلالتها في الفصل الأخير من الكتاب فراجع.

محطات الطريق يخطب الإمام عليه السلام فيقول: «**ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً فإني لا أرى الموت إلا شهادة والحياة مع الظالمين إلا برماً**»[١]. وثمّة نصٌّ هو في دلالته على ذلك أهمّ من كل النصوص المتقدّمة، وهو ما كتبه عليه السلام لبني هاشم قبيل خروجه من المدينة، وجاء فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى بني هاشم، أمّا بعد فإنّه من لحق بي منكم استشهد ومن تخلّف لم يدرك الفتح والسلام**»[٢]، إنّ هذه النصوص تؤشر إلى صحة النظرية الثانية وأنّ الإمام عليه السلام كان يسير في حركة استشهادية رأى وقدّر أنّه لا مفر منها لإيقاظ الأمة من سباتها، دون أن يعني ذلك أن يلقي بنفسه على الموت كالمنتحر وإنما يأخذ بكل الأسباب الطبيعية للحيطة والحذر والدفاع عن النفس ويبذل الجهد بكل ما في وسعه مواجهة الظالمين بشتى الوسائل الممكنة والمتوفرة، ويستنصر الناس ويحثّهم على الانخراط في معركته، ملقياً بذلك الحجة على الجميع.

٧ـ وعلينا أيضاً أن نضع في الحسبان الأخبار المختلفة والمروية عن جده رسول صلى الله عليه وآله وسلم والتي تلتقي على قاسم مشترك وهو ما سيلاقيه سبطه الحسين عليه السلام، وهذه الأخبار لم تكن غائبة عن ذهن الحسين عليه السلام.

هل طلب الحسين من ابن سعد أن يسمح له بالذهاب إلى يزيد؟

وقبل أن ننتقل إلى بيان النظرية الجامعة بين النظريتين، لا بدّ لنا أن نسجل استبعادنا بل رفضنا لما تداولته بعض المصادر التاريخية حول طلب الإمام الحسين عليه السلام من عمر بن سعد أن يسمح له بالذهاب إلى يزيد ليضع يده في يده. يقول الطبري: «وتحدّث الناس فيما بينهم ظنّاً يظنونه أن حسيناً قال لعمر بن

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٥.
(٢) كامل الزيارات ص ١٧٥، ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ٢٣٠،

سعد: اخرج معي إلى يزيد بن معاوية وندع العسكرين. قال عمر: إذن تهدم داري قال: أنا أبنيها لك. قال: إذن تؤخذ ضياعي قال: إذن أعطيك خيراً منها من مالي بالحجاز. قال (الراوي): فتكرّه ذلك عمر، قال: فتحدث الناس بذلك وشاع فيهم من غير أن يكونوا سمعوا من ذلك شيئاً ولا علموه»[1]. وهذا الحديث لو صحّ فيكون دليلاً على بطلان نظرية العمل الثوري الاستشهادي.

ولكنّنا نرفض هذا الخبر:

أولاً: لأن الطبري كما لاحظنا في كلامه الآنف يشير إلى أنّ هذا الاقتراح يتداوله الناس بدون دليل وإنما هي ظنون وأوهام ليس لهم بها من علم.

ثانياً: إنّ الطبري نفسه ينقل عن عقبة بن سمعان قال: «صحبت حسيناً فخرجت معه من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتى قُتل، وليس من مخاطبته الناس كلمة، بالمدينة ولا بمكة، ولا في الطريق، ولا بالعراق ولا في عسكر إلى يوم مقتله، إلا وقد سمعتها، ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسيّروه إلى ثغر من ثغور المسلمين..»[2].

ثالثًا: إنّ خيار الذهاب إلى بيعة يزيد، لو كان وارداً عند الإمام الحسين عليه السلام لكان قد فعله في المدينة قبل أن يتجشم عناء هذا السفر، والحال أنه رفضه رفضاً قاطعاً في أكثر من محطة وموقف؛ لأنّه ـ هذا الخيار ـ كان بالنسبة إليه خياراً استسلامياً مهيناً، وقد أكّد في العديد من كلماته أنّ الله تعالى يأبى له الذل، وكذا الرسول والمؤمنون.

(١) تاريخ الطبري، ج٤، ص٣١٣.

(٢) تاريخ الطبري، ج٤، ص٣١٣.

نظرية جامعة: حركة تغييرية

هاتان هما النظريتان المطروحتان في المقام، ولكل نظرية أهلها وأصحابها، والملحوظ أنّ أصحاب كل نظريّة منهما، بقدر إصرارهم على صحة نظريتهم، فإنّهم يصرون على رفض النظريّة المقابلة.

وما نرومه هنا هو تبني وجهة نظر ثالثة تحاول التوفيق والجمع بين النظريتين المذكورتين، وتعترف بصحتهما معاً، وخلاصة هذه النظرية: أنّ الإمام عليه السلام قد استهدف الأمرين معاً، فحركته هي حركة تغييرية تستهدف التغيير المباشر من خلال عملية احتجاجية انقلابية، إن أمكن ذلك ووجد تجاوباً من جماهير الأمة مع حركته ونداءاته، وقد قدّم عليه السلام لحركته هذه غطاءً شرعياً واضحاً، معتمداً ـ كما سيأتي في المحور اللاحق ـ على عناوين إسلامية قرآنية تبرر له النهوض وتفرض على سائر المسلمين الانخراط في مشروعه. إنّ العناوين التي قدمها الإمام عليه السلام لتبرير ثورته هدفت إلى إقامة الحجة على الأمة وقطع أعذار المعتذرين، وهذا سوف لن يسهم في جعل ثورته مقبولة لدى الرأي العام فحسب، بل وقابلة وصالحة لتكون نموذجاً يحتذى أيضاً، والرسائل التي وصلته مطالبة إياه بإعلان الثورة والخروج على نظام الفساد الذي يقف على رأسه يزيد بن معاوية كانت ترجح كفة الخروج وإعلان هذه الحركة الإصلاحية. لكنّ الإمام عليه السلام في الوقت عينه كان موطّناً النفس على الاستشهاد ومستعداً لتقديم أعز ما يملك في سبيل الإسلام وفي خط الإصلاح والتغيير.

ويقيني أنّه عليه السلام كان عارفاً بمآلات الأمور، وعلى أقل تقدير كان متوقعاً أنّ حركته ونهضته قد لا تفضي إلى انتصار عسكري آني أو تغيير مباشر، ومع ذلك أصرّ على الخروج والنهوض لإدراكه أنّ السكوت لا يجدي نفعاً وأن إيقاظ الأمة واستنهاضها بحاجة إلى أغلى التضحيات المتمثلة ببذل دمه الشريف في سبيل الله

وتعريض أطفاله وعياله لأقصى المخاطر، ولا همّ عند الحسين عليه السلام أن يُقتل أو تُسبى نساؤه أو تذبح أطفاله بتلك الطريقة المروعة إذا كان ثمن ذلك هو أن تستفيق الأمة من كبوتها. وإذا لم يؤثر بذل دمه ومهجته وروحه على مذبح الحرية في يقظة الأمة وإعادة تصويب مسارها العام، فلا أقل من أنّه سيُسهم في وضع حدٍ للسياسة الساعية للقضاء على رسالة الإسلام، وفضح رموزها المتسترين والمتجلببين زوراً بجلباب الدين، وعرقلة مشروعهم الانقلابي. إنّ ثورة الإمام عليه السلام أرادت أن تصحح الانحراف التاريخي الخطير الذي يهدد الإسلام بالخطر.

وبطبيعة الحال فالحسين عليه السلام أجلُّ شأناً من أن يقدم على الموت من موقع اليائس في الحياة، والذي يتحرك ويقدم على الانتحار، فهذا تحليل سخيف ومسيء لرمزية الإمام عليه السلام ومكانته، وجهل فاضح بشخصيته ومقامه. لقد عمل عليه السلام جاهداً على استنفار الناس ودعوتهم إلى الانخراط في مشروعه التغييري، وعندما حوصر في كربلاء وطلب إليه الاستسلام أبى ورفض وواجه الظالمين بكل ما أوتي من قوة إلى أن لاقى وجه ربه هو وصحبه البررة. وقد كان عليه السلام ـ كما يبدو من النصوص الصادرة عنه تلميحاً أو تصريحاً ـ على المستوى الشخصي موطناً نفسه على لقاء الله تعالى، وربما ألمح لأهله وأصحابه بذلك ليكونوا على استعداد لهذا اللقاء، وهذا ما يفسر لنا إقدامه على فضّ الناس عنه ليلة عاشوراء والسماح لهم بالانصراف وجعلهم في حلٍّ من التزاماتهم.

مرتكزات هذه النظريّة

إنّ هذه النظريّة الجامعة تستند على عدة عناصر:

أولاً: التسليم بصحة الشواهد المطروحة في النظريتين الأولى والثانية، وأنّه لا تناقض بين هذه الشواهد، وأنّه لا موجب لتبني إحداهما ورفض الأخرى، فليس ثمّة تنافٍ بينها.

أجل، ثمّة شاهدٌ واحد لا يُلائم الجمع بين النظريتين، وهو الشاهد الرابع المذكور لتأييد النظرية الثانية (نظرية الاستشهاد)، والذي ينصّ على أنّ الإمام عليه السلام عمل على فضّ الناس من حوله، فهذا الأمر لا ينسجم مع نظرية العمل التغييري، فإنّ عملاً أو حراكاً تغييرياً وثورياً يجعل في جملة أهدافه استلام الحكم معنيٌّ بتحشيد الناس من حوله وليس تفريقهم عنه. اللهم إلا أن يقال: إنّ الإمام عليه السلام إنّما بدأ بالسماح للناس بالانصراف وجعلهم في حلٍّ من التزامهم عندما وجد أن بقاءهم معه لن يفيد شيئاً في تغيير الموازين، ولم يسمح لهم بذلك في بدايات الثورة، بل كان يعمل على التحشيد والجمع.

ثانياً: ترجيح القراءة التحليلية التي ترى أنّ الأمة الإسلامية في زمن الإمام الحسين عليه السلام قد وصلت إلى مرحلة من الوهن في قواها والضعف في إرادة أبنائها لم تعد تكفيها مواعظ المصلحين وتنظيراتهم الفكرية، بل إنها تحتاج ـ بالإضافة إلى ذلك ـ إلى هزة وجدانية عاطفية تحرّك الضمائر وتوقظ النيام، فهذه القراءة لا تجانب الصواب وعليها العديد من الشواهد. إنّ الحاجة إلى هذه الهزة الوجدانية مردّه إلى أن مرض الأمة الأبرز آنذاك هو ـ كما يرى السيّد الشهيد محمد باقر الصدر ـ مرض الوهن وضعف الإرادة والركون إلى الدنيا، كما شخص ذلك الإمام نفسه بدقة متناهية في قوله: «**الناس عبيد الدنيا والدين لعقٌ على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون**»[1]. ومرض كهذا لا يُعالج بالمواعظ والخطب والنصائح فحسب، بل لا بدّ أن ينضم إلى ذلك عمل ذو دلالة وأهمية ما يخلق هزة وجدانية وصدمة عاطفية مؤثرة في الأمة يدفعها إلى التحرك والاندفاع في سبيل التغيير.

لقد قدّر الإمام عليه السلام ـ وهو صائب في كل ما رأى وقدّر ـ أنّ الإصلاح لا

(١) تحف العقول ص ٢٤٥.

ينفع في ترميم الواقع الإسلامي، فالفساد بنيوي ومستحكم وليس عرضياً، أي إنّه قد بلغ حداً لا تُجدي معه الجهودُ التصحيحيّة والترقيعيّة، وإنّما يحتاج الأمر إلى عملية انقلاب أو تغيير شاملة، ولذا رأينا أنّ الحسين عليه السلام قد استخدم في التعبير عن حركته مصطلحاً دالاً وهو مصطلح «التغيير» فقال: «**وأنا أحقّ من غيّر**»، فهو يتحدث عن عمليّة تغيير وليس عملية إصلاح فحسب، عملية تغيير شاملة لكل هذا الواقع. وعلى ضوء هذا فشعار الإصلاح عندما ورد في كلامه عليه السلام في محل آخر «**خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي**» لا بدّ أن يفسَّر بما ينسجم مع شعار التغيير، ما يعني أنّه عليه السلام لا يقصد بالإصلاح ترميم الأمور، أو أن يستبدل حاكماً بآخر مع بقاء البنية الفاسدة، إنّه يتحدث عن الإصلاح الشامل الذي يعني بالضرورة العمل على تغيير البنى التحتية لنظام الجور والفساد، فيكون مآل الشعارين (الإصلاح والتغيير) في كلامه عليه السلام واحداً.

ثالثاً: إنّ عمليّة التغيير الشاملة تحتاج إلى استعداد في الأمة لتقبّل الطرح التغييري، وكل المؤشرات التاريخيّة بدءاً من خذلان الإمام علي عليه السلام والتآمر على الحسن عليه السلام إلى شراء معاوية للضمائر والذمم... تؤكد أنّ الأمة لم تكن مستعدة للحراك الثوري وما يتطلبه من تضحيات، ولهذا كان اللجوء إلى حركة الاحتجاج الثوري فضلاً عن السلمي غير مجدٍ، فلا بدّ من صدمة تهيئ الأمة وتحرّك الواقع الساكن وتوقظ النيام. وهكذا كان، فقد نهض الإمام بالأمر متحملاً كل الأعباء، وكان موطناً نفسه على أن يقدم أغلى ما يملك في سبيل الإسلام. وكان له عليه السلام ومن موقع الخبير بالسياسة وأهلها ومستفيداً من التجارب ومسار الأحداث السابقة التي عايشها عن قرب أن يقدّر أنّ حركته قد لا تكلل بالنجاح العسكري الآني، ولكنه مع ذلك أقدم على الحركة، لأنّه رأى ـ ورأيه حق ـ أنّه بغير هذا المسار الثوري الذي قد يكلّفه ثمناً باهظاً لن تستيقظ النفوس النائمة ولن تتحرك الإرادات الميتة.

رابعاً: إنّ العمل الثوري الفدائي والتضحوي الذي يكلف الثائر أن يبذل دمه فداءً للرسالة هو عمل مشروع لكن ضمن شروط وضوابط، ونحن نستطيع أن نعتبر إقدام الحسين عليه السلام نفسه على هذا العمل هو دليل شرعيته، وذلك طبقاً لقناعتنا بعصمته وإمامته، وبصرف النظر عن ذلك، فإنّ الحسين عليه السلام عندما يكون سيد شباب أهل الجنّة بنصّ كلام جدّه النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا يطلق الكلمات جزافاً ولا من موقع العاطفة، فإنّ معنى ذلك أنّ هذه المرتبة الرفيعة لم ينلها الحسين عليه السلام لمجرد نسبه وقربه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإنّما نالها من خلال أعماله ومواقفه وجهاده، ولا يمكن أن يكرّس النبي صلى الله عليه وآله وسلم شخصاً سيداً لشباب أهل الجنة إلا إذا كان ناظراً إلى حياة هذا الشخص بماضيها ومستقبلها إلى آخر عمره، وإلا لو كان هذا الشخص سوف يبدّل ويغيّر فيما بعد فلن يكون سيدا لشباب أهل الجنة.

ولو قاربنا المسألة ضمن الأطر الفقهية المعروفة، فهي أيضاً ستساعدنا على الحكم بأنّ هذا العمل الفدائي الاستشهادي الذي أقدم عليه الحسين عليه السلام هو عمل مشروع بل ربما كان واجباً لا مفر منه ولا مناص عن القيام عنه، وذلك لأنّ الخطر على الدين عندما يصل إلى الذروة ويكون دين الله معرّضاً للتحريف الكامل أو الخطير بحيث تتغيّر معالمه، ويتوقف تصحيح المسار على أن يبذل القائد الرمز نفسه في سبيل الله، فهنا ترخص النفوس وتهون التضحيات. وقد ذكر الفقهاء أنّ التقيّة التي تكون واجبة في كثير من الأحيان، تصبح محرّمة وغير مشروعة في بعض الموارد[1]، ومنها: صورة تعرّض الدين للتحريف أو تعرّض

(١) من هذه الموارد المحرمة بالإضافة إلى ما جاء في متن الكتاب أعلاه: التقية في الدماء، فإنّ التقيّة إذا فَرَضَتْ على الإنسان أن يسفك الدم الحرام فلا تشرع، وعليه أن يتحمل كل أشكال الأذى والضرر حتى ولو هدد بالقتل ولا يقدم على قتل نفس محترمة، وقد ورد في الأحاديث الشريفة: «إنما جعلت التقية ليحقن بها الدم فإذا بلغت التقية الدم فلا تقية»، انظر: تهذيب الأحكام للطوسي ج ٦ ص ١٧٢. ومن هذه الموارد المحرّمة: إذا أكره الإنسان على التبري من علي عليه السلام لأنه على الفطرة، ففي الخبر: «ستدعون إلى سبي فسبوني، وتدعون إلى البراءة مني فمدوا الرقاب فإني على الفطرة»، انظر: وسائل الشيعة ج ١٦ ص ٢٢٨، الباب ٣٩ من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك من الموارد، راجع حول ذلك، كتاب موسوعة السيد الخوئي ج٥ ص٢٢٦ وما بعدها، والمكاسب المحرمة للإمام الخميني ج٢ ص١٤٩، القواعد الفقهية للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج١ ص٤١٦.

معالمه للطمس والتغيير، فهنا لا بدّ من المواجهة والنطق بالحق والوقوف في وجه أعداء الدين حتى لو كلّف الأمر بذل المهج والنفوس. وهذا ما دلّت عليه بعض الأحاديث الشريفة ومنها ما روي عن أبي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قال: «..لأَنَّ لِلتَّقِيَّةِ مَوَاضِعَ مَنْ أَزَالَهَا عَنْ مَوَاضِعِهَا لَمْ تَسْتَقِمْ لَه، وتَفْسِيرُ مَا يُتَّقَى مِثْلُ أَنْ يَكُونَ قَوْمُ سَوْءٍ ظَاهِرِ حُكْمِهِمْ وفِعْلِهِمْ عَلَى غَيْرِ حُكْمِ الْحَقِّ وفِعْلِه، فَكُلُّ شَيْءٍ يَعْمَلُ الْمُؤْمِنُ بَيْنَهُمْ لِمَكَانِ التَّقِيَّةِ مِمَّا لَا يُؤَدِّي إِلَى الْفَسَادِ فِي الدِّينِ فَإِنَّه جَائِزٌ»[١].

ومعلوم أنّ الحسين عليه السلام قد أحس واستشعر بأن الدين في خطر، كما تنص على ذلك كل كلماته الآنفة، ومن هنا رأى أنّه لا مجال أمامه إلا أن يعلنها ثورة لا هوادة فيها ويقدّم نفسه في سبيل حفظ دين جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وهو عليه السلام لم يقدم على الموت على طريقة المنتحر، وإنما أعدّ واستعد وواجه وقاتل حتى قضى الله أمراً كان مفعولاً.

يقول السيد الخوئي رحمه الله ممثلاً للتقيّة المحرّمة: «إذا علم بأنه إن عمل بالتقية ترتب عليه اضمحلال الحق واندراس الدين الحنيف وظهور الباطل وترويج الجبت والطاغوت، وإذا ترك التقيّة ترتب عليه قتله فقط أو قتله مع جماعة آخرين، ولا إشكال حينئذٍ في أن الواجب ترك العمل بالتقية وتوطين النفس للقتل، لأنّ المفسدة الناشئة عن التقيّة أعظم وأشد من مفسدة قتله» إلى أن يقول: «ولعله من هنا أقدم الحسين عليه السلام وأصحابه (رضوان الله عليهم) لقتال يزيد بن معاوية وعرضوا أنفسهم للشهادة وتركوا التقيّة عن يزيد، وكذا بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام بل بعض علمائنا الأبرار (قدس الله أرواحهم) وجزاهم عن الإسلام خيراً كالشهيدين وغيرهما»[٢].

(١) الكافي ج ٢ ص ١٦٨.

(٢) موسوعة السيد الخوئي ج ٥ ص ٢٢٤.

المحور الثالث
الثورة الحسينية في عناوينها الإسلامية وأهدافها الإنسانية

ما هو مشروع الإمام الحسين عليه السلام؟ هل كان لديه ـ كما قد يخيّل للبعض أو يتراءى من كلامه ـ مشروع مذهبي فئوي ضيق أم أنّ مشروعه هو مشروع الإسلام وقضيته هي قضية العدالة الإنسانية؟ وأين حركته ـ إصلاحية كانت أم استشهادية ـ من تعاليم الإسلام؟ وهل يلتقي مشروعه بمشروع جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم؟

وربما يصعِّد البعض من الأسئلة فيقول: لماذا الإصرار على هذا الاستحضار الصاخب لقضيّة الحسين عليه السلام ومأساة كربلاء؟ أليس في استعادة عاشوراء وأمثالها من المناسبات ما يثلم وحدة الأمة، حيث تستعاد تلك الذكريات الأليمة في معترك صراع واحتراب داخلي في العديد من الدول الإسلامية يغلب عليه الطابع المذهبي حتى لو حرصنا على نفي ذلك واستبعاده؟!

ثمّ أليست استعادة الذكريات التاريخيّة التي نلوذ بها هي تعبيرٌ عن عجزنا وفشلنا، أو محاولة هروب من هذا التخلّف الحضاري والتردي الفكري والانحطاط الأخلاقي والتشظي الاجتماعي الذي يلفنا؟

سوف نحاول في هذا المحور الإجابة عن هذه الأسئلة، ونوضح العلاقة الوثيقة بين النهضة الحسينية ونهجها الثوري وبين تعاليم الإسلام ومفاهيم القرآن، الأمر الذي يؤكد ويثبت ليس شرعية هذه الثورة وانسجامها مع الخط الإسلامي والقرآني في العمل الجهادي فحسب، بل إنه يسهم في إخراجها من نطاقها المذهبي الضيق الذي حبستها فيه الذهنية العصبية ويضعها في فضائها الإسلامي والإنساني الرحب.

ولا بدّ في مستهل الإجابة على هذه التساؤلات أن أسجّل الملاحظة التالية، وهي أنّ واحدة من أكبر الأخطاء التي نرتكبها في التعامل مع تاريخنا هي أن ننظر إليه نظرة من يريد أن يسكن فيه، أو يستعيده بطريقة سجاليّة توتر الأمة في حاضرها ومستقبلها، وطبيعي أنني لا أتبنى الرأي الداعي إلى القطيعة مع هذا التاريخ، فتاريخ الأمم جزء مكون لهويتها وشخصيتها، ولا يمكنها أن تتنكر له، وإنما عليها الرجوع إليه وقراءته بوعي وحكمة، للانطلاق منه والبناء على ما ينبغي البناء عليه، فالمشكلة ليست في قراءة التاريخ بل في كيفية توظيفه في الحاضر، ونحن إذ ندعو إلى الرجوع إلى عاشوراء فإننا لا نريدها عودة إلى الماضي للتوطن فيه أو التقاتل باسم رجالاته، بل نريدها عودة هادفة ترمي إلى الاستفادة من دروس التاريخ وعبره، وفقاً لمعادلة القرآن الكريم في هذا المجال: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾[يوسف: ١١١].

وعاشوراء الثورة ليست ـ لمن تأمل وتدبر ـ محطّة عابرة من محطّات الزمن، وإنما هي محطّة مضيئة ومدرسة غنيّة بالروح والفكر، بالشهامة والبطولة[1]. وإذا أحسنا في طريقة استعادتها فلا أعتقد أنها ستغدو مثار انقسام أو جدل بين المسلمين، بل ستغدو منهلاً يرتوي من معينه المسلمون وغيرهم. وإنه لخيانة كبيرة لنهضة الحسين عليه السلام أن يتمّ تصويرها على أنّها حركة مذهبية ضيقة، وكيف تكون عاشوراء حركة مذهبيّة والحال أنّها قد استهدت في كل حركتها وشعاراتها العناوين الإسلامية الكبرى؟!

معيار الإسلامية

بعد هذه الملاحظة نأتي إلى الإجابة على الأسئلة المتقدّمة لنقول: إنه لا ينبغي أن يكون خافياً على أحد أنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام في أبعادها المختلفة

(١) حول كيفية تعاملنا مع التاريخ يمكن الرجوع إلى كتاب «عاشوراء قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء» ص ٩٤ وما بعدها.

ودلالاتها المتنوعة هي ثورة إسلامية بامتياز، فهي منسجمة تمام الانسجام مع مبادئ الشرعيّة الإسلامية، بل هي مصدر الشرعية وبها تُقاس الشرعية، إلا أننا في هذه المرحلة الحسّاسة من تاريخ الأمة نشعر أنّ إسلامية هذه الثورة تغيب في خطاب بعض الناس، ولا نجدها حاضرة عند آخرين، الأمر الذي يحتّم علينا ـ بحكم انتمائنا إلى الحسين عليه السلام روحاً وفكراً ـ أن نستحضر هذه الركيزة الإسلامية في نهضته ونبيّن عمقها وامتداداتها وتجلِّياتها.

وإسلامية الثورة ـ أيّة ثورة ـ لا تتمثّل بمجرد انتماء أصحابها رسميّاً إلى الإسلام، ولا بادعاءات فارغة، أو شعارات رنّانة، بل إنّ إسلامية الثورة تتمثّل في:

١ـ إسلاميّة القيادة.

٢ـ إسلاميّة القضية والشعار والهدف.

٣ـ إسلامية الممارسة الثورية.

والمتأمل في ثورة الإمام الحسين عليه السلام سيكتشف أنّ هذه العناصر الثلاثة متوفّرة بشكل لا لبس فيه، وفيما يلي نوضح ذلك:

أولاً: إسلامية القيادة

أمّا العنصر الأول، وهو إسلامية الرمز والقائد، فغير خفيّ أننا أمام قائد إسلامي غير عادي، فهو أحد أبناء البيت الإسلامي الأول، وهو البيت الذي قام الإسلام على أكتافه، فالحسين عليه السلام، تربية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإعداده، درج في بيته، وتربّى في حِجره، وقد ألقمه صلى الله عليه وآله وسلم الإيمان مع لبن أمه، كما أنّه ابن أول الناس إسلاماً وأشدّهم عزيمة وشكيمة، عنيت به أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو أيضاً ابن سيدة نساء العالمين وسيدة نساء أهل الجنة، فاطمة الزهراء عليها السلام، وهذه التربيّة والإعداد النبوي لشخص الإمام الحسين عليه السلام

جعلته يعيش منذ طفولته هموم الدعوة الإسلامية ويواكب انتصاراتها وأفراحها وأتراحها وكلّ حركيتها..

وفوق ذلك كلّه، فإنّ رسول الله قد منحه بجدارة العديد من الأوسمة التي لم يمنحها لغيره من صحابته، فهو سيّد شباب أهل الجنة، «**الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة**»[1]، وهو ـ مع أخيه الحسن عليه السلام ـ إمامٌ قام أو قعد، «**الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا**»[2]، وأخال أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يطلق هذه الكلمة أو تلك وهو الذي لا يطلق الكلام جزافاً ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[النجم: ٤] كان يستشرف المستقبل الآتي لينبّه الأمة في قادم الأيام، وعند اشتباك الأمور وتشابه المواقف واحتدام الفتن أنّ عليها التمسّك بالحسين عليه السلام فهذا ما تعنيه كلمة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن الحسين عليه السلام إمام على كلّ حال، أو أنّه سيد شباب أهل الجنة، فهو المرجع الذي لا بدّ للأمّة أن تعود إليه، وتتمسك بعراه، وبذلك يعتصم الناس من الضلال والانحراف، لأنّ سيّد شباب أهل الجنة لا يمكن أن يقودهم إلى ردىً، أو يُوقعهم في الضلال، وإلاّ فكيف يكون سيّد شباب أهل الجنة؟!

وهذا المعنى يشير إليه الحديث النبوي الشريف: «**أهل بيتي فيكم كسفينة نوح عليه السلام في قومه من دخلها نجا ومن تخلّف عنها هلك**»[3]، فعندما يكون الحسين عليه السلام ـ بوصفه أحد أئمة أهل البيت عليهم السلام ـ سفينة النجاة، فهذا معناه أنّ الركوب في هذه السفينة فيه منجاة من الهلكة، والعصمة من فتن الدنيا، وهو ما يدلّ عليه أيضاً وبوضوح حديث الثقلين المشهور، وقد جاء فيه: «**إني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يَرِدا عليَّ الحوض**»[4].

---

(١) المستدرك للحاكم النيسابوري ج ٣ ص ١٦٧، وسنن ابن ماجة ج ١ ص ٤٤.
(٢) مناقب آل أبي طالب ج٣، ص١٦٣. علل الشرائع ج ١ ص ٢١١.
(٣) انظر المعجم الأوسط للطبراني ج ٥ ص ٣٠٦
(٤) مسند أحمد ج٣، ص١٤،٢٦.

ثانياً: إسلامية القضية والشعارات والأهداف

ولو جئنا إلى العنصر الثاني وهو إسلاميّة الثورة من جهة القضية والأهداف والطروحات، فإننا نرى أنّ الشعارات التي رفعتها الثورة الحسينية ليست شعارات مذهبية ولا عشائرية، بل شعارات قرآنية إسلامية بكلّ ما تعنيه كلمة الإسلامية من معنى، ونرى أيضاً أنّ المبادئ والقيم والتطلّعات التي استهدفتها ليست مبادئ نفعيّة أو تطلّعات سلطوية، بل هي مبادئ إنسانية، وإليك بعض الأمثلة على سموّ المعنى، وأخلاقية الهدف الذي طرحته الثورة وتطلعت إليه:

١ـ **عنوان الإصلاح:** في وصيّته لأخيه محمد بن الحنفية يقول أبو عبد الله الحسين عليه السلام: «.. **وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي**»(١)، فالإصلاح هو وظيفة الأنبياء وطموح المرسلين، كما حدّثنا الله تعالى عن أنبيائه: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾[هود: ٨٨]

ولنا أن نتساءل: ما الذي استهدفت هذه الثورةُ إصلاحَه؟

هذا سؤال هام ويحتاج إلى إجابة بمستواه من الأهمية، ولا شك أنّها هدفت إلى إصلاح الكثير من الانحراف على مستويات عديدة، على المستوى الفكري والسلوكي والأخلاقي والاجتماعي والسياسي. وعلى صعيد الأمة والفرد.. أراد الحسين عليه السلام إصلاح النفوس.. وإصلاح النصوص، وهذا ما سوف يأتي توضيحه لاحقاً.

٢ـ **مواجهة الظالمين والمستكبرين:** ومن أهم أهداف الثورة الحسينية وعناوينها: عنوان مواجهة الظلم والظالمين، وهذا العنوان حاضر في الشعارات التي رفعتها هذه الثورة، وهذا ما أكدّ عليه القرآن الكريم في

(١) كتاب الفتوح لأحمد بن أعثم الكوفي (ت:١٣٤ هـ) ج٥، ص٢١.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[هود:١١٣].

٣ـ **تغيير الواقع المنحرف**: جاء في تاريخ الطبري: «أنّ الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: **أيّها الناس إنّ رسول الله ﷺ قال: من رأى منكم سلطاناً جائراً مستحلاً لِحُرَم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يُدخله مدخله، ألاّ وإنّ هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله وأنا أحقُّ مَنْ غيّر**»(١).

وهنا نتذكر كلام والده أمير المؤمنين عليه السلام: «**اللهم إنَّك تعلمُ أنَّه لم يكنِ الذي كانَ مِنّا منافسةً في سلطان ولا التماسَ شيءٍ من فُضُول الحُطَام ولكن لِنَرِدَ المعالِمَ من دينِك ونُظْهِرَ الإصلاحَ في بلادِك، فيأمَنَ المظلومونَ من عبادِك، وتُقامَ المُعَطَّلَةُ مِنْ حُدودِك**»(٢). إنّ قضية التغيير (تغيير الواقع الفاسد) هي هدف قرآني إسلامي إنساني.

٤ـ **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: والآلية التي تُستخدم لتطبيق العناوين المتقدّمة هي آلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول أبو عبد الله الحسين عليه السلام في تتمة كلامه الآنف حول الإصلاح: «.. **أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي ﷺ وأبي عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فمن قَبِلَني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردّ عليّ أصبر حتّى يقضيَ الله بيني وبين القوم بالحقّ وهو خيرُ الحاكمين**»، والأمر بالمعروف

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٣٠٢.
(٢) نهج البلاغة ج٢ ص١٣.

والنهي عن المنكر ـ وهو الطريقة العملية التي يتجسّد من خلالها الإصلاح ـ هو الآخر عنوان قرآني بامتياز، ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٧١]، وقال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[آل عمران: ١٠٤].

وتجسيداً لمبدأ رفض المنكر فقد أعلن الحسين عليه السلام رفضه بيعة يزيد، لأنّها مثال واضح وجليٌّ للمنكر: «**أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحترمة معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله**»(١).

ولا يخفى التداخل الكبير الحاصل بين العناوين المتقدّمة، وهو تداخل لا يعنينا حالياً بيان حدوده، لأننا بصدد بيان إسلامية العناوين والشعارات، بصرف النظر عن تحليل أبعادها وحدودها.

٥ـ **كرامة الإنسان وعزّته**: وهذا العنوان هو من أهم العناوين الإنسانية التي رفعتها ثورة الحسين عليه السلام، يقول أبو عبد الله الحسين عليه السلام: «**ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعي قد رَكَزَ بين اثنتين بين السِّلة والذِلّة وهيهات منا الذِلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوف حميّة ونفوس أبيّة مِنْ أن نُؤْثر طاعة اللِّئام على مصارع الكِرام**». إنّ شعار «**هيهات منّا الذِلّة**»، هو أيضاً شعار قرآني، يقول الله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ**

(١) الملهوف على قتلى الطفوف ص١٧

﴿وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون:٨]، وقد فوّض الإسلام إلى المؤمن أموره كلّها، ولم يفوّض إليه أن يذلّ نفسه، وإنّ كلّ من يعمل على إذلال الإنسان وإهانته فهو مدان في مدرسة الحسين عليه السلام ولو كان يلطم على الحسين عليه السلام ويبكيه.

معوقات أمام امتداد الثورة إسلامياً وإنسانياً

أمام هذه العناوين القرآنية والمنطلقات الإسلامية والإنسانية لنهضة الحسين عليه السلام لا بدّ لنا أن نستغرب محاولات تفريغها من مضمونها، أو مسخ معانيها، أو تشويه صورتها وسجنها في إطار ضيّق، وهذا ما قد يفعله بعض الناس جهلاً، وربّما يفعله آخرون حقداً. إنّ من حق الحسين عليه السلام علينا أن نعمل على رفع المعوقات أمام امتداد ثورته على الصعيدين الإسلامي والإنساني، ومن أهم هذه المعوّقات:

١ـ التحليل الخاطئ لأسباب الثورة، والذي يتراوح بين اتجاه يعطيها بعداً غيبياً خاصاً لا يجعلها قابلة للاحتذاء، واتجاه آخر يجعلها أقرب ما تكون إلى معركةٍ على السلطة، أو صراع عشائري بين «أُمَيَّة» و«هاشم».

٢ـ الخطاب المذهبي الضيق الذي يحتكر الحسين عليه السلام ويأسره في نطاق خاص، مغيباً كل القيم الإنسانية والإسلامية التي تضجّ بها ثورته عليه السلام غافلاً أو متناسياً أنّ الحسين عليه السلام هو إمام المسلمين ومقتدى الأحرار، وليس ملكاً لطائفة معيّنة، أو جماعة بعينها، وعليه، فلا يجوز احتكار الحسين عليه السلام، أو الاستئثار بثورته. وإنّ أكبر تشويه للنهضة الحسينية هو محاولة مذهبتها وحبسها في نطاق ضيّق.

٣ـ الممارسات المنفرة التي تؤدى وتقام باسم إحياء ذكرى الحسين عليه السلام، من قبيل عادة إدماء الرؤوس والوجوه، أو المشي على الجمر ونحوهما من الأفعال المشوِّهة للنهضة ولأهدافها.

٤ـ التأخر أو العزوف (الذي نرجو أن لا يطول) عن تقديم هذه الثورة بقيمها ورموزها وأحداثها من خلال لغة يفهمها أهل العصر، عنيت بذلك لغة التمثيل والمسرح والرواية ..

ثالثاً: إسلامية الممارسة الثورية

والعنصر الثالث الذي تتجلّى إسلامية الثورة فيه، هو ـ كما ذكرنا في مستهلّ الحديث ـ إسلامية الممارسة الثوريّة، لأنّ الإسلامية لا تحقّقها الشعارات ولا المبادئ المجرّدة، بل لا بدّ من التجسيد العملي لهذه المبادئ، وهنا مقياس الإسلاميّة الحقّة، وهنا تُختبر مصداقية الشعارات، وهنا يُعرَف الثائر الصادق من الكاذب، وهنا سقطت وتسقط الكثير من الحركات التي تزعم الإسلامية، حيث يتحوّل أتباعها إلى لصوص وقطّاع طرق وسفّاكي دماء، إنّ أخلاقية الثائر هي البرهان العملي على صدق إسلاميّته ونبل قضيّته، وهنا نجد النبل في ثورة الحسين عليه السلام ونرى الأخلاقية بأعلى مستوياتها، فهو الذي يخرج من مكّة المكرّمة محوّلاً حِجّته إلى عمرة مفردة، لأنّه لا يريد أن تُنتهك حرمة البيت العتيق بقتله، وهو الذي لا يمنعه حصار القوم له وغدرهم به أن يدعو لهم بالهداية، وأن ينصحهم ويشفق عليهم ويحذّرهم من عاقبة قتله وسفك دمه، وهو الذي لا تسجّل كتب التاريخ عليه زلّةً في قول أو فعل، أو تصرّفاً عدوانياً في كلّ مسيرته وإلى حين استشهاده، وهو الذي يأمر فتيانه عندما يصل إليهم الحرّ بن يزيد الرياحي مع ألف فارس في حَرّ الظهيرة قائلاً: «**اسقوا القوم وأرووهم من الماء، ورشّفوا الخيل ترشيفاً**»[(١)].

وهذه الأخلاقية هي التي تفسر لنا رفض الإمام الحسين عليه السلام طلب مسلم بن عوسجة قبل بدء القتال بأن يسمح له برمي شمر بن ذي الجوشن بسهم لأنه قد أصبح في مرماه، فقد كان جواب الإمام الحسين عليه السلام «**لا ترمه، فإنّي أكره أن أبدأهم**»[(٢)].

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٣٠٢ والإرشاد للمفيد ج٢ ص٧٨.

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٢٢.

وتتجلى أخلاقية الثائر الحسيني بذلك الموقف التاريخي الذي وقفه مسلم بن عقيل عندما رفض أن يقتل عبيد الله بن زياد في بيت هانئ بن عروة غيلة رغم تمكنه من ذلك، وذلك عند تذكره قول النبي ﷺ: «**الإيمان قيد الفتك**»(١).

بينما نجد في المعسكر المقابل ـ الذي يزعم الانتماء إلى الإسلام ـ الوحشيّة بأبشع صورها، والخسّة بأسوأ مظاهرها، والعدوانيّة بأقسى تعبيراتها، وما قتل الأطفال، والتنكيل بالأجساد، والتعرّض بالأذى للنساء، ومنع الماء عن غير المقاتلين رغم العطش الشديد إلا بعض النماذج الصارخة على تلك الوحشية والممارسة اللاأخلاقية التي لا تزال تشكّل لعنة على أصحابها إلى يومنا هذا؛ يذكر المؤرخون أنّ عبيد الله بن زياد يرسل إلى الحُرّ الرياحي رسالة يقول له فيها: «أما بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي، فلا تنزله إلاّ بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء»!(٢).

---

(١) روى الطبري أن شريك بن الأعور مرض في بيت هانئ «وكان ـ أي شريك ـ كريما على ابن زياد وعلى غيره من الأمراء وكان شديد التشيع فأرسل إليه عبيد الله إني رائح إليك العشية، فقال لمسلم: إنّ هذا الفاجر عائدي العشية فإذا جلس فاخرج إليه فاقتله ثم اقعد في القصر ليس أحد يحول بينك وبينه، فإنْ برئت من وجعي هذا أيامى هذه سرت إلى البصرة وكفيتك أمرها، فلما كان من العشى أقبل عبيد الله لعيادة شريك فقام مسلم بن عقيل ليدخل وقال له شريك: لا يفوتنك إذا جلس، فقام هانئ بن عروة إليه فقال: إني لا أحب أن يقتل في داري كأنه استقبح ذلك، فجاء عبيد الله بن زياد فدخل فجلس فسأل شريكاً عن وجعه وقال: ما الذي تجد ومتى أشكيت؟ فلما طال سؤاله إياه ورأى أن الآخر لا يخرج خشى أن يفوته فأخذ يقول ما تنظرون بسلمى أن تحيوها أسقنيها وإن كانت فيها نفسي. فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً، فقال عبيد الله ـ ولا يفطن ما شأنه ـ: أترونه يهجر؟ فقال له هانئ: نعم أصلحك الله ما زال هذا ديدنه قبيل عماية الصبح حتى ساعته هذه، ثم إنه قام فانصرف فخرج مسلم، فقال له شريك: ما منعك من قتله؟ فقال: خصلتان أما إحداهما فكراهة هانئ أن يُقتل في داره، وأما الأخرى فحديث حدثه الناس عن النبي ﷺ: «**إن الايمان قيد الفتك ولا يفتك مؤمن**» فقال هانئ: أما والله لو قتلته لقتلت فاسقاً فاجراً كافراً غادراً ولكن كرهت أن يُقتل في داري»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٧١، وانظر: مقاتل الطالبيين ص ٦٥، ورواية : «**الإيمان قيد الفتك**» مروية عنه ﷺ من طرق الفريقين، انظر: الكافي ج ٧ ص ٣٧٥، وتهذيب الأحكام ج ١٠ ص ٢١٤، والمجازات النبويّة ص ٣٥٦، وسنن أبي داوود ج ١ ص ٦٣١، ومسند أحمد ج ١ ص ١٦٧.

(٢) تاريخ الطبري ج٤ ص٣٠٨، والإرشاد للمفيد ج٢ ص٨٣.

كيف نترجم إسلامية الثورة؟

إنّ تأكيدنا على إسلامية الثورة الحسينية وقرآنية شعارتها وإنسانية أهدافها يعني:

أولاً: ضرورة إخراجها من الدائرة المذهبية ومن دائرة التحليلات الخاطئة التي تحبسها في نطاق ضيّق أو تُدخلها في إطار من الغيبية.

ثانياً: اتخاذها نموذجاً يُحتذى، ومثالاً أعلى يُستلهم ويُقتدى، ومدرسة تتربّى عليها الأجيال، وهذا ما يدفعنا إلى دعوة كلّ المسلمين والأحرار في العالم إلى الإفادة من معين هذه الثورة، لأن الحسين عليه السلام مُلْكُ الجميع، ومن يبتعد عن الحسين عليه السلام فهو الخاسر، لأنّه يحرم نفسه من النور والضياء، ومن استلهام دروس العزة والكرامة والإباء.

وثالثاً: ضرورة أن نترجم إسلامية الثورة وقرآنية شعاراتها وإنسانية طروحاتها في أساليب استحضار الثورة، ووسائل إحيائها، لتكون أساليب الإحياء إسلامية وإنسانية، وليست أساليب ملتبسة أو متخلّفة أو مبعث اشمئزاز ونفور.

الفصل الثاني

النهضة الحسينية ومواجهة نظام الفساد

***

المحور الأول: الفساد طبيعته ومخاطره

المحور الثاني: الإصلاح ضوابطه وشروطه

المحور الثالث: مدخل الإصلاح: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المحور الرابع: أعمدة نظام الفساد.. رؤية قرآنية

لقد كان مدار حديثنا في المحور الثاني من الفصل السابق منصبّاً على بيان أهم النظريات المطروحة في تفسير دوافع الثورة وأسبابها، وخلصنا إلى أنّ النهضة الحسينية كانت ثورة تغييرية شاملة، وأشرنا إلى أنّ العمل الثوري لا بدّ أن يتلازم مع العمل الإصلاحي وإلا لن يصل إلى نتائجه المرجوة، وفي هذا الفصل سوف نضع على طاولة البحث عنوان الإصلاح باعتباره أهم عنوان رفعته الثورة الحسينية وطرحته كهدف لها، وعندما يرفع الحسين عليه السلام شعار الإصلاح في الأمة ويضعه عنواناً لحركته ونهضته فهذا يعني أنّ الفساد قد استشرى في جسد المجتمع والدولة، الأمر الذي حتّم عليه أن يبذل الغالي والنفيس في سبيل إصلاح الأمة وتقويم الاعوجاج المستشري فيها.

وحيث إنّ الفساد هو مشكلة الإنسان، فرداً أو مجتمعاً، لذا كان لزاماً علينا التعرف على طبيعة الفساد وأهم ركائزه وكيفية مواجهته والأساليب التي يفترض استعمالها في عملية المواجهة، وهذا الأمر سوف نتناوله من خلال المحاور التالية:

المحور الأول
الفساد طبيعته ومخاطره

في هذا المحور نطلّ على أهمِّ الأمراض التي تصيب المجتمعات البشريّة وهو مرض الفساد بأشكاله المختلفة ونبحث عن مظاهر الفساد وأبعاده المختلفة وتأثيراته البالغة الخطورة على استقرار الاجتماع البشري وانتظام الحياة.

ولا شكّ أنّ الفساد سواءً على الصعيد الأخلاقي أو السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي هو أم الآفات وسبب دمار المجتمعات وانهيار الحضارات واستبدال الأمم بغيرها، ولا يمكن لأمة أن تنهض ما دام الفساد ينخر في عظمها ويستشري في جسمها.

وفي مواجهة الفساد، فإنّ الإسلام أعدّ برنامجاً واضح المعالم، وهذا ما نأتي على بيانه في الفقرات التالية:

١ـ مناشئ الفساد وأسبابه

في الأسباب، لا شك أنّ السبب الرئيس لكل فساد هو في انحراف الإنسان عن دوره في نظام الخلافة الإلهية، هذا الدور الذي يفرض عليه باعتباره خليفة الله على الأرض أن يعمل على نشر العدل وإحقاق الحق، وأن يسعى لإعمار الحياة عمراناً روحياً ومعنوياً وأخلاقياً واجتماعياً ومادياً، قال تعالى: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾[هود: ٦١]. والسّرُ في الانحراف المذكور هو في غلبة المطامع والأنانيات على إرادة الإنسان، وفي اجتياح الثقافة الماديّة الاستهلاكيّة

التي عملت على «تغويل» الإنسان (تحويله إلى غول أو وحش) وتفريغه من الروح وتجريده من كل القيم والأخلاقيات.

بكلمة: إنّ نقطة البداية في انتشار الفساد هي في انحراف الإنسان عن المسار الصحيح الذي أريد له أن يسير عليه فيما خطط له في مهمّة الخلافة وابتعاده عن المنظومة القيمية الحاكمة في المجتمع، ومن الطبيعي أنّ طريق الانحراف هو الطريق الأسهل لوصول الإنسان إلى المآرب والأغراض والغايات الخاصة.

وفي ضوء ذلك كان من الطبيعي أن يحمّل القرآنُ الكريم الإنسانَ وحده مسؤولية الفساد، ولا يحق لنا أن نلقي باللائمة على القضاء والقدر ـ مثلاً ـ كما يفعل البعض في محاولة للتهرب من مسؤولياته، قال تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾[الروم: ٤١].

٢ـ الفساد خصائصه وأعراضه

ومن البديهي أنّ علاج آفة الفساد هو رهنُ التعرف على هذه الآفة وبيان أعراضها. ويمكننا القول: إنّ للفساد جملة من الأعراض والخصائص:

١ـ من تلك الخصائص أنّ الفساد في بداية الأمر يكون صغيراً ومحدوداً، ولكنه مع الوقت يتراكم ويتضاعف ويتزايد شيئاً فشيئاً ويمتد ويتفشى كبقعة الزيت التي تنتشر ببطءٍ، وغالباً ما يكون التحوّل غير مرئي بسرعة، لكنّ تقادم الزمان واستحكام نظام الفساد وعدم التصدّي له سيؤدي إلى استحكام الفساد إلى أن يصبح مرضاً عصياً على العلاج بالطرق العادية، ومن الضروري أن لا نستخفّ بالانحراف ولو كان صغيراً، فالخطأ الصغير يستدعي ما هو أكبر منه، والذين قتلوا الحسين عليه السلام لم يُخلقوا مجرمين، وإنّما بدأوا بانحراف صغير فأكلوا حراماً واغتابوا مؤمناً وأضاعوا حقاً،

وتراكمُ الذنوب والمعاصي هذا جعل قلوبهم قاسية متحجرة حتى لكأنّ الرحمة قد نزعت منها، وإذا قسى قلب الإنسان ونزعت الرحمة منه لم يعد يرى لله حقاً ولا لمؤمن حرمة، فيهون عليه أن يندفع إلى قتل سبط رسول الله ﷺ. باختصار: إنّ من يجترئ على الصغير يجترئ على الكبير.

٢ـ ومن خصائص الفساد أيضاً أنّه من الأمراض المعدية، فهو يبدأ فردياً ولكنْ إذا لم يوضع له حدٌ ولم يُصَرْ إلى إصلاحه فإنّه سينتشر شيئاً فشيئاً وينتقل من فردٍ إلى آخر، إلى أن يغدو انحرافاً اجتماعياً ونصبح أمام ظاهرة فساد عامة.

٣ـ وقد يمتد الانحراف ليصبح هو السائد وربما المألوف فلا تستطيع إنكاره وتغييره بسهولة، بل قد تلام وتصبح موضع إدانة في حال مواجهتك له، إذ في مرحلة معينة من انتشار الفساد واعتياده يغدو الحق غريباً، وكما قال النبي ﷺ: «**الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء**»(١)، وها نحن في زماننا نشعر بغربة كبيرة لتعاليم الإسلام إن على مستوى القيم والمبادئ أو على مستوى الأحكام الشرعية، أو على مستوى الأفكار، حتى وصل الأمر حدَّ انقلاب الموازين وتبدل المعايير، وهذا هو ما يَرْمِي إليه قول النبي الأكرم ﷺ فيما روي عنه: «**كيف بكم أيّها الناس إذا طغى نساؤكم وفسق فتيانكم!** قالوا: يا رسول الله إنّ هذا لكائن. قال: **نعم وأشدّ منه، كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!** قالوا: يا رسول الله إنّ هذا لكائن قال: **نعم وأشدّ منه كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفاً والمعروف منكراً**»(٢).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج ٢ ص ٢١٨.
(٢) مجمع الزوائد للهيثمي ج ٧ ص ٢٨١.

إنّ هذا هو أخطر ما ينجم عن الفساد أو ما يؤدي إليه، حيث إنّه في بادئ الأمر يكون أمراً منكراً ومرفوضاً من كثيرين، بيد أنّ اعتياد الناس عليه سيخفف شيئاً فشيئاً من بشاعته ما يجعله في نهاية المطاف أمراً مألوفاً، ولا تشعر الناس بالنفور منه، ويترقى الأمر إلى أن يصبح الفساد محمياً بمنظومة فكرية تنظّر للدفاع عنه وتسويقه.

٣ـ الفساد أنواع ومستويات

ومن الضروري بمكان لمن يريد مواجهة الفساد أن يتعرّف على أنواعه ومستوياته، ونشير هنا إلى المستويات التالية:

١ـ فساد الفرد وفساد المجتمع

إنّ الفساد كما قلنا يبدأ فردياً ويتحوّل إلى آفة اجتماعية، ويمكنك القول: إنّه تارة يصيب الفرد وأخرى يصيب المجتمع، ومعلوم أنّ من أهم مبادئ الإسلام الاهتمام باستقامة الفرد والمجتمع معاً، وإذا أردنا بناء مجتمع مستقيم تحكمه القيم فعلينا أن نعمل على الخطين معاً، أعني خط إصلاح الفرد وخط إصلاح المجتمع، وإنَّ كافة الجهود التي تنصَبُّ على بناء الفرد وإصلاحه وتهذيبه، لن تثمر وتصل إلى غاياتها المنشودة إلا إذا ترافقت مع عمل جاد ودؤوب على إصلاح المجتمع، فاستقامة الفرد لا تغني عن استقامة المجتمع، فما أكثر ما يكون الأفراد صالحين لكنّ المجتمع يكون فاسداً، كما أنّ استقامة الفرد لا تغني عن استقامة المجتمع، فالفرد لا يعيش في جزيرة معزولة، ولذا إذا كان المجتمع فاسداً فلا محالة سوف ينعكس ذلك على الفرد عاجلاً أم آجلاً، ما يؤدي إمّا إلى انعزاله أو وقوعه تحت تأثير المجتمع الفاسد.

ولذا لا يستطيع الإنسان المهتم باستقامته واستقامة أبنائه أن يكون غير مبالٍ بشأن المجتمع على طريقة المثل الشعبي: «تبعد عن رأسي بسيطة»، بل

من الواجب عليه ليحمي نفسه وأسرته أن يعمل على بناء المجتمع المستقيم والصالح، فحماية بيتك وأسرتك هي جزء من حماية المجتمع، بتحصينه بمنظومة من القيم والمبادئ التي تعدّ اللبنة الأساس في بناء الاجتماع الإنساني.

وقد تسأل: كيف يكون المجتمع صالحاً؟ ما هي أسس بنائه؟

والجواب: إنّ المجتمع الصالح هو الذي تحكمه بنية هادفة وصالحة، ولو كان فيه أفراد فاسدون، والمجتمع الفاسد هو الذي تحكمه بنية فاسدة، ولو كان فيه أشخاص صالحون، ففساد المجتمع ليس في انحرافات هامشيّة، وليس في مجرد فساد الأفراد، وإنّما هو فساد المنهج، أو «السبيل» كما عبّر الله تعالى: ﴿**وقالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[الأعراف: ١٤٢]، ونحن لن نستطيع الوصول إلى مجتمع خالٍ من الأشخاص الفاسدين. سيظلُّ الأفراد الفاسدون موجودين حتى في دولة المعصوم، كما سيظل الصالحون موجودين حتى في دولة الظلمة. ولكن باستطاعتنا أن نؤسس لمجتمع يرتكز على نظام صالح. وبكلمة: إنّ الفساد أو الصلاح على الصعيد الاجتماعي هما الفساد أو الصلاح في بنية النظام الاجتماعي والأخلاقي والسياسي، وهذا ما سوف نزيده بياناً وتوضيحاً في النقطة الثالثة.

٢ـ بين فساد الأشخاص وفساد النظام

حيث إنّ الفساد ليس مجرد ممارسات منحرفة، وإنّما هو نتاج نظام فاسد وثقافة منحرفة، لهذا ففي عمليّة المواجهة لا يكفي العمل على إسقاط الفاسدين وتعريتهم، على أهمية ذلك وضرورته، لأنّه ـ ومع كون النظام فاسداً ـ فسوف يخلفهم أشخاص آخرون وربما كانوا أشد سوءاً وفساداً منهم، فلا بدّ إذن لكل من يروم الإصلاح أن يعمل بكل إخلاص لإسقاط النظام الفاسد الذي لا ينتج إلا الفاسدين، ولهذا يكون لزاماً على الناس الذين يرغبون في التغيير وإصلاح

مجتمعاتهم أن يحدقوا في النظام أكثر مما يحدّقون في الأشخاص، ففي بلدٍ كلبنان مثلاً والذي يحكمه النظام الطائفي ذو السقوف المتفاوتة لا يمكن لشعبه أن يصل إلى بر الأمان ويعيش حياة هانئة مستقرة إلا إذا عملوا على إسقاط نظام المحاصصة الطائفية والمذهبية والذي لا يسمح لأحدٍ في الكثير من البلدان بالعبور إلى وطنه إلا من بوابة المذاهب وأمرائها، عوضاً عن التلهي برجم الزعماء بالشتائم ثم إعادة إنتاجهم في أول فرصة انتخابية، لأنّهم يُحسنون ويتقنون فنّ استثارة عصبياتهم المذهبية على بوابة الانتخابات أو في الكثير من المنعطفات، والأمر عينه ينطبق على العراق البلد الغني في ثرواته وإنسانه ولكنه يرزح تحت نير الفساد المستشري في أجهزة النظام وبنيته، وهكذا أكثر بلداننا ودولنا العربية والإسلامية، والتي تأتي في أعلى القائمة عند تعداد الدول الفاسدة!

إنّ بعض الأشخاص في السلطة والإدارة ربما كانوا صالحين في أنفسهم لكنّ انخراطهم في نظام فاسد سيدفعهم من حيث لا يشعرون إلى السقوط في فخّ الفساد، وربما يصل تماهيهم و«تأقلمهم» مع الفساد إلى حدّ أنّهم يألفونه ويخفى عليهم فساده، بل ربما ظنوه صلاحاً، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ**﴾ [البقرة: ١١ ـ ١٢]. ولذا فإنّ واجب الأمة أن تعمل على إسقاط نظام الفساد، ولتكنِ البداية بالتمرد على الفاسدين الذين يشكلون عائقاً أمام التغيير، قال تعالى: ﴿**وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ**﴾[الشعراء: ١٥١ ـ ١٥٢].

٣ـ الفساد السياسي والديني

وفي تصنيف آخر للفساد يمكن ذكر نوعين آخرين لا نبالغ بالقول إنهما يعدّان من أخطر أشكال الفساد وهما:

أولاً: الفساد في السلطة السياسية فهو في الواقع يشكّل داهية عظمى وطامة كبرى، لأنّ الحاكم الفاسد سيسعى إلى تغيير القيم وتبديل الموازين، قال تعالى حكاية عن لسان ملكة سبأ: ﴿**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾[النمل: ٣٤].

ثانياً: الفساد الديني، وهو الذي يقوم به جملة من المتجلببين بجلباب الدين، حيث يتلاعبون بالمفاهيم الدينية خدمة لبعض المصالح والأهواء الخاصة، ومخاطر هذا النوع من الفساد كارثية ومدمرة، وسيأتي الحديث عن ذلك لاحقاً.

وليس هناك ما هو أخطر على الدين والمجتمع معاً من قيام تحالف بين السلطة السياسية الفاسدة والسلطة الدينية المزيفة، وهذا ما شهدناه في الماضي ولا نزال نشهده اليوم حيث تعمل العباءة الدينية المزيفة على تغطية الفساد السياسي وإضفاء لبوس «القداسة الدينية» عليه، والحال أنّها ليست سوى عصبيات مقيتة نتنة.

وهذا التحالف بين السلطتين السياسية والدينية قد يتمثّل في شخصيتين تتآزرا، وقد يتمثّل في شخصية واحدة، وهنا تكون الخطورة أكبر وأعظم، وما كان حاصلاً في زمن يزيد هو أنّه كان يمثّل السلطتين في شخصه، فهو خليفة رسول الله ﷺ والخلافة منصب ديني سياسي، ومن هنا شعر الإمام الحسين عليه السلام بالخطورة على الدين وعلى الأمة في حال السكوت أو الاعتراف بتولي شخص كيزيد للخلافة في بعديها السياسي والديني.

إنّ وظيفة كل المصلحين السائرين على نهج الإمام الحسين عليه السلام أن يعملوا على فضح هذا الزيف ومواجهة هذا التحالف المشبوه بين «فقهاء السلطة» و«سلاطين الدنيا»، أو قل بين السلطتين السياسية والدينية، فهنا مكمن الفساد وأصله، في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**صنفان من أمتي إذا صَلُحا صلحت أمتي، وإذا فَسُدا فسدت أمتي، قيل: يا رسول الله ومن هما؟ قال: الفقهاء والامراء**»[1].

(١) الخصال للصدوق ص ٣٧.

٤ـ الفاسدون والمفسِدون

وكما ميّزنا بين الفرد الفاسد والمجتمع الفاسد، فإنّ علينا أن نميّز بين نوعين من الفاسدين وهما: الفاسد العادي، والفاسد المفسد، وتوضيح ذلك: إنّ من ينحرف عن خط النظام العام للتشريع ويتجاوز القانون فيسرق ويعتدي ويغش ويظلم هو إنسان فاسد، والفاسد قد يكون معترفاً بانحرافه، ولا سيما عندما يتمّ تنبيهه إليه وإرشاده إلى خطأه، بيد أنّه قد يتعلل ببعض الأعذار، أمّا الانحراف الاجتماعي والسياسي فمن يقوده ليس مجرد إنسان فاسد، وإنّما هو أيضاً مفسد؛ الفاسد هو من يتجاوز النظام التشريعي والأخلاقي، وأمّا المفسد فهو الذي يتلاعب بذلك النظام ويبدّله بما يتلاءم مع مصالحه وأهوائه الخاصة، إنّ المفسد يغيّر بنية النظام القيمي أو الاجتماعي أو يساهم في تغييرها.

إنّ الفرق بين المفسد والفاسد هو ـ تماماً ـ كالفرق بين الصالح والمصلح، فقد يكون الفرد صالحاً ولكن قد لا يتسنى له ولا يملك أن يكون مصلحاً، لأنّ المصلح هو شخص صاحب مشروع ودور رسالي، وتلك مهمّة لا يقدر عليها كل الناس، بينما الصالح هو إنسان خيّر متدين وقد يكون عنصر خير وبركة لمن حوله، ولكن مع ذلك فهو قد لا يمتلك القدرة على النهوض والقيام بأعباء عمل إصلاحي نهضوي تغيري.. إنه لا يمتلك القدرة على أن يحوّل صلاحه إلى مشروع يجتذب الآخرين ويشدهم إليه، بخلاف المصلح فإنّه قادر على فعل ذلك.

ما تقدّم يدفعنا إلى طرح سؤال وهو أنّه كيف يتحول الإنسان إلى شخص مفسد؟ وهل يكون مفسداً بطبعه أم أنّه يكتسب ذلك اكتساباً؟

والجواب: إنّ الإنسان لا يولد فاسداً ولا مفسداً، يولد شخصاً نقياً طاهراً كالصفحة البيضاء، أو «**كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قبلته**»، كما

قال الإمام علي عليه السلام فيما روي عنه[1]، وإنّما العوامل المحيطة به مثل البيئة الاجتماعية والمصالح الشخصية والانقياد للشهوات والغرائز وسواها من العوامل هي التي تصنع منه إنساناً فاسداً ومفسداً وطاغية، بحيث إنّه وحيث ما حلَّ يحلّ الفساد معه.

إنّ المسألة تبدأ بانحراف صغير وبسيط، فلا يبالي به صاحبه ولا يعمل على محاسبة نفسه، ثم يجترئ على الكبير، وتكرار الذنب أو العدوان سيجعله يدمن الأمر ويستخف بكل المعاصي، وشيئاً فشيئاً يذوي ضميره الناقد الذي يشكل حصانة له، وتضعف نفسه اللوامة فلا يعود يشعر بأنه يرتكب خطأً حتى يصبح الانحراف أمراً اعتيادياً بالنسبة إليه ويجنّد نفسه للدفاع عنه لقناعته وتخيّله بأنه لا يرتكب خطأً!

٥ـ أهم معالم الفساد في الأمة قبيل الثورة الحسينية

إن الفساد الذي أنتجه النظام الكسروي في المجتمع الإسلامي قبيل نهضة الإمام الحسين عليه السلام كان خطيراً وفظيعاً للغاية، ونكتفي في بيان مظاهر الفساد الذي استشرى في الأمة بعد تولي معاوية للسلطة بالرجوع إلى كلمة من كلمات الإمام الحسين عليه السلام التي أكّد فيها عليه السلام أنّ ثورته كانت بهدف مواجهة الفساد والمفسدين، يقول عليه السلام: «**ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيّر**»[2]. وقد بيّنت لنا هذه الكلمة أهم معالم الفساد المستشري في زمانه، وذلك من خلال ثلاثة عناوين رئيسية:

١ـ «**وعطلوا الحدود**»، وتعطيل الحدود هو أحد مظاهر الفساد، فالمجتمع الذي لا تحكمه الحدود بما تعنيه من نظام المحاسبة هو مجتمع تسوده الفوضى، لأنّه إذا لم يعد هناك حساب ولا عقاب وأصبح هناك أشخاص

---

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٤٠.

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٤.

فوق القانون، فهذا مؤشر على انهيار المجتمع، ولذا كان الرسول الأكرم ﷺ واضحاً في أنّه لا أحد فوق القانون، في الحديث أنّ قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلِّم فيها رسول الله ﷺ؟ قالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حبّ رسول الله ﷺ فكلّمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد! وأيم الله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها**»(١).

٢ـ «**واستأثروا بالفيء**»، والفيء هو المال العام أو مال الأمة، وعندما تستأثر طبقة مالكة وحاكمة أو فاسدة بهذا المال فهذا مؤشر خطير على انحراف وفساد بنيوي يؤسس لطبقيّة خطيرة، ويدفع المستأثرين في سبيل الحفاظ على «مكتسباتهم» إلى ممارسة الاستبداد واستعباد الناس وقهرها وإذلالها، كما أنّه سيؤدي حكماً إلى انتشار المحسوبيات وحالة الاستزلام والانقياد لأصحاب رؤوس المال والمستأثرين بالمال العام، ومن هنا نجد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد شنّها حرباً لا هوادة فيها على جريمة التعدي على المال العام، ولم يستمع لبعض «النصائح» الموجهة إليه والتي تدعوه إلى المهادنة وغض الطرف عن بعض الانحرافات على الصعيد المالي، لأنّه عليه السلام قدّر أنّ انحراف السياسة المالية في الدولة عما هو مرسوم لها ليس أمراً هامشياً وإنّما هو انحراف بنيوي لا يمكن السكوت عليه أو التغاضي عنه، ولهذا نجده مصراً على استرجاع ما عُرف بقطائع عثمان، قائلاً: «**والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته، فإنّ في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق**»(٢).

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ج ٤ ص ٣٣٤.

(٢) نهج البلاغة ج ١ ص ٤٦

٣ـ «**وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله**» وهذا العنصر ـ باعتقادي ـ هو الأخطر في عملية الإفساد، ولنتأمل ملياً في هذه الجملة، فالإمام عليه السلام لم يقل إنّهم ارتكبوا الحرام وتجاوزوه، وإنّما قال: «**إنهم أحلّوا الحرام، وحرموا الحلال**»، فنحن أمام عملية تشريع ـ كما يقول العلماء ـ وبعبارة أكثر وضوحاً: نحن أمام عملية تزوير للشريعة وتغيير معالمها، والمفسد لن يستقيم له الأمر إلاّ بالعمل على تغليف الفساد بغلاف جميل ومقنع، وهل أجمل من غلاف الدين ولباسه؟! فالدين هو أفضل وسيلة لـ «شرعنة» الفساد وحماية الانحراف وتعميق العصبيات.

٦ـ الحسين عليه السلام يواجه الفساد

وأما كيف واجه الإمام الحسين عليه السلام هذا الفساد المستشري في المجتمع الإسلامي؟

لا يخفى أنّ الإمام عليه السلام لم يترك اجتهاداً لمجتهد، فهو قد حدد ببيانات عديدة وخطابات واضحة لا لبس فيها طريقة المواجهة، ولنترك الكلام للحسين عليه السلام نفسه ليحدد لنا هذه الأهداف والخطوط العامة لمشروعه، روى الطبري عن أبي مخنف: «إنّ الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: **أيّها الناس إنّ رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **قال: من رأى سلطانا جائراً مستحلاً لحُرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسُنّة رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يُدخله مدخله، ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيّر**»[١].

هذا النص المعروف هو من أشهر نصوص النهضة الحسينية التي تشرح فلسفة هذه النهضة وتبيّن الأسباب الموجبة لها، كما أنّه يضيء على طريقة مواجهة

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٤.

الانحراف ومعالجته، وإننا ندعو إلى تركيز النظر على الفقرة الأخيرة من هذا النص، عنيت بذلك قوله عليه السلام: «**وأنا أحقّ من غيّر**».

وأخال أنّه لم يتم إيلاء هذا المقطع من النصّ حقّه من التحليل والتدبر، فهو نص يتحدث عن حركة تغييريّة، «**وأنا أحقّ من غيّر**»، فهل إنّ التغيير هو مهمّة تصحيحيّة للواقع الفاسد الذي وصلت إليه الأمة، أم أنّه شيء آخر؟ هذا ما سنعرف الإجابة عنه لاحقاً.

ولكن علينا أن نلفت النظر إلى أنّ الذي يحدد مسار الثورة وطبيعة الحركة وهل تكون حركة تغييرية أو تصحيحيّة، سلميّة أو غير سلميّة، إنما هو حجم الانحراف والفساد المستشري في جسم الأمة، تماما كما أنّ طريقة المواجهة والمعالجة لأي ظاهرة مرضيّة على مستوى جسم الإنسان تكون تابعة لتشخيص المرض وتحديد نوعيّته ومدى انتشاره، فالمرض يعبّر عن حالة اعتلال أو فساد في أعضاء الجسد وهو في بعض مستوياته البسيطة قد يكتفى في معالجته باستخدام بعض المضادات الحيوية لكنه في حال انتشاره في الجسد وتمكنه منه قد يحتاج إلى عمل جراحي استئصالي. هذا في مرض الجسد وفساد العضو، وكذلك الحال في الفساد الاجتماعي الذي ينتشر في جسم المجتمع، فإنّ هذا الفساد له مستويات ولكل واحد من هذه المستويات طريقة مواجهة ملائمة.

المحور الثاني
الإصلاح ضوابطه وشروطه

ومع اتضاح مخاطر الفساد وأبعاده وأنحائه وأجهزته التي يتوكأ عليها يصل الحديث إلى الطرف المقابل أعني إلى جبهة الإصلاح، فكيف تكون هذه العملية وما هي أركانها ومن الذي يقودها؟

١ـ من هو المؤهّل لقيادة عملية الإصلاح؟

ولعلّ أول ما يواجهنا على هذا الصعيد هو التساؤل التالي: من هو المؤهل لقيادة الحراك الإصلاحي؟

أعتقد أنّ المؤهل لقيادة العمليّة الإصلاحية هو من يتحلّى بالمواصفات التالية:

أولاً: إنّ المصلح الناجح يحتاج إلى رؤية واضحة المعالم، ومنهج أصيل يسير على ضوئه، بالإضافة إلى خطة عملية يسير عليها في خطوات واعية متدرجة، فالشخص الذي يحمل رؤية واضحة حول الإصلاح وخريطة طريق يسير في ضوئها هو القادر على نشر الصلاح والهدى وتحويله إلى مشروع، وهو القادر على التغيير والتأثير، ولن يتسنّى للمصلح أن ينشر الصلاح إلاّ بعد أن يقوم بعمليّة رصد لكلّ جوانب الفساد في جسم الأمة والتي تهدّدها بالانهيار والسقوط الحضاري، أو تفقدها مناعتها الروحيّة والأخلاقيّة، وبعد عمليّة الرصد هذه فإنّه يعمل على إعداد خطة إصلاحية هادفة.

ثانياً: أن يملك المرء الذي يروم الإصلاح عدةً فكرية وذخيرة أخلاقية تؤهله

لقيادة عملية الإصلاح، وأن يكون إنساناً رسالياً وليس مزاجياً، فالمزاجيون ليسوا مؤهلين لقيادة عملية الإصلاح. إنّ على المصلح أن يعيش همَّ الرسالة وينصهر فيها بكل كيانه الروحي والفكري والحركي.

ثالثاً: إن المصلح الحقيقي لا يتحرّك بعشوائية أو بطريقة انفعالية، ولا يكتفي بإطلاق الشعارات في الهواء الطلق لمجرد الإثارة، كما أنّه لا يمارس النقد لمجرد النقد، ولا ينقد ليهدم وكفى، فهذا قد يكون ضرره أكثر من نفعه، وإنما عليه ـ إن كان يروم الإصلاح حقاً ـ أن ينقد في سياق عملية البناء والترميم، وهذا ما يحتّم عليه أن يسعى باستمرار لتقديم البدائل، فعندما تنقد واقع المنبر الحسيني ـ مثلاً ـ فإنّ السؤال الملح الذي يواجهك أين بديلكم عن المنبر التقليدي؟! ولا سيما أنّ لهذا المنبر ـ رغم سلبياته ـ الكثير من الإيجابيات، فعمليّة النقد إن لم تترافق مع تقديم بديل معقول قد تسهم في إبعاد الكثيرين عن القضية الحسينيّة نفسها، ومن الجيّد والضروري أن نعترف أنّ دعاة إصلاح المنبر الحسيني ـ مثلاً ـ لم يعملوا بما فيه الكفاية لتقديم البدائل الناجعة وإقناع الناس بها. وهكذا عندما ترفض عملاً اعتاده الناس فربما يجدر بك أن تقدّم لهم بديلاً مقدمة لإخراجهم مما هم فيه، لأنّ من اعتاد شيئاً يصعب عليه تركه إن لم تقنعه بالبديل، ولذلك فإنّ الدعوة إلى التبرع بالدم مثلاً كبديل عن التطبير هي دعوة ينبغي لرافضي التطبير ـ وأنا منهم ـ أن يتبنوها ويروجوا لها ويشجعوا عليها.

رابعاً: إنّ حركة الإصلاح لا تبتعد عن الحكمة في الطرح والمواجهة، فالمصلح الذي يبتعد عن الحكمة ولا يتسلّح بالبصيرة ولا يمتلك العدّة المعرفيّة الكافية سيبقى مجرد ظاهرة صوتية يصرخ ويرتجل وينفعل ويقول كل ما يدور في ذهنه من أفكار فيما يتّصل بهوامش الأمور وتفاصيلها، وشخص كهذا قد يكون من الظلم إدراجه في عداد المصلحين. إنّ الإنسان الحكيم يخطط جيداً ولا يكتفي برصد صدى مقولاته بعد إطلاقها، بل يتدبر مسبقاً في وقعها على الأمة ومدى

تأثيرها سلباً أو إيجاباً على حركته الإصلاحية، وبالأحرى أن لا يدخل المصلح في معارك هامشية حول بعض سفاسف الأمور، أو القضايا غير المهمّة والتي يعيقه الدخول فيها عن السير في مشروعه الإصلاحي.

ومن هنا فإنّ ما كان يسميه بعض الأعلام وهو السيد فضل الله رحمه الله بأسلوب الصدمة في عمليّة الإصلاح لا يعني إطلاقاً ـ كما قد يخيّل للبعض ـ تناول قضايا الفكر والفقه والعقيدة والشعائر والطقوس ذات التجذر الاجتماعي باستخفاف أو استهزاء أو بطريقة سطحيّة مرتجلة بعيدة كل البعد عن التأصيل الفكري والفقهي.

خامساً: إنّ الذي يقود عملية الإصلاح لا يمكن أن يعتمد منهجاً مستورداً من خارج البيئة الفكرية والحضارية للمجتمع والأمة التي ينتمي إليها، فضلاً عن أن يكون هو نفسه آتياً على ظهر دبابات المستكبرين والظالمين، وإنما الذي يقود العملية الإصلاحية أشخاص مخلصون من نسيج تلك البيئة، عاشوا هموم الأمة وآلامها، فهؤلاء سيكون لهم مشروعية في دعواتهم الإصلاحية، وهؤلاء وبسبب قربهم من المجتمع وتماسهم مع همومه وقضاياه سيدركون أكثر من غيرهم كوامن الخلل ونقاط الضعف والقوة فيه، بما يمكنهم من العمل الجاد وبكل إخلاص لأجل التغيير المنشود..

سادساً: من الطبيعي أن لا نغفل ونحن نتحدث عن ضوابط عملية الإصلاح وشروط نجاحها عن بيان أمر هام يمثّل شرطاً لا بدّ من توافره في شخصية المصلح، ليتسنى له النجاح في مهمته الإصلاحية وهو أن يكون صالحاً في نفسه، لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه. لهذا لا يمكن أن يقود عملية الإصلاح لا الفاسدون ولا الفاسقون ولا المترفون ولا المنظرون من الأعالي وأولئك الذين يعيشون في البروج العاجية أو يسكنون « فنادق (خمسة نجوم)». وطبيعي جداً أنّ الإصلاح لا يأتي بمرسوم سلطاني أو ملكي. صحيح أنّه ليس كل صالح يكون مصلحاً

ولكن لا يمكن أن تكون مصلحاً إن لم تكن صالحاً مؤمناً.

إذن، أن تكون صالحاً في نفسك مخلصاً لأمتك مؤمناً بقضيتك هو الشرط الأساس لنجاح عملية الإصلاح، أجل، علينا أن نعلم ونعي جيداً أنه لا يتسنى لكل صالح أن يكون مصلحاً، لأنّ المصلح هو شخص صاحب مشروع رسالي، بينما الصالح هو إنسان خيّر متدين وهو قد يكون عنصر خير وبركة لمن حوله، ولكن مع ذلك فهو لا يمتلك القدرة على النهوض والقيام بأعباء عمل إصلاحي نهضوي تغييري.. إنّه لا يمتلك القدرة على أن يحوّل صلاحه إلى مشروع يجتذب الآخرين ويشدّهم إليه، بخلاف المصلح فإنّه قادر على فعل ذلك، بل ربما تحوّل بعض الصالحين كما سيأتي إلى عقبة أمام المشروع.

سابعاً: آسف للقول: إنّ تاريخ الحركة الإصلاحية يشير إلى أنّ الإصلاح بمعناه الشامل لم تقده المرجعية الدينية التقليدية أيضاً إلا في حالات نادرة جداً واستثنائية، وربما يعود السبب في ذلك إلى أنّ هذه المرجعية لم تجد ولم تر وظيفتها الأساس في قيادة عملية الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي، وإنما وجدت أولويتها في حفظ الدين ولا سيما فيما يتّصل باستنباط الحكم الشرعي وبيان الفتوى للمكلفين، ولهذا رأينا أن الذين قادوا عملية الإصلاح هم الفقهاء والعلماء الحركيون الرساليون المتفاعلون مع العصر والذين يعيشون وسط الميدان، ويعملون بكل صدق وإخلاص على بثّ روح الوعي والأمل في الأمة ونشر الثقافة النقدية بين أبنائها، ولسنا نعوّل اليوم إلا على هؤلاء في رفع مستوى الوعي في الأمة وبناء جيل حركي مثقف يقود عملية التغيير ويفرض احترامه على الجميع، ويسعى جاهداً لتثقيف القاعدة الجماهيريّة العريضة في الأمة والتي يعوّل عليها في بناء المجتمع الصالح واحتضان المشروع الرسالي.

٢ـ ضوابط العمليّة الإصلاحيّة

والعملية الإصلاحيّة التي يرجى أن يكتب لها النجاح لا بد أن تراعي جملة من الضوابط:

أولاً: تحكيم العقل كقاعدة أساسية للفكر والسلوك، وكركيزة صلبة للإيمان والتطور والإبداع، لقد أعاد الإسلام إلى العقل مكانته، وأزال كل العوائق التي تعيق حركة العقل، فحرّم الشعوذة والسحر والكهانة، وقد قالها رسول الله ﷺ عندما سمع الناس يقولون كسفت الشمس حزناً على إبراهيم: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الشَّمْسَ والْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّه يَجْرِيَانِ بِأَمْرِه مُطِيعَانِ لَه لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ ولَا لِحَيَاتِه..**»[1]، لقد وعى أسلافنا قيمة العقل وقرأوا النص بالعقل فتقدموا، ولكنّ بعض الخلف جمّدوا العقل وحاصروه بالنص فتخلفوا، هلا تأملنا كمْ مرة وردت كلمة «العقل» و«الفكر» و«اللب» و «الحجر» ومشتقاتها في القرآن الكريم؟

نعم لقد رفع المسلمون الأوائل العلم إلى مستوى الفريضة وكان النبي ﷺ يفكّ الأسير من المشركين لمجرد أن يُعلّم الواحد منهم عشرة من المسلمين، أمّا الآن فنحن أجهل الأمم، نحن أمة اقرأ ولا نقرأ. تصوروا أنّ الإحصاءات للعام (٢٠١٣م) أنّ ٨٠٪ من طلاب «البروفيه» (الشهادة المتوسطة) في لبنان رسبوا في اللغة العربية!

إنّ يقظتنا وتقدمنا هي رهن أن نحرر العقل من القيود والمكبلات الكثيرة، فإننا مع الأسف أمة تقدس العقل وتفاخر بذلك وتجلّه وتكنُّ له كل تقدير واحترام ولكننا نتركه في الأعالي، ولا نعطيه دوراً كبيراً في محاكمة تراثنا ولا نسمح له بالنزول إلى الخطوط التشريعيّة العامة والتفصيليّة بحجة أنّ دين الله لا يُصاب

---

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٠٨، و٤٦٣، ومن لا يحضره الفقيه ج ١ ص ٥٤٠، وتهذيب الأحكام ج ٣ ص ١٥٤، وصحيح البخاري ج ٢ ص ٢٤، وصحيح مسلم ج ٣ ص ٢٨، وغيرها من المصادر.

بالعقول، مع أنّ الوارد في الحديث: «**إنّ دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة والآراء الباطلة والمقاييس الفاسدة**»[1]، أي إنّ الطريق المرفوض في معرفة الدين هو الطريق الظني المعتمد على المقاييس الفاسدة والآراء الباطلة. إنّ تحرير العقل من العادات والتقاليد والآصار المكبلة له شرط أساسي للنهوض.

ثانياً: أن نعمل على تفعيل الثقافة النقدية، ثقافة الاختلاف، والرأي والرأي الآخر، ثقافة ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[سبأ: ٢٤]، لقد قالها رسول الله ﷺ ـ بحسب ما روي عنه ـ وهو المعصوم: «**أشيروا عليّ أيها الناس**»، ليعلمنا منهجاً في التفكير وهو التفكر النقدي، لننقد الحاكم عندما يخطئ، فالحاكم ليس ظل الله على الأرض، هو إنسان ووكيل عن الناس وإذا أخطأ فعلى الأمة أن تقوّمه، لقد كانت المرأة المسلمة ـ التي لا يزال البعض يناقش في حقها في قيادة السيارة أو السفر بدون محرم ـ تخرج لتقطع المسافات الطويلة لتحاجج الحاكم، فهذه سويدة الهمدانية تخرج من الكوفة إلى الشام وتقف أمام معاوية وتشكو ظلامتها بكل جرأة وصلابة[2].

ثالثاً: السعي في أن نبني علاقاتنا الاجتماعية والإنسانية على أساسٍ متين وجامع يوحد ولا يفرق، أساسٍ يصهر في داخله كل التنوعات الإنسانية، وهذا الأساس الجامع هو ـ وفقاً لرؤيةٍ فقهية وازنة ـ مبدأ الأخوة الإنسانية، والذي يترجم عملياً بأنّ الناس كلهم أخوة وأنّ المواطنية تجمعهم تحت سقف واحد، مع غض النظر عن ألوانهم ومذاهبهم وأديانهم. إنّ البعض يطرح مصطلح «الشراكة» وهو متداول في قاموس السياسيين في بعض البلدان، لكنّ الإسلام يطرح مصطلح الأخوة، أخوة في الدين أو أخوة في الإنسانية، الأخوة ليست شعاراً أو شعراً أو تعويذة هي منظومة من الحقوق والواجبات فالإنسان أخو الإنسان فعليه أن لا

(١) كمال الدين وتمام النعمة، ص ٣٢٤.

(٢) بحثنا هذا الأمر في كتاب: «المرأة في النص الديني» فليراجع.

يخذله ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يغتابه، وقد تسامى علي عليه السلام في هذا المجال إلى حد أنه كان يقول لأعدائه وخصومه بأنهم أخوانه، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: أنَّ علياً عليه السلام لم يكن ينسب أحداً من أهل حربه إلى الشِرك لا إلى النِفاق ولكنه كان يقول: «**هم إخواننا بغوا علينا**»[1].

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: كان يقول لأهل حربه: «**إنا لم نقاتلهم على التكفير لهم ولم نقاتلهم على التكفير لنا، ولكنا رأينا أنّا على حقّ، ورأوا أنّهم على حق**»[2].

ماذا يعني ذلك؟ إنّه يعني:

١ـ إنّ علينا أن ندير اختلافاتنا وتنوعاتنا بالحوار لا بالسيف.

٢ـ إنّ التكفير لا يواجه بتكفير مضاد، بل بمنهج فكري يفكك البنى التحتية للتكفير ويعرّيه شرعياً.

ولا يعني هذا أبداً أن لا تدافع عن نفسك عندما يهجم عليك إنسان تكفيري يريد القضاء عليك وعلى كيانك، ولكنّ الدفاع ليس حلاً مثالياً للمعضلة، وإنما الحل في اعتماد منهج تربوي يحلُّ محل المناهج الإقصائية التكفيرية التي تُخرّج أجيالاً من الشباب المتشددين في عالمنا العربي والإسلامي.

وهذا هو منطق الحسين عليه السلام وهذه رسالته، فهو رفض أن يكفر حتى الذين حاربوه وقاتلوه، ولهذا لما دخلت زينب عليها السلام على يزيد وتطاول بعض رواد مجلسه طالباً منه أن يعطيه بنتاً من بنات الحسين عليه السلام كأمة له، وقفت شبلة علي عليه السلام لتقول له: **كلا، هذه لا تكون لك ولا لأميرك**، قال يزيد: لو شئت لفعلت، فأجابته زينب: «**إلاّ أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا**»[3].

---

(١) قرب الإسناد ص٩٤.

(٢) قرب الإسناد ص٩٣.

(٣) الإرشاد للمفيد ج٢ ص١٢١، تاريخ الطبري ج٤ ص٣٥٣.

٣ـ الإصلاح كلفته وشروطه

إنّ الإصلاح عمل شاق وطريق مليء بالمصاعب فهو يحتاج إلى صبر وأناة وإلى نفس طويل وقدرة على التحمل، ولذا لا ينوء به إلا قليل من الناس، فليس كل صالح مؤهلاً للإصلاح. وقد قلنا إنّ الإنسان الذي يريد أن يعيش صالحاً في حياته فهذا لا يكلفه معاناة كبيرة ولا يعرّضه للمخاطر، أمّا لو كانت غايته الإصلاح، فعليه أن يجهِّز نفسه للتضحية وأن يكون لديه استعداد للمواجهة والمعاناة، لأنّ المفسدين والظالمين لن يتركوه وشأنه، وعليه أن يوطن نفسه على المواجهة وعلى تحمل الأذى والاضطهاد والسجن والشتم والتكذيب، وأن يكون قريباً من الله تعالى متوكلاً عليه في كل حال ومستمداً منه العون والمدد، كما قال نبي الله شعيب بعد أن صمم على بدء عملية الإصلاح: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾[هود: ٨٨].

إنّ الإصلاح ـ كما تؤكد الآية الشريفة ـ هو مهمّة الأنبياء عليهم السلام، وتلك مهمّة المتاعب والتحديات، والسر في ذلك هو أنّ المشروع الإصلاحي في غالب الأحيان لا يتلاءم مع مصالح الفاسدين والظالمين، فمشكلة المصلح ووزره بنظر هؤلاء ليس بسبب صلاحه الشخصي، وإنما بسبب أنه يريد أن ينشر الصلاح في المجتمع، إنّ الصالح لا يشكّل خطراً على الظالمين وعلى رعاة نظام الفساد في المجتمع، ولذا لا نجد هؤلاء يضعون مواجهة الصالح على رأس أولوياتهم ولا في اهتماماتهم، ولا يرونه هدفاً لهم، وهذا بخلاف المصلح الذي يبدأ بعملية التغيير ويسعى إلى تعميم الصلاح ونشره، إن منطق هؤلاء يقول: كنْ صالحاً زاهداً كما تشاء وتحب، ولكنْ حذار أن تكون مصلحاً، وهذا تاريخ الأنبياء عليهم السلام خير شاهد ودليل على ما نقول، فعندما كانوا صالحين عابدين لله تعالى ولا يتدخلون بشؤون المجتمع ولم يؤمروا بالدعوة الإصلاحية العامة لم يكونوا مستفزّين

لأحد ولم يكن لهم أعداء، بل كان معظم الناس يحبونهم ويقدرونهم، وربما تبركوا بهم. انظر ـ على سبيل المثال ـ إلى صالح النبي عليه السلام، فقد كان قبل البدء بدعوته الإصلاحية «مرجواً» عند قومه محبوباً ومقدراً، أمّا عندما بدأ ينبّههم إلى أخطائهم في الفكر والعقيدة داعياً لهم إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك الشرك به، غدا عندها موضع الريبة والشك، ثم كذبوه وحاربوه وعقروا الناقة بظلمهم وبغيهم، قال تعالى: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إليه إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إليه مُرِيبٍ**﴾[هود: ٦١ ـ ٦٢].

وهذا نبينا الخاتم محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم كان ـ بنظر قريش ـ الصادق الأمين، يأتمنونه على أموالهم وأنفسهم، ويصدّقونه في كل ما يقول، كل ذلك عندما كان شخصاً صالحاً تقياً يتعبد في غار حراء ولا يتدخل في نظام حياتهم الاجتماعي والاقتصادي والفكري، وهو نظام قائم على الظلم والقهر واستعباد الإنسان، واستغلال كل المقدسات في سبيل الربح المادي، وأما عندما تحوّل صلى الله عليه وآله وسلم إلى مصلح وحمل راية الإصلاح، وأخذ يصدع[1] بما أمره الله تعالى من دعوة التوحيد رافضاً كل مظاهر الشرك بالله أو اضطهاد عيال الله، عندها أصبح «كذاباً» و«كاهناً» و«مجنوناً» و«ساحراً»، و«شاعراً»، قال تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ**﴾[الصافات: ٣٦]، وقال عزّ وجل: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ**﴾[الحاقة: ٤٠ ـ ٤٢]. وقال سبحانه: ﴿**وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾[ص: ٤].

(١) قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[الحجر: ٩٤ ـ ٩٥].

والأمر عينه جرى مع الكثير من العلماء والمفكرين والفقهاء، فقد كانوا محبوبين ومقدرين من الجميع وينالون احترام كافة الشرائح الاجتماعية والسياسية والدينية، ولكن ما أن حمل بعضهم راية التغيير وبدأوا بقيادة العمل الإصلاحي على الصعيد السياسي والاجتماعي حتى توجهت إليهم الحراب والسِّهام من أجهزة النظام الفاسد، فحُبس من حُبس، واضطُهد من اضطُهد، وقُتل من قُتل، وهكذا سقط منهم عشرات الشهداء برصاص البغي والظلم، وعندما بدأ بعضهم بقيادة العمل الإصلاحي على الصعيد الديني وقف في وجههم المتخلفون والمتضررون من الإصلاح الديني ومن يسمون أنفسهم بحراس العقيدة، وأطلقوا عليهم سهام التضليل والتبديع وما إلى ذلك من اتهامات حاولت النيل منهم وقتلهم معنوياً.

وفي سياق هذه المعركة الإصلاحية لا بدّ لأي مصلح أن يسعى جاهداً ليجنّد معه الناس الذين يؤمنون بمشروعه، ومن الطبيعي أن يكون الصالحون هم الطليعة في قيادة المشروع، لكن ليس كل صالح مستعداً أو لديه قابلية الانخراط في المشروع الإصلاحي، بل إنّ الصلحاء الذين لا يملكون بصيرة ربما شكلوا حجر عثرة أمام المشروع وكان ضررهم أكبر من ضرر الفاسدين أنفسهم، لأنّهم ـ أعني بعض الصالحين ـ قد يعتبرون أنّ الحركة الإصلاحية هي مجازفة غير مضمونة النتائج، وهي تعرّض مصالحهم للخطر، أو أنّها عمل انتحاري وإلقاء للنفس في التهلكة، ألم يشكّل أصحاب الجباه المتورمة من كثرة السجود عائقاً أمام مشروع علي عليه السلام حتى قال فيهم كلمته الشهيرة: «**ما قصم ظهري إلاّ رجلان عالم متهتّك وجاهل متنسّك**»[1]؟! ألم ينصحْ بعض الصلحاء الإمام الحسين عليه السلام بعدم الذهاب إلى العراق؟! لقد حصل ذاك وهذا، ليس عن سوء نية، وإنّما عن حسن نية، إنّ الصلحاء الذين لا يمتلكون رؤية شاملة وليس لديهم بصيرة نافذة

(١) عيون الحكم والمواعظ ص ٤٧٩.

أو ثاقبة قد يعيقون المشروع الإصلاحي.

أجل، لا بدّ للمصلح أن يكون يقظاً وفطناً فلا ينحرف عن البوصلة الأساسية، وهي دكّ نظام الفساد ومواجهة رموزه، ليستنزف جهده ووقته في مواجهة هؤلاء الصالحين الجهلة، فهذا فخٌّ يقع فيه الكثيرون، وربما يُستدرجون إليه، حيث يعمل المفسدون بطرقهم ووسائلهم المختلفة على توجيه وإثارة هؤلاء البسطاء في وجه المصلحين والمجددين، إنّ معركة المصلح الأساسية ليست مع الأشخاص الفاسدين وإن كانوا يدخلون في مشروعه الإصلاحي، فضلاً عن أن تكون مع هؤلاء الصلحاء السذج، إنّ معركته الأساس هي مع المفسدين من رؤوس النظام الفاسد ورعاته، الذين أسسوا نظام الفساد ويعملون على حمايته، فعليه أن يعرّي هؤلاء ويفضح زيفهم ويستهدف بنيانهم الفاسد، إنّ على المصلح أن يسعى لدكِّ تلك الأسس والحصون ولا يستهلك وقته ويفني عمره في التفاصيل والجزئيات إلا بمقدار ما تتصل بالمشروع العام.

٤ـ مقارنة بين الحسين عليه السلام ويزيد

وفي ضوء ما تقدم نعرف الفارق الشاسع بين شخصية الحسين وشخصية يزيد، فهو ليس فارقاً بين رجل صالح وآخر فاسد، بل هو فارق بين المصلح والمفسد، أو قل بين رجل صالح ومصلح وآخر فاسد ومفسد، فإنّ يزيداً لم يكن مجرد إنسان فاسد بل كان مفسداً أيضاً، فهو قد عمل على نشر الفساد في الأرض، وكان مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ**﴾[البقرة: ٢٠٥]، إنّ يزيد وكل تلك الجماعة الانقلابية التي وصلت إلى السلطة بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام قد عملوا على تغيير القيم وتزوير المفاهيم الأصلية وحاربوا الدين باسم الدين.

ودعونا نرجع إلى كلمة الإمام الحسين عليه السلام في توصيف هذه الجماعة التي

ثار عليه السلام في وجهها يقول عليه السلام: «**ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمان وأظهروا الفساد..**»، فهؤلاء قد كانوا أشخاصاً فاسدين دون أدنى شك، ويزيدٌ رجلٌ فاسدٌ بلا ريب، وهذا لا يختلف فيه اثنان، وقد وصفه الإمام الحسين عليه السلام في كلمة أخرى قائلاً: «**ويزيد رجل فاسق فاجر قاتل للنفس المحترمة**». لكنّهم بالإضافة إلى ذلك كانوا مفسدين في الأرض، وتلك هي خطورتهم وخطورة قائدهم يزيد، فقد كان رجلاً مفسداً، فهو فاسد في نفسه ومفسد لغيره، وعبارة «**وأظهروا الفساد**» تشير إلى دورهم الإفسادي هذا، فأنت قد ترتكب المعصية وتمارس الانحراف فيما بينك وبين نفسك، فتكون فاسداً، وأمّا أن تظهر الفساد وتعلنه دون خجل أو وجل، فأنت لم تعد حينها مجرد فاسد، بل إنّ مجاهرتك بذلك ستدرجك في سلك المفسدين، لأنّك من حيث تشعر أو لا تشعر تشجّع الآخرين على الفساد وارتكاب المحرمات وترويج الفساد.

في المقابل، فإنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكنْ مجرد رجل صالح، ولو كان كذلك لجلس في بيته وعبد الله كما يطيب له دون أن يزعجه أحد، بل كانوا ـ دون شك ـ سيوقّرونه ويتبرّكون به. إنّ الإمام الحسين عليه السلام كان صاحب رسالة وصاحب مشروع، الحسين عليه السلام مصلح «**إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي محمد** صلى الله عليه وآله وسلم **أريد أن آمر بالمعروف**»[1]، المصلح هو الذي يريد للصلاح أن ينتشر ويعم، فالحسين عليه السلام صالح في نفسه ومصلح لغيره، على غرار ما يقال في بعض أنواع الماء أنّه « طاهر في نفسه ومطهر لغيره».

لقد سعى الحسين عليه السلام جاهداً إلى الإصلاح في زمنٍ عزَّ فيه المصلحون وقلّ فيه الناطقون بالحق، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، لقد حمل عليه السلام راية الإصلاح وصدع بالحق مواجهاً السلطة في الزمن الصعب، حيث عمّ

(١) الفتوح لابن أعثم الكوفي ج٥ ص٢١.

فيه الفساد وانتشر البغي والظلم، وسادت الرشا واشتريت الضمائر ووهنت الهمم والعزائم، وهنا التحدي الكبير، وهنا يُختبر المؤمنون الصادقون، ومع الأسف فقد سقط معظم المسلمين في الامتحان، وتركوا إمامهم[1] سيد شباب أهل الجنة وحيداً فريداً، تخاذل عنهم الكثيرون وتخلوا عن مشروعه، لأنّه مشروع مكلف ويتطلب بذل الغالي والرخيص، لكنّ الحسين عليه السلام صمد وصبر، لأنه من نوع المصلحين الربانيين الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا تخدعه كثرة الناس من حوله، ولا تحطّ من عزمه قلّتهم، لذلك قرّر خوض معركة الإصلاح بهذه الثلة القليلة من أهل بيته وأصحابه فرفض مبايعة يزيد أو الإقرار بشرعية حكمه وحمل راية الإصلاح والاحتجاج التي كلّفته غالياً فقدّم نفسه وروحه وأولاده وأصحابه ضحايا على مذبح الحرية وفي سبيل الإصلاح في أمة جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الحسن والحسين إمامان قاما أم قعدا**»، علل الشرائع ج١ ص٢١١.

المحور الثالث
مدخل الإصلاح: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ولا نستطيع أن نغادر الحديث عن الإصلاح ودور الإمام الحسين عليه السلام في قيادة عمليّة الإصلاح ومواجهة الفساد والمفسدين قبل أن نشير إلى واحدة من أبرز الوسائل الشرعيّة في عمليّة الإصلاح ومواجهة الفساد، عنيت بذلك وسيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو عنوان رفعه الإمام الحسين عليه السلام مبرّراً به ثورته ونهوضه، حيث قال عليه السلام: «**إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي..**»[1].

وإذا أردنا إعطاء هذا العنوان حقه فيجدر بنا الحديث في النقاط التالية:

١ـ المنكر وأنواعه

يجدر بنا في بادئ الأمر أن نشير إلى أنّ للمنكر أنواعاً عديدة:

١ـ فهناك المنكر الأخلاقي والمتمثّل بكلّ أشكال الرذيلة التي يراد نشرها في المجتمعات بما يفقدها المناعة الأخلاقية.

٢ـ وهناك المنكر الاقتصادي المتمثل بكل التجارات القائمة على أساس الظلم والمراباة والمقامرة..

(١) مناقب آل أبي طالب ج٣ ص٢٤١، الفتوح لابن أعثم الكوفي ج٥ ص٢١، وبحار الأنوار ج٤٤ ص٣٢٩.

٣ـ وهناك المنكر الإعلامي الذي يضلل الرأي العام أو يروج للباطل أو للضعف والاستسلام أو ينشر الرذائل ويدعو للإباحية..

٤ـ وهناك المنكر الاجتماعي المتمثل بكل الأفكار والممارسات الهدامة التي تساهم في تفكيك الأسر وبث التفرقة والأحقاد بين أبناء المجتمع الواحد.

٥ـ وهناك المنكر السياسي والعسكري المتمثل بالاحتلال والعدوان أو الاستبداد والطغيان، ما يؤدّي إلى إذلال الإنسان وقهره وسحق إرادته.

٦ـ وهناك المنكر الفكري المتمثل بالمفاهيم المزورة التي تلوّث العقل وتكبله وتعيقه عن الإبداع والتحرر.

وبسبب تعدّد أنواع المنكر وتشابكها فإنّ المواجهة تكون صعبة وتحتاج إلى حملة طوارئ مستمرة للوقوف في وجهها، ولا بدّ أن تتظافر الجهود على هذا الصعيد وتنتظم في مؤسسات متخصصة، لنستطيع مواجهة الباطل بوعي وتخطيط وحكمة، لا بانفعال أو ارتجال، فالباطل يواجهنا ويحاصرنا من كل جانب بوسائل متعددة وطرق شتى، فهو يمتلك الإمكانات ويحسن توظيفها في نشر أفكاره، فإن لم نتقن إدارة المواجهة فلن نربح المعركة.

٢ـ إدمان المنكر وانقلاب الموازين

ومن طبيعة المنكر وخصائصه أنّه إذا ارتُكِبَ مرةً تلو الأخرى دون ردع أو اعتراض، وجاهر به البعض دون أن يلقى صدوداً، فإنّ ذلك سيكسر الحاجز النفسي تجاهه، ليغدو مع الوقت أمراً مألوفاً ومعاشاً، حتى لو كنّا لا نزال نراه منكراً، ولكن إذا استمر السكوت على المنكر والتقاعس في مواجهته، فقد تتطور الأمور ونصل إلى مرحلة أشدّ خطورة، وهي مرحلة سقوط الغرابة والاستهجان عن المنكر، وبعبارة أخرى: لا يعود المنكر أمراً مألوفاً فحسب، بل

لا يعود منكراً أصلاً، فتنقلب الموازين ويتحول المنكر إلى معروف والمعروف إلى منكر، وهذا ما نبّه عليه الحديث النبوي الشريف، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟! فقال: نعم وشر من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ فقيل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟! قال: نعم وشر من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً**»(١).

مثال من الواقع

كان عامة البشر يرفضون حالة الشذوذ الجنسي ويرونها عملاً منكراً، وإذا مارسها البعض فهو يمارسها سراً كونه يقوم بعمل قبيح، ويدان ويعاقب على فعله، ثم تساهل الناس إزاء هذا العمل وغضّت بعض الدول النظر عن مواجهته وإدانته، بحجة حماية الحرية الشخصية للأفراد، وشيئاً فشيئاً جاهر الشاذون جنسياً بأفعالهم وأصبحت لهم نوادٍ يمارسون فيها ذلك العمل دون حساب أو رقيب، ثم تطوّر الأمر خطوة أخرى بفعل التراخي في مواجهة هذا العمل ونشوء جمعيات تنادي بحقوق الشاذين جنسياً، حتى وصل الأمر إلى نزع اسم الشذوذ عنه، فسمي هؤلاء بالمثليين، لأنّ تعبير «الشذوذ» فيه إهانة لكرامتهم واعتداء معنوي عليهم... وهكذا وصل الأمر إلى أن أصبح المنكر معروفاً، وغدت الأصوات الرافضة لهذا العمل هي الشاذة، وسُنَّتِ القوانين ـ في الغرب ـ التي تسمح بالارتباط «الشرعي» بين المثليين، وسَرَتِ العدوى إلى مجتمعاتنا وصرنا نشهد حالاتٍ من التجاهر بالشذوذ ونسمع أصوات تدعو إلى الاعتراف به وتناقش في حرمته شرعاً!(٢).

(١) الكافي ج ٥ ص ٥٩، وتهذيب الأحكام ج ٦ ص ١٧٧.

(٢) تحدثنا عن هذا الموضوع بإسهاب في كتاب «مع الشباب في همومهم وتطلعاتهم» ص ٢٤٣ وما بعدها.

٣ـ القرآن والنهي عن المنكر

ومع اتضاح مخاطر المنكر نأتي إلى الموقف القرآني في المسألة، فقد نصّ القرآن الكريم على ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في العديد من الآيات القرآنية، ونكتفي بذكر آيتين:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[آل عمران: ١١٠].

وهذه الآية تشير إلى أنّ خيريّة الأمة الإسلاميّة ليست أمراً اعتباطياً ولا عبثيّاً وإنّما هي منطلقة من أمرين أساسيين:

١ـ أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، وهذا يبيّن ويدلّل على محورية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في خيريّة الأمة وأفضليّتها وتمايزها على غيرها من الأمم.

٢ـ إيمانها بالله، ومع افتراض أنّ المخاطبين في الآية المباركة هم المسلمون ﴿**كنتم**﴾ فكيف نفهم دعوتهم للإيمان بالله كشرط للخيرية؟

الظاهر أنّ المقصود بالإيمان بالله هنا هو الإيمان العملي الذي يتجسد في سلوك الإنسان وحياته لا مجرد الإيمان الشكلي واللفظي والذي لا يغيّر في حياة الإنسان شيئاً، وهذا هو المراد بالإيمان الذي طلبه الله من الذين آمنوا في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ**﴾[النساء: ١٣٦].

وإذا كانت خيرية الأمة مرتكزة على العنصرين المذكورين، فإنّها قد تنتزع من هذه الأمة إذا تقاعست عن الأخذ بهذين العمودين، كما هو حال الأمة منذ قرون طويلة.

الآية الثانية: هي قوله عز وجل: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾[آل عمران: ١٠٤].

وهذه الآية تدعو إلى ضرورة انطلاق جماعة من أبناء الأمة للقيام بعمل الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوجه في ذلك هو أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى معرفة المنكر والمعروف ومعرفة شروطهما وضوابطهما، وهذه المعرفة لا يتسنّى لكلّ أفراد الأمة النهوض بها، لأنّها تحتاج إلى درس تخصصي، فكان لا بدّ أن يتفرغ لهذه المهمّة طائفة من أفراد الأمة للقيام بذلك، دون أن يعني ذلك أنّ مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي مسؤولية طبقة كهنوتية معينة، بل هي مسؤولية عامة يقوم بها كل عارف ومتمكن، عارف بالمعروف والمنكر، ومتمكن من الأمر بالأوّل والنهي عن الثاني.

ولهذا فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ في المنظور القرآني ـ ليسا حكراً على الرجل، وإنّما هما مسؤولية الرجل والمرأة معاً، قال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [التوبة: ٧١].

٤ـ النهي عن المنكر وبقاء الإسلام

وفي ضوء ما تقدّم من عناية القرآن الكريم بمسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتّضح أنّنا أمام فريضة إسلامية هامة، وتكمن أهميتها في أنّها تساهم في محاصرة الانحراف ونشر الخير، وتمهّد لبقاء الشريعة الإسلامية واستمراريتها حيّة وفاعلة في وجه كلّ محاولات التشويه والتضليل أو الخروج عليها، ولا نبالغ بالقول: إنّ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي الضامن لإقامة سائر الفرائض الإسلامية، إذ كيف ستبقى فريضة الصلاة وتستمرّ إقامتها إن لم

نأمر بها باعتبارها رمز المعروف؟ وكيف نحاصر شرب الخمر إن لم ننه عنه باعتباره رمز المنكرات؟ ومن هنا جاء في الحديث عن أبي جعفر عليه السلام التعبير عنها بأنّها أم الفرائض، وأنّه لا تقام الفرائض إلاّ بها، يقول الإمام الباقر عليه السلام ـ فيما روي عنه ـ: «**إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء فريضة عظيمة بها تُقام الفرائض، وتأمن المذاهب وتحلّ المكاسب وتُردّ المظالم وتُعمر الأرض ويُنتصف من الأعداء ويستقيم الأمر**»[1].

وفي الحديث عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يُستجاب لهم**»[2]. وتمكين الأشرار ومن ثمّ عدم الاستجابة للأخيار هما النتيجة الطبيعية لعدم القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ تراجع الأخيار وانكفاءهم عن الساحة سيعني تقدم الأشرار وانتشار المنكرات، وبعدها إذا أراد الأخيار معاودة الأخذ بزمام المبادرة فلن يستجاب لهم، لأنّ الموازين قد اختلت وتغيّرت ولم يعد للأخيار كلمة مسموعة.

٥ـ حماية أنفسنا من عدوى المنكر

ولا يتوقف الأمر عند حماية الإسلام وبقائه حياً وفاعلاً بل إنّ الأثر الطيب لهذه الفريضة يظهر في الأمة نفسها، من خلال صونها وأخذها بأسباب الطهارة والعفة والتكافل والنصرة، أما تقاعس الأمة وأهل العلم فيها عن مواجهة المنكر وإدانته بكافة الطرق والوسائل الممكنة فهو لن يجنب أبناءها أو يحميهم من آثار المنكر ونتائجه السلبية، بل سيمتد المرض إلى منازلهم وبيوتهم وتسري المنكرات وتعمّ شيئاً فشيئاً وتزحف إلى أبنائهم وإخوانهم، لأنّ من طبيعة المنكر

(١) الوسائل ج١٦ ص١١٩ ح٦ ب١ من أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما.
(٢) الكافي ج ٥ ص ٥٦.

وخصائصه أنّه يعدي وتسري العدوى إلى الآخرين، ومع الوقت ستضعف المناعة ضد المنكر، وتتهاوى منظومة القيم والأخلاق، ولهذا فإنّ قيامي وقيامك بهذه الفريضة هو عمل ضروري لحماية أنفسنا وأهلينا وأبنائنا من «فيروس» المنكر وعدواه، فإنّ أبناءنا لا يعيشون في جزيرة معزولة، بل يعيشون في هذا الوسط الاجتماعي الكبير، فإذا فسد المجتمع أو فسدت بعض شرائحه فسوف يسري الفساد والمرض إلى البقية، هذا إن لم يبادروا لوضع حد للمنكر ومحاصرته أو التمرد عليه ورفض التعايش معه، فإنّ الذين يتعايشون مع المنكر هم كمن يعيش مع الأفعى في غرفة واحد، فلا يدري متى تلدغه بسمها القاتل.

٦ـ الصالحون والتعايش مع المنكر!

وربما يتوقف بعض الناس ممن ألف المنكر وأدمنه عن الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر وهذا الأمر يبدو مألوفاً، ولكن قد يصل انتشار المنكر في الواقع إلى حدّ أن ييأس بعض المؤمنين من إمكانية التغيير بحيث إنّه لا يكتفي بالتقاعس عن القيام بواجباته في هذا المجال بل إنه يسعى إلى تثبيط غيره ممن يسعى إلى ذلك، ولو أنّه رآك تنهى عن المنكر فقد يقول لك: لا تفعل ولا تتعب نفسك، فهذا أمر لا يمكن تغييره أو يقول: دعك من فلان فقد ختم الله على قلبه، وقد حدّثنا الله تعالى عن وصول حالة بني إسرائيل في إدمانهم على المنكر إلى هذا المستوى، قال تعالى وهو يحدّثنا عن انقسام داخل الجماعة المؤمنة من بني إسرائيل إزاء قصة تجاوز بعض المعتدين منهم للأمر الإلهي القاضي بامتناعهم عن الصيد يوم السبت: ﴿**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾[الأعراف: ١٦٤]. فالآية المباركة تفيد بانقسام المؤمنين إلى قسمين:

القسم الأول: وهم مَنْ كانوا مصرِّين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

القسم الثاني: هم مَنْ صاروا في موقع اليأس من التغيير، ولذا توجهوا إلى الصنف الأول بالسؤال الإنكاري عن فائدة وعظ العصاة الذين سوف يصيبهم العذاب الإلهي. فما كان جواب الصنف الأول إلى أن قالوا: إن استمرارنا بالوعظ هو لأحد سببين:

الأول: معذرة إلى الله.

الثاني: احتمال أن يرتدع أحدهم ويعود إلى رشده.

٧ـ النهي عن المنكر والحرية الشخصيّة

ولا يقف الأمر عند حدّ التقاعس عن القيام بهذه الوظيفة، بل إن الأخطر من ذلك أنّه قد دخلت علينا بعض المفاهيم القلقة التي ساعدت في ترويج المنكر وأوصلت الأمور إلى حدّ أن يصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، ومن جملة هذه المفاهيم: مفهوم «حرية الشخصية» للفرد والتي تسمح له أن يفعل ما يريد ما دام أنه لا يعتدي على الآخرين، وليس من حقّنا ـ وفقاً لهذا المفهوم ـ الاعتراض عليه، وإنما الذي يحاسبه هو القانون إذا ارتكب ما يخالف القانون، والذي يعاقبه هو الله تعالى يوم القيامة فيما لو ارتكب ما يخالف شرع الله، أما نحن فلا دخل لنا به ولا سلطة لنا عليه.

وهذا الحديث البرّاق والمخادع لا نستطيع الموافقة عليه، لأنّ الكلام ليس في المنكر الذي يرتكبه الإنسان في داخل بيته، حتى يقال: إنه لا يحقُّ لنا أن نقتحم عليه بيته وخصوصيته ونفضح أسراره ونشهّر به، وإنّما الكلام في المنكر الذي يمارسه المرء في الهواء الطلق ويفعله أمام الرأي العام، وهنا لا يحق له بذريعة الحرية الشخصية أن يسيء إلى المنظومة الأخلاقية والقيمية التي تحكم المجتمع، هذا ما يقرره الإسلام، أرأيت إلى الشخص الذي يلوّث البيئة العامة بالغازات الضارة أو نحوها (كحرق الدواليب وما ينتج عنه من تلويث للفضاء العام) ألا يحقّ لنا أن

نمنعه من ذلك، لأنّه يسيء إلينا ويعتدي على أمننا الصحي في تلويث البيئة التي نعيش فيها؟ بالطبع يحق لنا. وهكذا لو أنّ شخصاً كان يرفع صوت المذياع في بيته أو في الشارع فيؤذي جيرانه أو المارة، فإنّ لنا حق الاعتراض عليه ومنعه من إقلاق راحة الناس وإزعاجهم. وهذا ما لا يناقش فيه أحد.

والحال عينه ينطبق على الشخص الذي يمارس «المنكر الشرعي والأخلاقي» علناً وأمام الملأ، كما لو كان يمشي عارياً في الشارع، أو يرتكب ما يخدش الحياء العام، أو تمشي المرأة سافرة متبرجة إلى حد التعري، فإنّ من حقنا أن نعترض على ذلك السلوك، لأنّه يلوث أجواءنا الإيمانية ويسيء إلى الأمن الأخلاقي للمجتمع، بما يعرّض أبناءنا وشبابنا للانحراف ويشجع بناتنا على الاقتداء به، وهكذا من يحتسي الخمر علناً وفي شوارع المسلمين، فإنّه بذلك يعتدي على خصوصيتهم الإيمانية ويستفز مشاعرهم الدينيّة التي تنظر إلى الخمر باعتباره أم الخبائث والمنكرات.

إنّ غزو هذا المفهوم (مفهوم الحرية الشخصيّة التي تسمح للفرد أن يفعل ما يريد دون أن يحق لأحد بالاعتراض عليه) لساحتنا وتسربه إلى أذهان الكثيرين منا هو من أجلى مصاديق الغزو الثقافي لأمتنا وهو السبب الذي جعل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة غائبة أو مغيبة لا يندفع إلى العمل بها أحد، ويضاف إليه سبب آخر وهو ثقل العمل بهذه الفريضة وما قد تجرّه علينا من متاعب

٨ ـ تحمّل الأذى والنتائج

إنّ حماية بيئتنا الأخلاقية وقيمنا الدينية تحتّم علينا أن نصدع بقول الحق مهما كان مراً وثقيلاً، وأن نتحمّل الأذى في مواجهتنا المفتوحة للمنكر حتى لو شُتمنا ولم يتقبّل الناس ذلك منا، ألم يُشتَم رسول الله عندما وقف في وجه المنكر

العقائدي الذي كان متفشياً في قريش من خلال الشرك والإيمان بتعدد الآلهة؟ أولم يُهن رسول الله عندما واجه المنكر الاجتماعي الذي يمتهن كرامة المرأة ويكرس الطبقية الظالمة بين السادة والعبيد؟ ألم يُسبّ الرسول ﷺ عندما أعلنها حرباً لا هوادة فيها على المنكر الأخلاقي الذي يستبيح الاتجار بالزنا ويكره الفتيات على البغاء؟ ألم يحاصر ﷺ ويطرد من مكة عندما وقف في وجه المنكر السياسي والمتمثّل بالطغيان والاستكبار؟ لكنه واجه كل ذلك الأذى والشتم والإهانات بالصبر والتحمّل حتى استطاع أن يعيد للمعروف قيمته ويكرس المنكر منكراً، ولهذا لا بدّ لنا أن نتحمل الأذى في رحلة القيام بمسؤوليتنا الشرعية، فقد يكلفنا ذلك بعض الخسائر، ولكن ينبغي أن يكون ذلك هيّناً، لأنه بعين الله وفي سبيل تحصين مجتمعنا من التصدّع والتلوّث، ففي الحديث: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: **أمّا بعد فإنّه هلك من كان قبلكم حينما عملوا المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك، وإنّهم لما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك نزلت بهم العقوبات، فأْمُروا بالمعروف وانهوا عن المنكر واعلموا أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لن يقربا أجلاً ولن يقطعا رزقاً..**»[(١)].

وفي الحديث أيضاً قال النبي ﷺ: «**إنّ الله عز وجل ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له، فقيل: وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له؟ قال: الذي لا ينهى عن المنكر**»[(٢)].

(١) الكافي ج ٥ ص ٥٩.
(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٩.

٩ـ تطوير الأساليب في مواجهة المنكر

ولكن من الضروري أن ننبه هنا إلى ضرورة تطوير أساليبنا في مواجهة المنكر، إذ الكثير من أساليبنا القديمة لم تعد تجدي نفعاً، فلا معنى للجمود عليها فالأساليب ليست مقدسة. والخطوة الأولى على هذا الصعيد هي أن تنطلق لدينا مؤسسات تُعنى بدراسة المنكر وتفكر في اختيار سبل المواجهة، مستفيدين من أفضل الأساليب المعاصرة، وبما أنّ إنسان اليوم ينجذب إلى الوسائل التقنية الحديثة، فلنعمل على مخاطبته بلغة هذا العصر ولنطلّ عليه من خلال الفضائيات الهادفة ومواقع التواصل الاجتماعي الملتزمة التي تحاكي عقله وتصل إليه بسهولة، فإنه لا ينتشر الهدى إلاّ من حيث ينتشر الضلال. وكل مال ينفق في هذا السبيل فهو يصرف في سبيل الله بل إنّ ذلك من أبرز مصاديق الجهاد بالمال، قال تعالى: ﴿**وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[التوبة: ٤١]، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**والذي نفسي بيده ما أنفق الناس من نفقة أحبّ من قول الخير**»[١].

١٠ـ شهادة الحسين عليه السلام ومواجهة المنكر

وبالنظر إلى حال الأمة قبيل نهضة الإمام عليه السلام فإننا نجد أنّ المنكر كان قد استشرى وفتك في جسمها، ليس المنكر الأخلاقي والشرعي فحسب، بل المنكر السياسي أيضاً، حيث عمّ الظلم والبغي وانتشر الفساد، وتحوّل الحاكم إلى أهمّ مروّج للمنكر وحارس له، وتمّت حراسة المنكر السياسي والأخلاقي بمنكر فكري يعتمد على بعض المفاهيم المزورة، وهذا ما جعل مواجهة المنكر أمراً صعباً ومكلفاً، وقد رأى الإمام الحسين عليه السلام أنّ الواجب يُملي عليه أن يواجه المنكر السياسي ولو كلّفه ذلك أن يضحي بحياته وأهل بيته، فهو القائل في بعض

(١) المحاسن للبرقي ج ١ ص ١٥.

منازل الطريق إلى كربلاء: «**وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها... ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً**»(١). كما أنّه رأى أنّ من أولى واجباته أن يواجه المنكر الفكري ويفضح التزييف ويصحح الانحراف المفاهيمي الذي تعرضت له الأمة من خلال السياسة المدروسة التي عملت على ضخّ جملة من المفاهيم المخدِّرة لإرادة الناس والمشوِّشة لأفكارهم والمجمدة لحيويتهم(٢).

ولذا أعلنها بكلٍّ وضوح قائلاً: «**وأنا أحقّ من غيّر**»، وقد تقدمت كلمته عليه السلام والتي أشار فيها إلى أهمّ معالم ومظاهر المنكر المستشري في زمانه، قال عليه السلام: «**ألا وإنّ هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد..**».

١١ـ المنكر يتسرّب إلى إحياء الذكرى وبعض المفاهيم المتصلة بها

والمؤسف حقّاً والذي يدعو إلى الألم والحسرة أنّ نرى أن الثورة التي رفعت راية الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد تسرّب المنكر إلى بعض المفاهيم المتّصلة بها أو إلى بعض وسائل إحيائها:

أمّا الأول فمن قبيل المفهوم الإرجائي الذي يكتفي في الحكم بنجاة الإنسان وخلاصه الأخروي بأن ينبض قلبه بحبِّ الحسين عليه السلام أو يذرف دمعة عليه، وهذا دون شك مفهوم مزوّر، ولا علاقة له بالدين، لأنه يجرّئ الناس على المعصيّة، فما دام أنّ دمعة واحدة كفيلة بأن تمحو كلّ ذنوبه ما تقدّم منها وما تأخّر

(١) مثير الأحزان ٣٢.
(٢) تعرضت في كتاب «عاشوراء قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء» إلى العديد من المفاهيم التي ساهمت الثورة الحسينية في إصلاحها، فليراجع.

فلا ضير عنده بأن يطلق العنان لغرائزه وأهوائه ثم يغسل درن كلّ هذه الخطايا بدمعة تذرفها عيناه على سبط الرسول صلى الله عليه وآله وسلم!

وأما الثاني، فيراد به استخدام الوسائل المستنكرة والمستهجنة في إحياء الذكرى، كتلك الطقوس التي يرتئي أصحابها إدماء رؤوسهم أو ظهورهم أو المشي على الجمر، أو الزحف على الأربع أو غير ذلك من الأفعال المهينة والمسيئة لذكرى الحسين ولخط أهل البيت عليهم السلام، والتي لا شك في أنّها أساليب دخيلة ولم يأذن بها الأئمة عليهم السلام ولا فعله أصحابهم، وقد أوضحنا ذلك في مجال آخر[1].

(١) انظر: عاشوراء قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء ص ١٢١ ـ ١٣٦.

المحور الرابع
أعمدة نظام الفساد.. رؤية قرآنية[1]

والفساد في الرؤية القرآنية هو نظام متكامل يتشكّل من أسس عديدة ويقوم على ركائز مختلفة بعضها ذات دور قيادي ومحوري وبعضها الآخر ذات دور تنفيذي وظيفي، وتتآزر هذه العناصر وتتعاضد فيما بينها، فيتولّد عنها نظام الاستبداد، وقد حدثنا القرآن الكريم عن أعمدة النظام الفاسد وأركانه، وكيفية إدارة السلطة فيه، وعن أساليبه في مواجهة المعارضين وقمعهم، وهذه أمور لا تختصّ بزمان دون آخر، بل إنّ هذه الأسس التي يقوم عليها نظام الاستبداد لا تزال قائمة إلى اليوم مع اختلاف بسيط بسبب تطوّر العصر وأدواته، وسوف نتناول هذه الأنظمة من خلال قصّة موسى عليه السلام وفرعون.

وفي هذه القصة نجد أنّ نظام الطغيان الفرعوني الذي عمل على إذلال بني إسرائيل واستعبادهم، وقَتْلِ رجالهم واستحياء نسائهم، كان يعتمد على عناصر رئيسة وأخرى مكمّلة، وهذا ما سوف نسلّط الضوء عليه بشيء من التفصيل في هذا المحور لندخل بعد ذلك إلى عقد مقارنة بين نظام الاستبداد الفرعوني ونظام الاستبداد اليزيدي.

(١) هذا المحور مع المحور الخامس هما في الأساس عبارة عن سلسلة من المحاضرات التي ألقيت في مسجد الإمام الرضا عليه السلام في بئر العبد، الضاحية الجنوبية لبيروت قبل سنتين تقريباً.

أولاً: ثلاثي الفساد في السلطة والإدارة والمال

حول التركيبة القيادية لنظام الفساد الفرعوني، يقول الله تعالى: ﴿**وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ**﴾[العنكبوت: ٣٩].

إنّ هذه الآية المباركة تتحدث عن ثلاثة عناصر بشريّة أساسية مثّلت عنوان الطغيان والاستكبار والفساد والظلم في النظام الفرعوني القديم، وهؤلاء الثلاثة هم فرعون، هامان، وقارون، فمن هم هؤلاء الثلاثة؟ وما هو دور كل واحد منهم؟

١ـ فرعون: الملك

وهو «لقب سلاطين مصر، كما أنّ قيصر لقب لسلاطين الروم، وكسرى لسلاطين فارس. وقد يطلق لواحد منهم لشهرته، كفرعون موسى»[1]. وهو الملك ورأس السلطة، وهذا واضح جداً، فهو من يصدر الأوامر إلى هامان والسحرة، وهو من يدّعي الألوهيّة، ويذكره القرآن باعتباره الشخص الذي أُمر موسى عليه السلام بالتوجه مباشرة إليه بالدعوة، قال تعالى: ﴿**اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى**﴾[طه: ٢٤].

٢ـ هامان: الوزير والأداة

هو اسم عبري، وقيل إنه يقوم بدور الوزير في نظام السلطة الفرعونية، ويبدو أنّ دوره لم يكن مقتصراً على الاستشارة فحسب، بل كانت له مهمّة تنفيذية أيضاً، بحيث نستطيع القول إنّه المدير التنفيذي بعد فرعون، والشاهد على ذلك أن القرآن ينسب الجنود إليه وإلى فرعون فيقول: ﴿**وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ**﴾[القصص: ٦] وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ**﴾[القصص: ٨] والحديث عن الجنود يشير إلى

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم ج ٩ ص ٦٥.

مسؤولية عسكرية لهامان، وهي مسؤوليّة تقع دون مسؤوليّة فرعون، ولذا لاحظنا أن فرعون يوّجه إليه الأوامر بتنفيذ مطالبه، ﴿**وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِله مُوسى**﴾[القصص: ٣٨]، وهذا يشير إلى مهمّة تنفيذية اضطلع بها هامان.

٣ـ قارون: الرأسمالي

أمّا قارون فهو رمز القوة المالية، ويبدو أنّ له موقعاً معيناً في سلطة فرعون، كدعامة لهذه السلطة، ولذا ذُكر بعد هامان وأشير إلى أنّ موسى مرسل إليه كما إلى فرعون وهامان، وهذه الثروة المالية التي يجمعها لا يمكن تحصيلها بعيداً عن السلطة، ونحن نلاحظ في عالم اليوم أن تحالف رأس المال مع السلطة هو وراء معظم الثروات الكبيرة في العالم، قال تعالى وهو يتحدّث عن ثروة قارون: ﴿**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**﴾[القصص: ٧٦]، واللافت هنا أن قارون لم يكن من قوم فرعون بل كان من قوم موسى أي كان إسرائيلياً، ولكنه مع ذلك استطاع أن يتسلل ربما من خلال مهارته الاقتصادية إلى الدائرة الأساسية الأولى في نظام الحكم الفرعوني ليصبح له هذه المكانة الرفيعة.

موقع ثلاثي الفساد في نظام الاستبداد

اتضح أنّ الثلاثي الذي يقوم عليه نظام الطغيان والاستبداد هو ثلاثي السلطة والجيش والمال[1]. وبعبارة أخرى: هناك مهارة سياسية وأخرى اقتصادية وأخرى عسكرية، وهذا التحالف هو الذي ينتج نظام الاستبداد.

إنّ الثلاثي المذكور هو ركيزة النظام وأُسُّه، فلا يمكن تصوّر نظام بدون رأس

(١) قال المصطفوي: «فظهر أنّ الحكم والسلطنة كان لفرعون. والتدبير والعمل والإجراء كان لهامان. والاقتدار والتمكن في جهة المال لقارون»، انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم ج ١١ ص ٢٨٨.

للسلطة، ولا بدون أداة تنفيذية، ولا بدون اقتدار مالي، ولخطورة هذا الثلاثي على المجتمع ولأنّ التغيير في المجتمع لا يمكن إلا بتغيير هذا الثلاثي وإبعاده عن موقعه، وجدنا القرآن الكريم ينص على أنّ الله تعالى أرسل نبيه موسى عليه السلام إلى هؤلاء الثلاثة، فقال تعالى: ﴿**وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ**﴾[العنكبوت: ٣٩]، فلم يكتف الله تعالى بذكر فرعون وحده، وإن كانت بعض الآيات الأخرى تذكر فرعون فقط، وذلك باعتباره رمز السلطة، أمّا هذه الآية التي هي محل البحث فقد فصّلت الأمر وذكرت الأسماء التي تمثل هذا الثلاثي، مبينة بشكل واضح وجلي أن مهمّة موسى عليه السلام هي التوجه إليهم جميعاً بالبينات التي زوده الله تعالى بها.

والسلطان الفاسد، يعمل جاهداً على أن يلوّن المجتمع بلونه ويصبغ فريقاً من الناس بصبغته، وقد استطاع فرعون أن يجعل حوله حاشية تفكّر كتفكيره، وهذا ما يفسّر لنا أن يردد الملأ من بني إسرائيل كلام فرعون بشأن موسى، يقول تعالى في سورة الشعراء عن لسان فرعون ﴿**قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾[الشعراء: ٣٤ ـ ٣٥]، ففي هذه الآية نجد أن فرعون يتوجه إلى الملأ من حوله محدداً لهم تهمة موسى عليه السلام التي يراد نشرها بين عامة الناس، وهي أنه ساحر عليم، وأنّه يريد إخراج المصريين من أرضهم! وهذا الاتهام سرعان ما عاد ليتردد بعينه عن لسان الملأ أنفسهم، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿**قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾[الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٠]!

ثانياً: العناصر المكمّلة

وفي نظام الاستبداد تبرز مجموعة من العناصر والشخصيات التي لها دور أساسي، وهذه وإن لم يصل دورها في هذا النظام إلى مستوى ثلاثي السلطة

المتقدّم، لكنها تلعب دوراً هاماً في الإدارة أو في المشورة أو في تنفيذ الأوامر والتعليمات، وهذه العناصر هي:

١ـ دور الملأ / الحاشية

والملأ هم علية القوم أو الأشراف، أو الخاصة، ويرد ذكرهم في القرآن الكريم في بعض الأحيـان باعتبارهم الحاشية المقربة من الملك، كما في قصة بلقيس، ﴿**قَالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ**﴾[النمل: ٢٩]، وكذلك في قصة عزيز مصر في زمن يوسف الصديق، قال تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ إن كنتم للرؤيا تعبرون**﴾[يوسف: ٤٣]، ونجد للملأ حضوراً بارزاً في قصة فرعون قال تعالى: ﴿**وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالًا**﴾[يونس: ٨٨]، وقد لا يكون الملأ حاشية لملك معين، لكنهم يلعبون دوراً في التأثير على الجماهير ففي قصة هود عليه السلام الذي أرسله الله إلى عاد، يبرز دور الملأ في تكذيب النبي عليه السلام، قال تعالى: ﴿**قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾[الأعراف: ٦٦]، ثمّ إنّ الملأ قد يكونون من أهل الاستكبار أو الكفر، كملأ فرعون، وغيره، وقد يكونون من أهل الخير، كما في ملأ سليمان عليه السلام: ﴿**قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾[النمل: ٣٨].

والملأ في قصة فرعون لهم دور بارز في الفساد، فهم يحرِّضون فرعون على موسى، قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**﴾[الأعراف: ١٢٧]. وهم يتآمرون على قتل موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**﴾[القصص: ٢٠].

ومن هنا فإنّ حاشية الحاكم يتحملون مسؤولية كبيرة عن قراراته، لأنّ بمقدورهم أن ينصحوه ويثنوه عن عزمه في اتخاذ القرارات الظالمة، فلا يكونون مجرد بطانة سوء، يزيّنون له كلّ أفعاله ويحسنون له قراراته، وفي عهد علي عليه السلام للأشتر توصيف دقيق للحاشية التي ينبغي أن تكون مقربة من الحاكم، يقول عليه السلام: «**ولَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، ويَعِدُكَ الْفَقْرَ، ولَا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الأُمُورِ، ولَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَه بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ والْجُبْنَ والْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى، يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّه إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، ومَنْ شَرِكَهُمْ فِي الآثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الأَثَمَةِ وإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ، وأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ، مِمَّنْ لَه مِثْلُ آرَائِهِمْ ونَفَاذِهِمْ، ولَيْسَ عَلَيْه مِثْلُ آصَارِهِمْ وأَوْزَارِهِمْ وآثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِه ولَا آثِماً عَلَى إِثْمِه، أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَئُونَةً وأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً وأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً، فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ، وأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِه اللَّه لأَوْلِيَائِه، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ والْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ والصِّدْقِ، ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوكَ، ولَا يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْه، فَإِنَّ كَثْرَةَ الإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ وتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ**»(١).

٢ـ دور الجند

والجند أو الجيش أو الأتباع المأمورون والمأجورون، هم من العناصر الهامة في نظام الاستبداد، لأنهم الأداة التنفيذية في هذا النظام، ولولاهم لما استطاع الظالم أن يفعل شيئاً، قال تعالى: ﴿**وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ**﴾ [القصص: ٣٩ ـ ٤٠]. ومن هنا كان مصير هؤلاء هو مصير فرعون نفسه، حيث أغرقوا جميعاً في

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٨٧.

البحر، ومَنْ أعان ظالماً كان شريكه في الظلم، وشريكه في الوزر، في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**لَوْلَا أَنَّ بَنِي أُمَيَّةَ وَجَدُوا مَنْ يَكْتُبُ لَهُمْ ويَجْبِي لَهُمُ الْفَيْءَ، ويُقَاتِلُ عَنْهُمْ ويَشْهَدُ جَمَاعَتَهُمْ لَمَا سَلَبُونَا حَقَّنَا ولَوْ تَرَكَهُمُ النَّاسُ ومَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا وَجَدُوا شَيْئاً إِلَّا مَا وَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ**»[1].

٣ـ أدوات التضليل/ السحرة

وكثيراً ما يستعين نظام الاستبداد بفئة من الناس وظيفتها التلبيس على الجماهير وتضليلهم وخداعهم، وقد كانت هذه الأداة في زمن موسى عليه السلام هم السحرة. واقتراح الإفادة من السحرة في المعركة المفتوحة في وجه موسى إنما جاء من الحاشية (الملأ)، قال تعالى: ﴿**قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ**﴾[الشعراء: ٣٤ـ ٤٠].

والسحر هو لعبة بصرية، وليس له واقعية، إنّه خفة توهم خلاف الواقع، فهو زيف وخداع وتضليل، إلا أنّ كثيرين يقعون ضحايا هذه اللعبة، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿**وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ**﴾[الأعراف: ١١٣ ـ ١١٩].

وفي عصرنا الحاضر، فإنّ أقرب الوسائل إلى السحر هو الإعلام المضلل والمخادع والذي يعتمد لعبة الصورة، ويستخدم أساليب الدجل والتزوير

(١) الكافي ج ٥ ص ١٠٦.

والكذب وفبركة الأخبار بغية تلميع صورة الحاكم وتعظيم إنجازاته، أو بهدف تضليل الرأي العام وإشغاله في قضايا هامشية أو غير ذلك. إنّ الكثير من إعلاميي هذا الزمان هم سحرة بامتياز، بل إنّ ضررهم هو أشد من ضرر السحرة وتأثيرهم، ولذلك نلاحظ أنّ غالب الدول تخصص ميزانية كبيرة للإعلام، لتستفيد منه في حربها وسلمها، لأنّ الإعلام الناجح يؤثر على الرأي العام ويحرّك الثورات أو يثبط العزائم، وربما انتصر طرف على آخر في خوض الحرب الإعلامية والنفسية دون حاجة إلى أن يخوض ضده حرباً عسكرية، ومما يؤسف له أنّ الإسلاميين لا يزالون إلى يومنا هذا لا يتقنون هذه الوسيلة ولا يستفيدون منها كما ينبغي ويلزم.

٤ـ الغوغاء / الرعاع

والعنصر الرابع، هم الطبقة الجاهلة من الشعب والتي لم تستضئ بنور العلم ولم تلجأ إلى ركن وثيق، وهم الذين يعمل جهاز التضليل المشار إليه لإبقائهم في حالة من السبات الفكري، والتخدير العقلي والعاطفي، ليضمن ولاءهم ويأمن جانبهم، وهؤلاء جاء التعبير عنهم في قصة موسى وفرعون، بالقوم أو بالناس، قال تعالى: ﴿**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ**﴾[الزخرف: ٥١ ـ ٥٦].

ومشكلة الغوغاء أنّ العقل الجمعي هو الذي يسوقهم ويحرِّكهم دون أن يتدبروا عواقب أعمالهم، فهم يندفعون بحماسة وانفعال، الأمر الذي يبعدهم عن رؤية الحقيقة، ولذلك فإنّ القرآن الكريم قد أكّد على ضرورة السعي في تفريقهم وإقناعهم بأن يبتعدوا عن بناء التصورات تحت سطوة التفكير الجمعي، وحثّهم

على أن يقوم كل واحد منهم وحيداً ويفكر بهدوء، وبعيداً عن تأثير الآخرين عليه، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾[سبأ: ٤٦].

والإمام علي عليه السلام بدوره دعا إلى تفريقٍ من نوع آخر للغوغاء، وهو تفريقهم في الأعمال، لينتشروا في ميادين الحياة ودروبها المنتجة، لأنّ هؤلاء إن لم يكن لهم عمل فسوف يجتمعون في أماكن معيّنة، واجتماعهم هذا سيكون سبباً للمشاكل، فعنه عليه السلام فِي صِفَةِ الْغَوْغَاءِ: «**هُمُ الَّذِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا ضَرُّوا وإِذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا**، فَقِيلَ: قَدْ عَرَفْنَا مَضَرَّةَ اجْتِمَاعِهِمْ فَمَا مَنْفَعَةُ افْتِرَاقِهِمْ، فَقَالَ: **يَرْجِعُ أَصْحَابُ الْمِهَنِ إِلى مِهْنَتِهِمْ، فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِمْ كَرُجُوعِ الْبَنَّاءِ إِلى بِنَائِه، والنَّسَّاجِ إِلى مَنْسَجِه والْخَبَّازِ إِلى مَخْبَزِه**»[1].

فالغوغاء بحاجة إلى نوعين من التفريق:

التفريق الأول: هو التفريق الهادف إلى بنائهم معرفياً بعيداً عن الانقياد لسطوة العقل الجمعي، وهو الذي أشارت إليه الآية المباركة.

والتفريق الثاني: هو التفريق بهدف أن يسيروا في مناكب الأرض، وينتفعوا من سبل العيش الكريم وينفعوا بذلك مجتمعهم، وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه الآنف.

٥ـ علماء السوء

ويأتي وعاظ السلاطين وعلماء السوء كأخطر عنصر في جهاز نظام الفساد، وفي قصة موسى وفرعون يذكر المفسرون والرواة اسم رجل من بني إسرائيل كان على دين موسى عليه السلام وهو عالم بأحكام شريعته، لكنّه ارتدّ واتبع هواه،

(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ٤٦.

ويقولون إنّ اسم هذا الرجل هو بلعم بن باعورا، وقيل إنّ الآيتين التاليتين نزلتا فيه، وهما قوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦]، وعلى فرض صحة الروايات فلا ندري إذا كان لفرعون ونظامه دور في إغواء هذا الرجل والتأثير عليه لينشق عن موسى عليه السلام ولكن ما نجزم به أنّ فرعون قد استفاد من الدور السلبي الذي قام به هذا الرجل، هذا ما ذكره المفسرون. لكنّ القرآن الكريم لم يتعرض لاسم الرجل، ولا إلى دوره في جهاز فرعون، وقد نظر بعض المفسرين[(١)] بريبة إلى هذه الروايات، ودعا للوقوف على ما جاء في القرآن الكريم الذي لم يذكر اسم الشخص.

وفي كل الأحوال فسواء صحّ ما روي حول اسم الرجل أو لم يصحّ، وسواء صدق حدْسُنا حول دور السلطة الفرعونية في استغلال هذا الرجل أو لم يصدق، فلا ريب أنّ عالِمَ السوء هو من أخطر الأدوات التي يستعملها المستبدون في تدعيم سلطانهم، ويسمي البعض هؤلاء العلماء بعلماء البلاط، أو فقهاء السلطان، فهؤلاء ضالون ومضلون، فهم يخدعون العامة من الناس، ويزينون للسلطان العمل القبيح، ويبررون له مواقفه الظالمة بإصدار فتاوى جاهزة تلائم هواه، وربما يصدرون فتاوى تبيح قتل أولياء الله. ومن هنا كان من الضروري التوقف

(١) قال الشيخ مغنية رحمه الله: «أما الذي آتاه اللَّه آياته فانسلخ منها فلا نعرف من هو ولا ندخل في شيء ليس في القرآن والسنة المتواترة نص عليه، ولكن القصاصين وأكثر المفسرين أو الكثير منهم قالوا: إن اسم الرجل بلعام بن باعور، وإنه كان على دين موسى وعالماً بأحكامه، ثم ارتد، ونحن ننظر إلى هذا النقل وإلى غيره أيضاً بحذر، ولا نطمئن إلا للنص القرآني، وقد دل هذا النص على أن اللَّه سبحانه أمر رسوله أن يخبر اليهود بقصة الرجل الذي كان عالماً بدين اللَّه وآياته، وبطبيعة الحال كان علماء اليهود على علم من هذا الرجل، ثم أغواه الشيطان، فترك علمه ودينه، ولزم الغواية فكان من الغاوين الهالكين»، انظر: التفسير الكاشف ج ٣ ص ٤٢١.

عند هذا الأمر بشيء من التفصيل، لأننا نواجه مشكلة حقيقية على هذا الصعيد. ولنا وقفة خاصة حول دور «رجال الدين» في عملية الإصلاح والإفساد، فراجع المحور الخامس الآتي.

ثالثاً: مقارنة بين نظام يزيد ونظام فرعون

وحيث إنّ سنن الله لا تتخلف، والتاريخ يعيد نفسه، فقد وجدنا الكثير من نقاط التشابه بين نظام الحكم الفرعوني ونظام الحكم اليزيدي الذي يُعدُّ استمراراً لنظام الحكم الذي أرساه والده معاوية بن أبي سفيان، فلم تتغيّر الصورة في زمنه كثيراً عما كانت عليه قي عهد أبيه، لا في بنية النظام وتركيبته ولا في أساليبه القمعية، ولا في رموزه، وإليك توضيحاً مختصراً لذلك:

١ـ رأس النظام، فرعون ويزيد

يقف على رأس النظام الأموي يزيد بن معاوية وهو شخصية لا تفترق كثيراً عن فرعون في غروره وظلمه وبطشه، مع فارق مهم وهو أنّ فرعون لم يكن يحمل عنواناً دينياً، بل كان يجاهر بمحاربة الدين، ويعلن أنّه الرب، ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾[النازعات: ٢٤]، بينما كان يزيد يقف على رأس سلطة تزعم أنّها تمثّل خلافة النبي محمد ﷺ، ولكنه مع ذلك لم يكن يتوانى عن ممارسة المنكرات التي حرّمها الإسلام، فهو رجل ماجن يشرب الخمرة[1] ويلاعب القرود.

وكما كان فرعون رجلاً «مستكبراً يبطش ويسفك الدماء وينشر الفساد في الأرض» طبقاً لما وصفه به القرآن الكريم، ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ**

(١) تحت عنوان: «منْ حُدَّ من الأشراف في الخمر وشُهر بها» ذكر صاحب العقد الفريد يزيد بن معاوية في أول القائمة، قال: «وكان يقال له الخمور»، انظر العقد الفريد ج ٨ ص ٥٥.

الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٤]، فقد كان يزيد شخصية تماثل شخصية فرعون، فهو الأرعن المتكبّر المتعجرف المسرف في القتل والاعتداء على الأنفس والأعراض، ويكفي أنّ جيشه استباح المدينة ثلاثة أيام فقتل من قتل واغتصب من النساء من اغتصب!

وقال أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني: «وكان يزيد بن معاوية أول من سنّ الملاهي في الإسلام من الخلفاء، وآوى المغنّين، وأظهر الفتك وشرب الخمر، وكان ينادم عليها سرجون النّصرانيّ مولاه والأخطل، وكان يأتيه من المغنّين سائب خاثر فيقيم عنده، فيخلع عليه ويصله، فغنّاه يوماً:

يا للرّجال لمظلومٍ بضاعته ... ببطن مكة نائي الأهل والنّفر

فاعترته أريحيّة، فرقص حتى سقط، ثم قال: اخلعوا عليه خلعاً يغيب فيها حتى لا يرى منه شيء، فطرحت عليه الثياب والجباب والمطارف والخزّ حتى غاب فيها»(١).

وقال ابن كثير: «وقد روي أنّ يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغنا والصيد واتخاذ الغلمان والقيان والكلاب والنطاح بين الكباش والدباب والقرود، وما من يوم إلا يصبح فيه مخموراً، وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به، ويلبس القرد قلانس الذهب، وكذلك الغلمان، وكان يسابق بين الخيل، وكان إذا مات القرد حزن عليه»(٢).

٢ـ بين موسى عليه السلام والحسين عليه السلام

ومن جهة أخرى فإنّ في أبي عبد الله الحسين عليه السلام شبهاً كبيراً بموسى بن عمران عليه السلام في جرأته وصلابته وعنفوانه، فكما كان موسى عليه السلام صلباً في

(١) الأغاني ج ١٧ ص ١٩٢.

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥٨.

ذات الله سبحانه ولا تأخذه في قول الحق والانتصار للمظلوم لومة لائم، ﴿**وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾[الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٥]، فقد كان الحسين عليه السلام يمتلك العزيمة نفسها وأعلن بكل وضوح رفضه لمبايعة يزيد، لأنه شخص فاسق ظالم، ومِثْلُ الحسين عليه السلام لا يبايع مثله، وكما تحمّل موسى عليه السلام الأذى في جنب الله تعالى، واضطر إلى الهجرة في سبيل الله، ﴿**فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ**﴾[الشعراء: ٢١]، كذلك فقد اضطر الحسين عليه السلام إلى الهجرة من مدينة جده ومسقط رأسه إلى مكة المكرمة ثم إلى الكوفة حيث التضحية والفداء ولقاء الله، وهذا الشبه بين الشخصيْن هو ما جعل الحسين عليه السلام وارثاً لموسى عليه السلام، كما جاء في الزيارة المعروفة «**السلام عليك يا وارث موسى كليم الله**»(١).

ولا يقف الشبه عند الشخصين المعصومين (موسى والحسين) بل يمتدّ الشبه إلى قومهما، فكما عرف عن قوم موسى القسوة والغلظة فكانوا كما حدّثنا القرآن الكريم عنهم بقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[البقرة: ٧٤]، كذلك فقد كان القوم الذين حاربوا الحسين عليه السلام من أشدّ الناس غلظة، فلم تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلاً، ولذا لم يرحموا طفلاً ولا شيخاً، ولم يرعوا لرسول الله حرمة ولا ذمة، فقتلوا ريحانته وسبطه صلى الله عليه وآله وسلم مع سبعة عشر رجل من أهل بيته وسائر أصحابه، ثم قطعوا رؤوسهم وحملوها على الرماح!!

وهكذا، فثمّة شبه بين الجماعتين لجهة المصير، فكما ضربت الذلة والمسكنة على قوم موسى وباؤا بغضب من الله تعالى بسبب عتوهم وكفرهم وعنادهم،

(١) مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ص٧٢٠، وكامل الزيارات ص٣٧٥.

فقد ضربت الذلة على قتلة الحسين عليه السلام وأصابتهم اللعنة الأبدية والعار الدائم الذي لا انقطاع له.

٣ـ جند يزيد والطاعة العمياء

وكما كان لدى فرعون جيشٌ ينقاد لأوامره ويطيعه طاعة عمياء، لأنه استخف بعقولهم ومارس عليهم التجهيل والتضليل، فأصبحوا يتقبّلون كل ما يقوله لهم ويأمرهم به، ﴿**مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾[غافر: ٢٩]، فقد انتهج معاوية أيضاً ومن بعده ابنه يزيد السياسة عينها، فكان لدى يزيد جيشٌ مطواعٌ قد أعدّه له والده معاوية على الطاعة العمياء. جاء في وصية معاوية لابنه يزيد: «وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم فإذا أصبتهم، فارددْ أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم»[1].

إنّ أخطر ما فعله معاوية هو تجهيلُ أهلِ الشام بشكل كلي وبناءُ جدرٍ تضليلية حولهم وعمل على غسل أدمغتهم ومحاصرتهم وتوجيههم بطريقة خاصة، فلم يعرفوا الكثير من الحقائق، إلى حدّ أنّ المسعودي ينقل صوراً عن هذا التجهيل لا تكاد للوهلة الأولى تصدق، يقول وهو يتحدث عن دهاء معاوية: «وبلغ من إحكامه للسياسة وإتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه أنّ رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق في حال منصرفهم عن صفين فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي، أُخذت مني بصفين، فارتفع أمرهما إلى معاوية، وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة يشهدون أنها ناقته، فقضى معاوية على الكوفي، وأمره بتسليم البعير إليه، فقال الكوفي: أصلحك الله! إنه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم قد مضى، ودسّ إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره، وسأله عن

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٣٩. وأنساب الأشراف ج ٥ ص ١٤٥.

ثمن بعيره، فدفع إليه ضعفه، وبرّه، وأحسن اليه، وقال له: أبلغ علياً أني أُقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل».

ثم يذكر المسعودي نموذجاً آخر لهذا الاستخفاف بعقول الشاميين، فيقول: «وقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها، وركنوا إلى قول عمرو بن العاص: إن علياً هو الذي قتل عمَّار بن ياسر حين أخرجه لنصرته، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لَعْنَ علي سُنَّة، ينشأ عليها الصغير، ويهلك عليها الكبير»[1].

٤ـ القيادة العسكرية والإدارية

وكما كان هامان أداة تنفيذية لفرعون، فإنّ لدى يزيد العديد من الأدوات، ويبرز أمامنا ونحن نستعرض أركان الدولة اليزيدية الأموية مجموعة من الأسماء الذين اعتمدت عليهم في البطش والفتك، وعلى رأس هؤلاء يأتي عبيد الله بن زياد، وعمر بن سعد ومسلم بن عقبة والحصين بن نمير والشمر بن ذي الجوشن.. وغيرهم من الظلمة الذين كانوا اليد الضاربة للسلطان الظالم، فتحملوا مسؤولية سفك الدماء وترويع الآمنين.

٥ـ مستشارو يزيد وحاشيته

وإذا نظرنا إلى المستشارين والحاشية المقربة إلى يزيد، يبرز أمامنا اسم سرجون، وهو رجل رومي، وكان كاتباً لمعاوية[2].وهو الذي أشار على يزيد

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٣ ص ٣٢.
(٢) قال الطبري متحدثاً عن معاوية: «وكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومي»، انظر: تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٣وج ٥ ص ٢٥. وفي التنبيه والإشراف للمسعودي ص ٢٦٩، نص على نصرانية سرجون، وفي العقد الفريد ج ٤ ص ٢٢٤: «سرجون بن منصور الرومي، كتب لمعاوية ويزيد ابنه، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، إلى أن أمره عبد الملك بأمر فتوانى فيه، ورأى منه بعض التفريط، فقال لسليمان بن سعد كاتبه على الرسائل: إنّ سرجون يدلُّ علينا ببضاعته، وأظن أنّه رأى ضرورتنا إليه في حسابه، فما عندك فيه حيلة؟ فقال: بلى، لو شئت لحوّلت الحساب من الرومية إلى العربية، فقال: افعل .. فحوّل الديوان، فولاه عبد الملك جميع ذلك».

بتولية عبيد الله بن زياد على الكوفة، لمواجهة حركة الإمام الحسين عليه السلام، يذكر المؤرخون أنّه لمّا «وصلت الكتب إلى يزيد دعا سرجون مولى معاوية فقال: ما رأيك؟ إنّ حسيناً قد وجه إلى الكوفة مسلم بن عقيل يبايع له، وقد بلغني عن النعمان بن بشير ضعف وقول سيئ، فمن ترى أن أستعمل على الكوفة؟ وكان يزيد عاتباً على عبيد الله بن زياد، فقال له سرجون: أرأيت معاوية لو نشر لك حياً أما كنت آخذاً برأيه؟ قال: نعم . قال: فأخرج سرجون عهد عبيد الله بن زياد على الكوفة وقال: هذا رأي معاوية، مات وقد أمر بهذا الكتاب، فَضُمَّ المِصْرَيْن [البصرة والكوفة] إلى عبيد الله بن زياد، فقال له يزيد: أفعل، ابعثْ بعهد عبيد الله إليه»[1].

ومن غرائب الأمور أنّ الذين كانوا يتولون أمر الديوان والكتابة في ديوان خلفاء بني أميّة لم يكونوا من المسلمين ولا من العرب، ولم يكن الديوان أساساً باللغة العربية إلى زمن متأخر، فقد ذكر الصفدي في ترجمة أحد الكتاب وهو سليمان بن يعد الخشني أنّه تولى «أيام عبد الملك الديوان بعد موت سرجون بن منصور الرومي، وهو ـ أي سليمان ـ أول من ترجم ديوان الشام بالعربية، وهو أول مسلم وُلّي الدواوين كلها وحوّلها بالعربية، وقال عمر بن عبد العزيز لسليمان بلغني أنّ أبا فلان عاملنا كان زنديقاً قال: وما يضرّك يا أمير المؤمنين!»[2].

وولاة معاوية وأركان دولته ومستشاروه لم يكونوا أفضل حالاً من ولاة يزيد ومستشاريه، فقد كان عمرو بن العاص مستشاره وواليه على مصر، والمغيرة بن شعبة واليه على الكوفة، وزياد بن سميّة وسمرة بن جندب في البصرة.

(١) الإرشاد للمفيد ج ٢ ص ٤٢.
(٢) الوافي بالوفيات ج ١٥ ص ٢٣٩.

٦ـ أدوات التضليل

وإذا كان السحرة هم أدوات التضليل الذين اعتمد عليهم فرعون لمواجهة موسى ودعوته، فإنّ أدوات التضليل الذين اعتمدتهم السلطة الأموية هم الرواة والقصاصون المأجورون الذين اختلقوا الأحاديث عن رسول الله ﷺ في ذمّ علي عليه السلام وآل البيت ومدح أخصامهم، وعلى رأسهم معاوية.

وقد لجأت السلطة إلى اعتماد الأساليب غير النظيفة في سبيل تشويه صورة علي عليه السلام وأبنائه، عنيت بذلك أسلوب لعنهم له من على منابر المسلمين ومحاريب المساجد حتى هرم الكبير وشبّ الصغير على سماع لعنهم وسبهم، واستمرّ الأمر ردحاً من الزمن إلى أن رفعه عمر بن عبد العزيز، وكان ذلك من فضائله، فقال الشريف الرضي في مدحه:

يا بن عبد العزيز لو بكت العين فتى من أميّة لبكيتكْ
غير أنّي أقول إنّك قد طبت وإن لم يطبْ ولم يزك بيتكْ
أنت نزهتنا عن السب والقذف فلو أمكن الجزاء جزيتكْ[1]

ومن أمضى الوسائل والأدوات التي استفاد منها الأمويون لتلميع صورتهم وذكر «مناقبهم» وتضليل الرأي العام: وسيلة الشعر، فقد جرت سيرة كل خليفة على اتخاذ بعض الشعراء وتقريبهم إليه، وإغداق الأموال الطائلة عليهم لقاء قيامهم بمدحه والتنويه باسمه، وكان الأخطل أبرز شاعر في بلاط بني أميّة[2]، ومن شعراء معاوية المعروفين كعب بن جعيل التغلبي[3].

(١) ديوان الشريف الرضي ج ١ ص ٢١٥.
(٢) انظر: الأعلام للزركلي ج٥ ص١٢٣.
(٣) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ج٢ ص١١٢.

٧ـ علماء البلاط

وقد استفاد يزيد ومن قبله والده معاوية من بعض «العلماء» والرواة الذين كانوا على استعداد ليبيعوا دينهم مقابل دنيا غيرهم، فوضعوا بعض الأحاديث غير الصحيحة، بما يوافق غرض السلطة، فقد حدثنا التاريخ أنّ معاوية بذل للصحابي سمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أنّ هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ**﴾[البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥]، وأنّ الآية التالية نزلت في ابن ملجم الملعون وهي: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾[البقرة: ٢٠٧] فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف، فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف، فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف، فقبل»[1]. كما أنّ بعضهم عمل على تأويل الآيات والأحاديث وتفسيرها بطريقة ملتوية، بما يخدم أغراض السلطة في تزوير المفاهيم الدينية، وأمثال هؤلاء لعبوا دوراً لا يقل ضرراً وخطراً عن دور الوضاعين، بل ربما كان دورهم أخطر، لأنّ الوضاع يفتضح أمره غالباً، بخلاف مَنْ يمارس التأويل، فإنه لا يُلتفت إليه من عامة الناس، فإنّهم قد يخدعون بعمليّة التأويل، ومعاوية نفسه هو ممن مارس التأويل للتعمية على العامة، فقد روي عن عبد الله بن الحرث قال: إني لأسير مع معاوية في منصرفه من صفين بينه وبين عمرو بن العاص، قال: فقال عبد الله بن عمرو بن العاصي: يا أبت ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعمار: «**ويحك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية**»؟ قال: فقال عمرو لمعاوية: ألا تسمع ما يقول هذا! فقال معاوية: لا تزال

(١) الغارات للثقفي ج ٢ ص ٨٤٠. وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٧٣. وهذا التفسير لقي رواجاً عند الأزارقة من الخوارج، انظر المواقف ج ٣ ص ٦٩٧.

تأتينا بهنة، أنحن قتلناه إنما قتله الذين جاؤوا به»[1]. ومن روائع ما علّق به أمير المؤمنين عليه السلام على هذه الهرطقة المفضوحة قوله: «**ونحن قتلنا أيضاً حمزة، لأنا أخرجناه!**»[2].

إنّ عمليّة تزوير الدين لن يتسنى لأحد القيام بها كما يقوم بها علماء السوء، ولذلك كانوا صنو الحكام وتوأمهم في قيادة عمليّة الإفساد. في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي، وإذا فسدا فسدت أمتي**، قيل: يا رسول الله ومن هما؟ قال: **الفقهاء والأمراء**»[3].

إن خطورة فساد العالم أنّه القدوة وإذا استثمر علمه في تغطية الفساد فهذا سيحوّله إلى مفسد وخائن لرسالة العلم.

ومن مآسي الفكر ومهازله: أنّ بعض علماء المسلمين قد برروا ليزيد فعلته الشنيعة بقتله سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع الثلّة الطاهرة من أهل بيته وأصحابه، وإنّي وإن كنت لا أريد أن أرمي هؤلاء بكونهم علماء سوء، لأنّ المسألة تتصل بقراءة النوايا وهذا أمر يرجع فيه إلى الله تعالى، ولكني أجزم بخطئهم وأنّ دفاعهم عن يزيد غير مبرّر، ومن هؤلاء القاضي أبو بكر المالكي الأندلسي، الذي وصل به الجهل إلى حد القول إنّ الحسين قتل بشرع جده، وقد انتقده ابن خلدون، قائلاً: «وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه: إنّ الحسين قتل بشرع جده، وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل، ومَنْ أعدلُ من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء؟!»[4].

---

(١) مسند أحمد ج ٢ ص ١٦١، والمعجم الأوسط للطبراني ج ٨ ص ٤٤.

(٢) العقد الفريد لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (٣٢٨ هـ)، تحقيق: محمد سعيد العريان، مكتبة الرياض الحديثة، طبع على مطابع دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ج ٦ ص ٨٥.

(٣) الخصال للشيخ الصدوق ص ٣٧.

(٤) تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ٢١٧. أقول: الذي وجدته في كتابه «العواصم من القواصم» هو التالي: «وما خرج

رابعاً: أساليب الطغاة في مواجهة القادة والدعاة

وعطفاً على ما تقدّم، فإنّ من الضروري أن نستجلي الموقف القرآني فيما هي الأساليب التي يعتمدها الطغاة في مواجهة القادة من الأنبياء والدعاة المعارضين لحكمهم، لنقارن بعد ذلك الموقف الذي اتخذته السلطة الأموية من الإمام الحسين عليه السلام.

١ـ تنوع الأساليب والهدف واحد

يعتمد الطغاة عدة أساليب في مواجهة المعارضين ولا سيما القادة الربانيين، ومن جملة هذه الأساليب:

أولاً: أسلوب التسفيه والإسقاط، قال تعالى: ﴿**وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ**﴾ [الأعراف: ٦٥ ـ ٦٨]. وهذا الأسلوب اعتمده المشركون مع نبينا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فاتُهِمَ بالسحر والكهانة والجنون.

ثانياً: أسلوب الاستيعاب والاحتواء والمساومة معتمدين سياسة الإغراء والترغيب ليتنازل المعارض لحكمهم عن مشروعه أو يخضع للمساومة، وهذا الأسلوب أيضاً قد اعتُمِدَ مع نبينا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى: ﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ**

أحد إليه (أي إلى الحسين) إلا بتأويل، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جده المهيمن على الرسل المخبر بفساد الحال المحذر عن الدخول في الفتن، وأقواله في ذلك كثيرة، منها: ما روى مسلم عن زياد بن علاقة عن عرفجة بن شريح قوله صلى الله عليه وآله: «إنها ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرِّق أمر هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائناً من كان»، فما خرج الناس إلا بهذا وأمثاله»، انظر: «العواصم من القواصم»، تأليف: محمد بن عبد الله بن العربي الأندلسي المالكي، (ت ٥٤٣هـ) تحقيق: أبو مسلم المسعودي، مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م، ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣.

عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ**﴾ يراد به أنّه لولا التسديد الإلهي لكنت رضختَ إليهم، فلطف الله تعالى هو الذي منحك العصمة وحال دون رضوخك لهم.

ثالثاً: أسلوب الاستفزاز والسعي في إخراج القائد المعارض، وهذا الأسلوب هو دليل العجز والفشل، فلو كان بإمكانهم أن يستوعبوه لفعلوا، ولو أمكنهم أن يواجهوه بالحجة لما لجأوا إلى هذا الأسلوب العنيف في المواجهة، ولذلك نجد مشركي مكة لجأوا إلى هذا الأسلوب بعد فشلهم في استيعاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا**﴾ [الإسراء: ٧٦].

رابعاً: أسلوب التصفية، قال تعالى وهو يحدثنا عن تعامل بني إسرائيل مع الأنبياء عليهم السلام: ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ**﴾[البقرة: ٨٧].

والحقيقة أنّ التصفية تتّخذ شكلين:

أحدهما: التصفية الجسدية، المتمثلة بقتل المعارضين واغتيالهم بطريقة من الطرق.

والثاني: التصفية المعنوية، المتمثلة بمحاولة شراء المعارض أو تشويه صورته.

وقد برع بعض الحكام، كمعاوية في استخدام الشكلين معاً.

خامساً: وأما عامة الجماهير فيتمّ العمل على استيعابهم أو مواجهتم بأساليب التهديد والترهيب والترغيب والاستعباد، ففرعون كان يستعبد بني إسرائيل، قال

تعالى: ﴿**وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾[الشعراء: ٢٢] ويزيد أيضاً كان قد اتخذ عباد الله خولاً أي عبيداً له.

٢ـ اعتماد كافة الأساليب في مواجهة النبي ﷺ

في مواجهتهم للنبي الخاتم ﷺ لم يترك المشركون أسلوباً إلا اعتمدوه، فقد اعتمدوا:

١ـ أسلوب الاستخفاف والاستهزاء والتحقير، فوصفوه بالساحر والشاعر والمجنون والكاهن، والكاذب والمفتري. قال تعالى: ﴿**بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ**﴾[الأنبياء: ٥]، وقال سبحانه: ﴿**إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**﴾[الحجر: ٩٥]، ﴿**وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾[ص: ٤]، وقال سبحانه: ﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ**﴾[الصافات: ٣٦].

أ ـ أسلوب الإغراء، فقد تقدّموا إليه بالكثير من العروضات المغرية، بغية صرفه عن رسالته، روي أنّهم جاؤوا إليه ﷺ فقالوا: «إن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوّدناك [حعلناك سيّداً] علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك ـ وكان يسمون التابع من الجن الرئي ـ فربما كان ذلك، بذلنا [لك] أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك؟ فقال [لهم] رسول الله ﷺ: «**ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة،**

وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»(١).

٢ـ أساليب الاعتقال والحصار أو الإخراج أو القتل، وقد اعتمد المشركون هذه الأساليب مع النبي ﷺ قال تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[الأنفال: ٣٠] فقد حوصر ﷺ في شعب أبي طالب لعدّة سنوات. وتمّت مقاطعته بطريقة قاسية، مورست فيها كلّ أنواع الإيذاء والاضطهاد، حتى دفعته تلك الضغوطات، للخروج من مكة المكرمة، والهجرة إلى المدينة المنورة، التي سبقه إليها الكثير من أصحابه، كما هاجر قسمٌ آخر منهم إلى الحبشة.

٣ـ مواجهة الإمام الحسين بالأساليب عينها

والباحث الملم بالتاريخ لا يخفى عليه أنّ الأساليب التي اعتمدها النظام الأموي في مواجهة المعارضين لحكمه، وعلى رأسهم الإمام الحسين عليه السلام لا تختلف كثيراً عن أساليب فرعون، بل ربما كانت أشد قسوة، فأساليب الطغاة متقاربة، وإليك توضيح وشرح موجز للأساليب التي اعتُمدت في مواجهة الإمام الحسين عليه السلام:

١ـ إلجاؤه إلى الخروج من وطنه، فقد طُلب إليه عليه السلام في بادئ الأمر البيعة ليزيد بن معاوية وأن ينخرط في الجو العام فيبايع دون أي اعتراض، ولما رأى عليه السلام أنّ في تولي يزيد أمر الخلافة خطراً على الإسلام والمسلمين رفض البيعة وصمم على الخروج من المدينة، وفي الواقع فإنّ ما جرى معه عليه السلام كان أقرب إلى عملية إخراج، لأنّ إجباره على البيعة والرضوخ لحكم يزيد اضطره للخروج من مدينة جده رسول الله ﷺ متوجهاً إلى مكة المكرمة، ومن ثم إلى العراق.

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٦٦.

٢ـ محاولة التصفية، إنّ خروج الإمام عليه السلام السريع والمفاجئ من مكة المكرمة في يوم التروية متوجهاً إلى الكوفة كان لإحساسه بأنّ ثمّة محاولة جادة تخطط السلطة لها، ألا وهي محاولة قتله ولو كان معلقاً بأستار الكعبة، روى المؤرخون أنّ محاورة جرت بين الحسين عليه السلام وبين عبدالله بن جعفر في مكة، وفحواها أنّ عبدالله المذكور حاول إقناع الإمام عليه السلام بالبقاء في مكة المكرمة حيث كتب إليه عبد الله بن جعفر: «أنشدك الله أن لا تخرج عن مكة، فإني خائف عليك من هذا الأمر الذي قد أزمعت عليه أن يكون فيه هلاكك وأهل بيتك، فإنك إن قتلت أخاف أن يطفئ نور الأرض، وأنت روح الهدى وأمير المؤمنين، فلا تعجل بالمسير إلى العراق فإني آخذ لك الأمان من يزيد وجميع بني أمية على نفسك ومالك وولدك وأهل بيتك ـ والسلام ـ . قال: فكتب إليه الحسين بن علي: **أما بعد! فإن كتابك ورد علي فقرأته وفهمت ما ذكرت، وأعلمك أني رأيت جدي رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **في منامي فخبرني بأمر وأنا ماض له، لي كان أو علي، والله يا بن عمي لو كنت في جحر هامة من هوام الأرض لاستخرجوني ويقتلوني، والله يا بن عمي ليعدين علي كما عدت اليهود على السبت**»[١] والمضمون عينه تضمنته محاورة كتابية جرت بين الحسين عليه السلام وبين عبد الله بن الزبير. مع أن المؤشرات الكثيرة تشهد إلى وجود رغبة لدى ابن الزبير في مغادرة الإمام عليه السلام لمكة المكرمة كما أشرنا سابقاً[٢].

٣ـ وفي كربلاء طلبوا إليه طلباً استسلامياً وهو أن يسلّم نفسه لعبيد الله بن زياد ويخضع لحكم يزيد، لكنه أبى ورفض هذا الخيار المذل، وقال كلمته التي خلّدها التاريخ: «**ألا وإنّ الدعي بن الدعي قد تركني بين السلة**

(١) انظر: الفتوح لابن أعثم ج٥ ص٦٧.
(٢) تاريخ الطبري ج٤ ص٢٨٩.

والذلة وهيهات له ذلك مني، هيهات منا الذلة، أبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون»[١].

وقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن الأعمال الوحشية التي ارتكبها النظام اليزيدي والأموي من القتل والترويع والتهجير وذبح الأطفال واغتصاب النساء، إلى غيرها من الجرائم التي طفحت بها كتب التاريخ، وقد ذكرنا سابقاً أن يزيد قد حكم لمدة ثلاثة سنوات ارتكب فيها العظائم، ففي السنة الأولى قتل الحسين عليه السلام وأهل بيته وسبى أطفاله وعياله، وفي السنة الثانية أباح المدينة المنورة لجيشه مدة ثلاثة أيام، فحصل في أثناء ذلك ما يندى له جبين الإنسانية، وفي السنة الثالثة ضرب قائدُ جيشه الحصينُ بن نمير الكعبةَ المشرفة بالمنجنيق، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وعلى الإسلام السلام إذ بليت الأمة براعٍ مثل يزيد بن معاوية.

خامساً: المواجهة والسقوط

إنّ مواجهة نظام الفساد وإسقاطه لا يمكن إلا بعمليّة شاملة تستهدف كل أركانه وأعمدته سواء الرئيسة منها أو المكملة.

١ـ مواجهة رؤوس الفساد

من الطبيعي أن يبدأ المصلحون بتهيئة الأرضيّة العامة الرافضة للظلم والمستعدّة للمواجهة، وذلك بإيجاد قاعدة شعبيّة تشكّل حاضنة للدعوة الإصلاحية، ومستعدّة للتضحية في هذا السبيل. وهذه الحاضنة هي في الأعم الأغلب من الفئة المضطهدة والمهمشة التي ستكون أكثر تجاوباً مع الدعوة الإصلاحيّة، ومن هنا كانت الحكمة الإلهية في اختيار الأنبياء من فئة المستضعفين والفقراء، حتى أنهم عُيِّروا بذلك، قال تعالى، حاكياً عن لسان الملأ من قوم نوح: ﴿**مَا نَرَاكَ إِلاَّ**

(١) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٢٤، ومثير الأحزان ص٤٠.

بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[هود: ٢٧].

ومما يلفت النظر في قصّة موسى عليه السلام أنّ الله تعالى قد طلب منه عليه السلام أن يتوجه في الدعوة إلى رؤوس الفساد وهم الثلاثي المتقدّم (فرعون وقارون وهامان)، وقال سبحانه: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾**[هود: ٩٦ ـ ٩٧]، مع أنّ هذا الثلاثي ـ بحسب العادة ـ ليس مستعداً للهداية وقبول الحق، الأمر الذي يبعث على التساؤل عن سرّ التوجه إلى هؤلاء بالدعوة؟

وفي الإجابة على ذلك أقول: يُعتقد أن السِّر في ذلك يعود إلى أمرين:

أولاً: إنّ الله تعالى يريد للدعاة أن يأخذوا احتمالات التأثير في الطرف الآخر بنظر الاعتبار ولو كانت ضعيفة وأن لا يغلقوا باب الأمل، أو ينطلقوا من تصورات مسبقة حول عدم تأثر الطرف المقابل بالدعوة إلى الحق، فالاحتمال مهما كان ضعيفاً يكفي بأن يُحَمِّلَ الداعيةَ مسؤولية إلقاء الحجة على الآخر ولو كان طاغية أو ظالماً. فلاحظ الأمر الإلهي لموسى وهارون، **﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾**[طه: ٤٤] فقد أُمرا عليهما السلام بمخاطبة فرعون بلينٍ ورفق عسى أن يؤثر ذلك فيه، فيتذكر ويتعظ ويستيقظ من كبوته ويلين قلبه.

ثانياً: إنّ النظام الفرعوني كان مستعبداً لبني إسرائيل وقاهراً لإرادتهم كما قال تعالى عن لسان موسى: **﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾**[الشعراء: ٢٢]، وفي مثل هذا الجو من الاستضعاف الذي كان يعيشه بنو إسرائيل تحت سلطة القهر الفرعونية كان من الضروري أن يتوجّه النبي موسى عليه السلام إلى الظالم المستعبِد بما يؤدي إلى هزِّ سلطانه وجبروته أمام القاعدة التي استعبدها وأذلَّها وسلب إرادتها وجعلها طيّعة بيده منقادة لأمره، بعد أن استخف بها وبعقولها

كما حدثنا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ**﴾[الزخرف: ٥٤]، ولهذا وجدنا أن موسى عليه السلام توجه إلى فرعون طالباً إليه أن يرسل معه بني إسرائيل ويحررهم من نير الظلم والاستعباد، ﴿**وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾[الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٥]. إنّ التوجه إلى فرعون بهذه اللغة الحاسمة والواضحة يهدف إلى كسر حاجز الخرق لدى بني إسرائيل وإسقاط هالة فرعون من نفوسهم.

بين عصا موسى عليه السلام ودم الحسين عليه السلام

أمّا في الثورة الحسينية، فإنّ الإمام الحسين عليه السلام قد تحدى فرعون زمانه بطريقة مختلفة، فلم يتوجه إلى يزيد بالدعوة، ولم يذهب إليه في قصره لا لأنه كان يائساً من يزيد وإمكان هدايته فحسب، بل لأنّ خياراً كهذا قد يؤدي إلى اختطافه وحبسه أو إجباره على البيعة أو ربما الإقدام على التخلّص منه بطريقة ذكيّة من الطرق التي اشتهرت بها السلطة آنذاك، ولذا فإنّه توجّه إلى الأمة مباشرة مبيناً لهم المخاطر المحدقة بالإسلام، وشرح لهم مفاسد نظام القهر والاستبداد، وعمل بشكل واضح وجلي على تعرية نظام الحكم وفضح يزيد باعتباره ظالماً فاسداً قاتل النفس المحترمة، ومَنْ كان كذلك فليس أهلاً لقيادة الأمة وتسلم منصب خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا يختلف عمّا كان عليه الحال في زمن موسى، فقد كان عليه السلام يدرك بأنّ الأمة مستعبدة لفرعون وترى فيه شيئاً من صفات الألوهية، فأراد كسر هذه الهالة فتوجّه مباشرة إلى فرعون، وطلب إليه أن يرسل معه بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿**وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾[الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٥]، وقد أصرّ موسى على تحدي فرعون بشكل

علني، وقبل الأخير المنازلة وكان يوم الفصل، عندما ألقى موسى عصاه ﴿**فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾[الأعراف: ١١٧ ـ ١١٨].

وإذا كانت عصا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الخشبيّة هي التي أبطلت سحر فرعون وفضحت زيفه، فإنّ عصا الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ التي فضحت يزيد وأسقطت عرشه كانت من نوع آخر، ألا وهو دمه المبارك الذي قدّمه فداءً للحق والحقيقة، أجل، لقد كانت دماء الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ هي التي كشفت زيف السلطة الظالمة ودكّت عرشها وأودت بها إلى مقابر التاريخ، ولا يزال دمه المبارك هو العصا التي يتوكأ عليها كلُّ الأحرار في مواجهة السحرة والظالمين.

التكبّر يمنع عن الهداية

وقد كان موسى مزوّداً بكل الوسائل الكفيلة بإقناع من كان له قابلية واستعداد لقبول الهداية، واتباع الحق، كان عَلَيْهِ السَّلَامُ مزوّداً بالعلم ولين الخطاب، فقد خاطب فرعون بالكلام الطيب، ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾[طه: ٤٤] وكان يملك الحجج والبينات والآيات، وعلى رأسها تحويل العصا إلى أفعى.

وقد استخدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كلّ هذه الأساليب والحجج في دعوة فرعون وملئه، وكان التحدي الكبير «يوم الزينة» حيث عيّن فرعون ذلك اليوم وحشد له معتقداً أنه سيكون يوم النصر على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجمع السحرة، وفي نتيجة هذا التحدي الكبير كانت الغلبة للحق، فآمن السحرة لما رأوا التسديد الإلهي والإعجاز الحقيقي، وهم أقدر الناس على التمييز بين السحر الذي يضلل الناس وبين المعجزة الحقيقية، ولكنّ رؤوس الفساد، فرعون وهامان وقارون رفضوا الإيمان والخضوع، وهذا أمر قد يكون طبيعياً بلحاظ ما وصل إليه هؤلاء من قسوة القلب وظلمته، فهؤلاء يشعرون أنّ عرشهم وسلطانهم وامتيازاتهم مهددة بالزوال، فيمنعهم الاستكبار والأنانية وحب الذات من الإيمان والاعتراف، ﴿**وَلَقَدْ جَاءَهُمْ**

مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، فمنشأ الكفر والعصيان هو في الأنانية، وهي تمنع أكثر الناس من الإذعان للحق. أليس التكبر هو الذي منع إبليس من الانقياد لله تعالى، فعصى وغوى؟! قال تعالى: **﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾** [البقرة: ٣٤]، فاستكباره كان سبب كفره، وهكذا الحال في فرعون، **﴿وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِه وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾**[غافر: ٣٧] وقال سبحانه: **﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّه لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾**[يونس: ٨٣]، وقال تعالى: **﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِله غَيْرِي﴾**[القصص: ٣٨]، وقال عزّ وجلّ: **﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُه فِي الأَرْضِ﴾**[القصص: ٣٩] .

وقتلة الإمام الحسين عليه السلام ومحاربوه كانوا من هذا الصنف الذين أوغلوا في الحرام وتمادوا في المعاصي وتجاوزوا كافة الحدود الشرعيّة، ما جعلهم يقدمون بدم بارد على ارتكاب تلك الجريمة النكراء دون أن ترمش لهم عين أو يرف لهم جفن.

درس عملي

وهذا ما ينبغي أن نأخذ منه درساً في حياتنا، وهو أن نعمل على تهذيب أنفسنا لتكون مستعدة لقبول صوت الهداية، وأن لا يمنعنا جاهنا ومالنا وأولادنا عن الانقياد أو الاستماع لدعوة الحق، فكم من إنسان أهلكته أو تهلكه أمواله أو جاهه أو أولاده، وقد يبلغ الإعجاب وحبُ الذات والتكبر بالإنسان إلى درجة تصبح ذاته هي المقياس، ويستكبر ليس على الآخرين فحسب، بل يمتدّ في عتوّه للتطاول على الله تعالى، وإنكار فضله على العباد، كما حصل لقارون، الذي كان من قوم موسى، وقد نصحه قومه بأن يدفع شيئاً من ماله في سبيل الله، وأنّ الله تعالى قد أتاه المال وعليه أن يشكر الله تعالى، ويزكي ماله، قال تعالى حكاية عن لسان هؤلاء الجماعة الذين نصحوا قارون: **﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا**

تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٧٧]. فما كان جوابه إلا أن قال: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي**﴾[القصص: ٧٨]، أي إنه يقول: لا دخالة ولا دور لله في مالي ! فأنا بذكائي وخبرتي حصلت على هذا المال، ولا دور لله في ذلك! وأما فرعون فبلغ به الكبر إلى التطاول على مقام الربوبية، فقال قولته الشهيرة: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾[النازعات: ٢٤]. وقال سبحانه مشيراً إلى هذا الأمر: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِله غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إلى إِله مُوسى**﴾[القصص: ٣٨].

إنّ الكثيرين يؤخذون بالظواهر فيتمنون أن يكون لهم الملك والمال، كما حصل مع بني إسرائيل لما رأوا قارون خرج عليهم بزينته، ويغفلون عن أنّ المال قد يكون وبالاً على صاحبه، قال سبحانه: ﴿**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ**﴾[القصص: ٧٩ ـ ٨٠].

٢ـ هلاك رؤوس الاستبداد: الكيفيّة والدلالة

وقد حدثنا الله تعالى عن أنّ ثلاثي الفساد والاستبداد هالك ولن ينفعه المال ولا الجاه ولا القوة، وتلك من سنن الله العزيز القهار في خلقه، فقد قضى تعالى أنّ المستكبرين الظالمين سيهلكون على أيدي الضعفاء المظلومين المقهورين، وهي سنة ماضية وعابرة للأزمنة والقرون، قال تعالى: ﴿**سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا**﴾[الأحزاب: ٦٢]، فما جرى مع فرعون وقارون وهامان، كان تطبيقاً لهذه السنة واستجابة لدعاء موسى عليه السلام: ﴿**وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ**

رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾[يونس: ٨٨ ـ ٨٩].

هلاك فرعون بالماء:

واللافت أن فرعون الذي كان يتحدث عن أنّه يملك الأنهار كما حكى الله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي**﴾[الزخرف: ٥١]، وإذا بمشيئة الله وحكمته تقضيان أن يكون هلاكه في الماء غرقاً، هذا الماء الذي هو سبب الحياة ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[الأنبياء: ٣٠] يصبح سبباً للموت. والعاقبة نفسها حصلت لهامان فالغرق كان لفرعون وجنوده وهو منهم.

هلاك قارون بالخسف

أما قارون فكان موته بالخسف به وبداره، أي كان الخسف موضعياً طال قارون وحده، وليس عاماً، ومكان الخسف هو بيته الذي كان مجمعاً للأموال، فكأنّ الله أراد بذلك أن يعطينا درساً وهو أنّ هذه الأموال التي جمعها لم تغن عنه من الله شيئاً بل دفن معها في الأرض. قال تعالى: ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾[القصص: ٨١ ـ ٨٢].

مصير يزيد وقتلة الحسين عليه السلام

ولم يكن مصير يزيد ورموز سلطانه كعبيد الله بن زياد وعمرو بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وغيرهم من العتاة، والمجرمين الذين شاركوا في قتل الحسين عليه السلام أفضل حالاً من مصير فرعون وهامان وقارون وجنودهم، فلم يهنأ لهم بال بعد قتل الحسين ولا سعدوا بالدنيا وملذاتها بعد يوم عاشوراء، فقد لاحقهم الثوار وقتلوهم شرّ قتلة وتتبعوهم في أوكارهم وبيوتهم، حتى أبادوهم

عن آخرهم، وكان يزيد من أوائل الذين قضوا سريعاً بطريقة فيها حكمة بالغة، فيزيد الذي كان يلاعب القرود يموت بعضة قرد! وذلك بعد ثلاث سنوات من قتل الإمام الحسين عليه السلام، جاء في البداية والنهاية لابن كثير «أنّ سبب موته أنه حمل قردة (من القرود التي كان يلاعبها) وجعل ينقزها فعضته»(١)، ويروي البلاذري عن شيخ من أهل الشام «أنّ سبب وفاة يزيد أنه حمل قردة على الأتان وهو سكران ثم ركض خلفها فسقط فاندقت عنقه أو انقطع في جوفه شيء»(٢).

وأما عبيد الله بن زياد فقد قتله إبراهيم بن الأشتر، يقول ابن عبد البر: «وقضى الله أن قُتل عبيد الله بن زياد يوم عاشوراء سنة سبع وستين»(٣).

وأمّا عمر بن سعد فقد قتله المختار الثقفي، وقد كان الإمام الحسين عليه السلام دعا عليه في كربلاء عندما برز ابنه علي الأكبر إلى ميدان القتال، فقد «صاح الحسين بعمر بن سعد قائلاً: **ما لك قطع الله رحمك، ولا بارك لك في أمرك، وسلط عليك بعدي من يقتلك على فراشك، كما قطعت رحمي ولم تحفظ قرابتي من محمد صلى الله عليه وآله وسلم**»(٤).

إنّ سُنَّة الله قد جرت في هؤلاء العتاة الظلمة، فقد شربوا من الكأس عينها التي سقوها لضحايا وشهداء كربلاء، ولم يهنأوا بالدنيا ومالها ومناصبها التي باعوا لأجلها دينهم وآخرتهم.

٣ـ سنة الإخراج والسقوط

ثم إنّ إخراج القادة الربانيين من ساحة الصراع من خلال نفيهم أو حبسهم وحتى قتلهم، لن ينهي المشكلة، بل إنّ ذلك سوف يؤدي إلى إيقاظ الأمة

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص٢٥٨.
(٢) أنساب الأشراف للبلاذري ج٥ ص٢٨٧.
(٣) الاستيعاب ج١ ص٣٩٧.
(٤) الفتوح لابن الأعثم ج٥ ص١١٤، وانظر اللهوف ص٦٧.

وتحريك مشاعرها بما يؤدّي في نهاية المطاف إلى حركة شعبية تطيح بالظالم، وتلك سنة إلهية، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا**﴾[الإسراء ٧٦ ـ ٧٧]. والسُّنة هي العادة الجارية والقانون الإلهي الحاكم، ومن خصائص السُّنة الإلهية أنها لا تتخلف ولا تتغير ولا تتبدل، فهي قانون لا يقبل الاستثناء، ومن جملة هذه السنن الإلهيّة سنة «الإخراج والسقوط». هذا القانون يتحقق من خلال أحد طريقين:

الطريق الأول: انهيار نظام الطغيان وسقوطه من خلال التدخل الإلهي المباشر لإنزال العذاب على الظالمين، على اعتبار أنّ الحجة قد قامت عليهم وأبلغهم النبي عليه السلام الدعوة وأنذرهم وحذرهم ولكنّهم لم يبالوا بل تمردوا وكذبوا وجحدوا ووصل بهم الأمر إلى التخلص من النبي عليه السلام أو إخراجه من أرضه، وهذا ما حصل مع العديد من الأنبياء عليهم السلام، ونذكر في هذا الصدد ما جرى لنبيين من أنبياء الله تعالى، وهما:

أولاً: نبي الله لوط عليه السلام، فقد استفزه قومه وأخرجوه، قال تعالى: ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**﴾[الأعراف: ٨٠ ـ ٨٤].

ثانياً: نبي الله شعيب عليه السلام، فقد سعى قومه في إخراجه فأهلكهم الله، قال تعالى: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا**

تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ٨٥]، إلى أن يقول الله تعالى: ﴿**قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾[الأعراف: ٨٨ ـ ٩١].

الطريق الثاني: انهيار النظام المذكور على أيدي المؤمنين، وذلك لأنّ القائد الذي يتم نفيه أو إخراجه من ساحة جهاده لن ينهزم بل قد يتيح ذلك له فرصة جيدة لمواصلة النشاط والحركة والعمل على بناء الجماعة الصالحة، بما يمكنه في نهاية المطاف من فتح البلاد، وهذا الطريق هو أكثر معاناة وصعوبة ومشقة من الطريق الأول، وهو يحتاج إلى صبر وعزيمة وبذل التضحيات.

والطريق الثاني هو المتاح لنا اليوم، أمّا أسلوب التدخل الإلهي المباشر (الطريق الأول) فلم يعد متاحاً لنا، وذلك بتقدير من الله تعالى، تكريماً لنبيه الأكرم، فقد رفع هذا النوع من العذاب المعروف بعذاب الاستئصال عن هذه الأمة، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[الأنفال: ٣٣]، ولكنّ السُّنة الإلهيّة بسقوط الظالم الذي يحاصر المؤمنين ويعذّبهم ويسجنهم ويطرد قادتهم ويسعى في نفيهم أو قتلهم هي سُنَّة مستمرة وماضية.

٤ـ تحقق الوعد الإلهي

ويظنّ الطغاة أنّهم باعتماد أساليب القمع والاعتقال والنفي يخمدون الأنفاس ويقضون على الثورة ولكنهم واهمون، فسنن التاريخ تعلّمنا غير ذلك، فهي تقول:

إنّ الجماعة المؤمنة بقضيتها والتي تعمل بإخلاص وتخطيط وتمضي تحت لواء القائد الملهم لن تزيدهم السجون والمنافي إلا إصراراً وعزيمة، وسوف تصقلهم المعاناة ولن تسقطهم، وإذا رأى الله إخلاصهم وصدقهم فسوف يُنزل عليهم النصر وتفتح السجونُ أبوابَها ويعود المنفيون إلى ديارهم فاتحين مظفرين. قال تعالى: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ**﴾[الفتح: ٢٧].

ولو انتقلنا من جعبة التاريخ إلى واقعنا فإنّ لنا في تجربة الإمام الخميني رحمه الله خير شاهد على استمرار هذه السُّنة الإلهية، فقد أُخرج الإمام من إيران ونفي من بلد إلى آخر، لكنه ما وهن ولا ضعف، بل لم يزده ذلك إلا إصراراً وعزيمة وتخطيطاً، ولم تمض السنون الطويلة حتى عاد إلى إيران منتصراً مظفراً.

وما يجري في البحرين اليوم[1] ليس بعيداً عن هذه السنة الإلهية، فالقهر والظلم وزج العلماء والناشطين في السجون وسحب الجنسيّة كلها أساليب اعتمدها المشركون مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم واعتمدها الشاه مع الإمام الخميني رحمه الله واعتمدها الطغاة مع المعارضين على مرّ التاريخ لكنها باءت بالفشل.

وكما أنّ الإخراج لا يحل المشكلة فإنّ القتل أيضاً لا يمكن أن ينهي القضية، فقتلُ الحسين عليه السلام ألهب مشاعر الثوار وتحول إلى قدوة لكل الأحرار وكان دمه هو الإسفين الذي دك عروش بني أمية وجرفها إلى صفحات التاريخ السوداء.

(١) نحن الآن في سنة ٢٠١٧م.

الفصل الثالث

الإمام الحسين عليه السلام نبض الحياة

***

المحور الأول: الحسين عليه السلام أمن وأمان

المحور الثاني: الحسين عليه السلام مشعل الهداية

المحور الثالث: الحسين عليه السلام مهاجراً إلى الله تعالى

المحور الرابع: الحسين عليه السلام إمام في العلم وقدوة في الجهاد

المحور الخامس: الحسين عليه السلام شهيد الحب الإلهي

عندما يهلُّ هلال محرم الحرام وتدخل أيام عاشوراء يجتاح الإنسان المسلم خليط من المشاعر، فهو من جهة يشعر بالحزن والأسى لتلك المأساة المهولة التي يندى لها جبين الإنسانية، ومن جهة أخرى، فإنّه يشعر بالفخر والإباء لأنه يقف أمام شخصية ملهمة قد تركت بصماتها على جبين الزمن.

ولا ريب أنّ من حقّ هذا الإمام العظيم علينا أن ندخل محرابه بكل خشوع، خشوع القلب والعقل والوجدان، وأن نلج عالمه ولوج من يستمطر غيثه ونداه، ومن حقه أيضاً علينا أن نقصد حرمه ونزوره وأن نبكيه ونحزن لحزنه، ولكن الأهم هو أن نزوره زيارة العارف بحقّه، وأن نبكيه بكاء المطلع على مقامه، وأن نحبه حبَّ السائر على خطاه ومنهجه.

وقد عقدنا هذا الفصل، بغية التعرّف على شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام، ساعين إلى تقديم أفكار جديدة تتّصل بهذه الشخصية الاستثنائية ودورها في الحياة الإنسانية، دون أن نقع في تكرار ما قاله أو كتبه الآخرون.

والذي يمكن قوله على سبيل الاختصار في تعريف هذه الشخصيّة: إنَّ الحسين عليه السلام هو صمّام الأمان في الأمة، وهو مشعل هداية للبشرية، وإمام في العلم وقدوة في الجهاد، وقد توَّج حياته بالتربع على عرش الشهادة.

وهذا ما سوف نتناوله في المحاور التالية:

المحور الأول: الحسين عليه السلام أمن وأمان.

المحور الثاني: الحسين عليه السلام مشعل الهداية.

المحور الثالث: الحسين عليه السلام مهاجراً إلى الله تعالى.

المحور الرابع: الحسين عليه السلام إمام في العلم وقدوة في الجهاد.

المحور الخامس: الحسين عليه السلام شهيد الحب الإلهي.

المحور الأول
الحسين عليه السلام أمن وأمان[1]

لماذا عاشوراء؟

ولِمَ هذا الإصرار على استعادة ذكرى كربلاء؟

أليس في عاشوراء الحاضر ما يغني عن الرجوع إلى عاشوراء التاريخ؟

أليس في مآسي الحاضر أكثر من كربلاء، فلِمَ نضيف كربلاءَ إلى كربلائنا؟! وآلاماً إلى آلامنا؟!

ثمّ أليست عاشوراء بطريقة استعادتها مصدر توتّر وعامل تفرقة، بدل أن تكون مصدر إلهام وعنصر اطمئنان وفرصة للتوحّد في مواجهة الطواغيت والظالمين؟

والإجابة عن هذه الأسئلة تحتّم علينا العودة إلى عاشوراء القضية والأهداف، ولدى دراسة هذه الأهداف بدقّة وعناية، سنكتشف أنّ ثمة هدفاً حسينياً عاشورائياً قد أضعناه في صخب المأساة وضوضائها، حيث طغت المأساة في عاشوراء على ما عداها من قيم الثورة وأهدافها، وتلك مأساة هذه الذكرى المبدعة والخلّاقة، وهذا الهدف الضائع هو عنصر «الأمن والأمان» الذي أرادت هذه الثورة إعادته إلى الأمة، فالحسين عليه السلام لم يكن داعية شقاق وحرب، ولا مولعاً بسفك الدماء، ولم يكن ثائراً لمجرد الثورة، بل داعية سلام وتوحيد، أراد توحيد الأمة

(١) أُلقيت هذه المحاضرة في ليالي عاشوراء ١٤٣٣ هـ ـ في مسجد الإمامين الحسنين عليهما السلام حارة حريك ـ بيروت.

على مبادئ الرسالة الإسلاميّة. إنّ كلّ ما استهدفته النهضة الحسينية هو أن تستعيد الأمة أمنها السليب وسلامها المفقود.

وربّما يتساءل البعض معترضاً: أيُّ أمنٍ أو سلام هذا الذي تتحدّثون عنه والحال أنّ النهضة الحسينية بكلّ أحداثها هي مسيرة يلفّها القلق، ويكلّلها الخوف، وتتحرّك في طريق القتل وسفك الدماء؟!

ولكننا في الإجابة عن ذلك نقول: لا تعجب ممّا ذكرناه، فإنّ رسالة الحسين عليه السلام هي رسالة الإسلام، ورسالة الإسلام ما هي إلاّ رسالة أمنٍ وسلام، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٤]، فالإسلام رسالة حياة، ولا حياة بدون أمن واستقرار.

الجاهلية والأمن السليب

ولتتّضح علاقة الإسلام بالأمن والاطمئنان، تعالوا معي في إطلالةٍ سريعة على المشهد العام قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكيف كانت الصورة آنذاك؟

إنّ الصورة العامة لما كانت عليه الجاهلية وحياة الإنسان آنذاك، هي عبارة عن صورة قبائل متناحرة متقاتلة، يُغِيرُ بعضُها على بعض، وصورة إنسان مهدور الكرامة، يُسلب ويُقتل ويُسبى، أي أنه يفتقد الأمن على المستوى الحياتي، وكذلك يفتقد على المستوى الأخلاقي، إذ يكفيك أن تعرف أنّ الإنسان الجاهلي وصل به الانحطاط الخلقي إلى درجة إكراه فتياته وإمائه على البغاء حتّى لو أردن تحصّناً، وذلك بهدف الكسب المالي، كما نصّ على ذلك الذِّكر الحكيم[1]. ولا أمن أيضاً على المستوى الاجتماعي، إذ الطبقية والعبودية وقطع الأرحام ووأد البنات هي سيِّدة الموقف. ولا أمن على المستوى الاقتصادي، فالربا والقمار

(١) قال تعالى: ﴿**وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[النور: ٣٣].

وأكل المال بالباطل وتجارة الرقيق هي من أشهر تجارات العربي آنذاك، وفوق ذلك كلّه فلا أمن على المستوى الروحي، لأنّ عبودية الأصنام لا تمنح الإنسان أمناً روحياً ولا سلاماً داخلياً. أيُّ أمن روحيّ استمدّه العربي من الأصنام وهو الذي حوّلها إلى وسيلة للتجارة؟! وكان في بعض الأحيان يصنع إلهه من تمر حتى إذا جاع أكله!

في هذا الجو المكفهر والملبد كانت بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يمضِ ربع قرن من الزمن على بعثته ودعوته صلى الله عليه وآله وسلم حتّى اجترح المعجزة الكبرى عندما حوّل تلك الجماعات المتقاتلة إلى أمة واحدة لها كيانها وهويتها، أمة مترابطة متكافلة، أعاد للإنسان ثقته بنفسه، وأرسى في ذلك المجتمع منظومةً أخلاقيةً وقيماً سامية فكان الإسلامُ دينَ الأمن والسلام والرحمة.

إنّ مشكلة الإنسان ـ مطلق الإنسان ـ وليس الإنسان العربي والجاهلي فقط، هي مشكلة الأمن بكلِّ أبعاده، والأمن هو حاجة فطرية للإنسان، لذا ترى أنّ لديه تطلّعاً فطرياً نحو الأمن، فهو يطمح أن يعيش بأمن وسلام واطمئنان، وقد لا يدرك الكثير قيمة هذه النعمة ـ نعمة الأمن ـ إلا بعد افتقادها، وقد ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**نعمتان مجهولتان: الأمن والعافية**»[1].

الإسلام والأمن

ولكن كيف حقّق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هذه المعجزة؟

والجواب: إنّه واستجابة لهذه الحاجة الفطرية عند الإنسان ـ عنيت بذلك حاجته إلى الأمن على جميع الأصعدة ـ فإنّ الإسلام في كلّ تشريعاته وعقائده ومفاهيمه هدف إلى توفير هذه الحاجة للناس جميعاً، فكانت رسالة الإسلام منسجمة مع تطلعات الفطرة الإنسانية وملبية لكل مقتضياتها.

(١) روضة الواعظين، الفتّال النيسابوري (ت:٥٠٨هـ)، ص٤٧٢.

فعلى مستوى الأمن الشخصي والحياتي، فإنّ الإسلام حرّم كلّ ما يمسّ بالنظام العام، فحرّم السرقة والتعدّي والقتل، وكلّ ما يؤدّي إلى إقلاق راحة الناس وإزعاجهم فهو يهيئ الأرضية الصالحة لانتعاش الحركة الاقتصادية، قال تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ**﴾ [النحل: ١١٢]، فلا استقرار من الناحية الاقتصادية مع انتشار الخوف والذعر بين أفراد المجتمع، تضيف الآية المتقدمة: ﴿**فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ [النحل: ١١٢]، فبسوء أفعالهم وضياعهم وعدم رعايتهم لضوابط استقرار المجتمع سلبت عنهم نعمة الأمن.

وعلى المستوى الاجتماعي، دعا الإسلام إلى كلّ ما من شأنه تمتين أواصر المجتمع، (صلة الأرحام، زيارة الإخوان، حقوق الجار، عيادة المرضى، تشييع جنازة المؤمن...) ونبذ كلّ ما يؤدّي إلى التنابذ والتناحر وتعميق الفوارق وقطع الجسور مع الآخر، (تحريم الغيبة والنميمة والفتنة، والتكبّر والتعدّي على الناس وإزعاجهم...).

وعلى مستوى الأمن الأخلاقي، فإنّ الإسلام دعا إلى تحصين المجتمع، معتبراً أنّ الصدق والأمانة هما عنوان الإيمان وفي ضوئهما يختبر تديّن الإنسان(١)، وحرّم كلّ ما من شأنه أن يمسّ بالأخلاق العامة، فحرّم العلاقات غير الشرعية من الزنا والشذوذ والكذب والغدر، ولم يكن عبثاً أن يُلخِّص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسالته بكلمة مختصرة مروية عنه، وهي قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّما بُعثت لأتمّمَ مكارم الأخلاق**»(٢).

وعلى المستوى الاقتصادي، نجد الأمر عينه، حيث هدف الإسلام في منظومته التشريعية الاقتصادية إلى تحقيق الاستقرار الاقتصادي وردم كلّ الفجوات

---

(١) في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**لا تغتروا بصلاتهم ولا بصيامهم، فإنّ الرجل ربما يلهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة**»، الكافي ج٢ ص١٠٤.

(٢) مكارم الأخلاق للطبرسي ص٨.

الاجتماعية، فأمر بالزكاة والخمس، وندب إلى الإحسان والصدقة، وحرّم الربا والاحتكار وأكل المال بالباطل ليحقق بذلك استقراراً اقتصادياً في المجتمعات، لأنّ الفقر يؤدي إلى الطبقية والطبقية تؤدي إلى العداوة وتبعث على الضغينة.

والأمر عينه نجده على المستوى الصحيّ والغذائيّ والبيئيّ، قال تعالى: ﴿**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ**﴾ [قريش: ٣ ـ ٤].

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من أصبح معافى في جسده آمناً في سربه، عنده قوت يومه فكأنّما حيزت (خيرت) له الدنيا**»[1]. وهذا الحديث يتحدث ـ كما يُلاحَظ ـ عن ثلاثة أبعاد للأمن، وهي الأمن الصحي، والأمن الحياتي والأمن الغذائي.

الأمن قبل الاقتصاد وقبل العبادة

إنّ الأمن على المستوى الشخصي والحياتي العام يكتسب أهميّة كبيرة، ما يجعله يتقدّم على الاقتصاد، ومن هنا وجدنا أنّ نبي الله إبراهيم عليه السلام في دعائه لمكة وأهلها يقدّم طلب الأمن على طلب الرزق، يقول تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ**﴾[البقرة: ١٢٦].

وهكذا، فإنّ الأمن بمعناه المذكور يأتي قبل العبادة، إذْ لن يتسنى للإنسان أن يعبد الله تعالى كما ينبغي مع شيوع الفوضى والرعب بين الناس، ومن هنا يحدّثنا القرآن الكريم عن صورة المجتمع الأمثل الذي وعد الله به عباده الصالحين فيقول: ﴿**وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾ [النور: ٥٥].

(١) سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٣٨٧، وسنن الترمذي ج ٤ ص ٥، والخصال للصدوق ص ١٦١، والأمالي ص ٤٦٩.

ولكن كلّ ذلك ما كان ليكفي بإشباع حاجة الإنسان إلى الأمن، ما لم يترافق مع توفير مستوى آخر من الأمن يتطلع إليه الإنسان، ألا وهو الأمن الروحي والنفسي، فإنّ الإنسان حتى لو عاش في مجتمع آمن حياتياً ومتواصل اجتماعياً وعاش برفاهية اقتصادية ومناعة أخلاقية، فإنّ ذلك على أهميته لا يعطيه سلاماً روحيّاً داخلياً، ألا ترون أنَّ بعض الذين يقدمون على الانتحار كانوا يعيشون رغد الحياة ومع ذلك أقدموا على وضع حدٍّ لحياتهم، لماذا يا ترى؟ لأنّ هذه الرفاهية لم تعطهم سلاماً واطمئناناً داخلياً. إنّ الأمن الروحي لا يتحقق إلا بالعودة إلى الله، وإلاّ بذكر الله، ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[الرعد: ٢٨] ومن هنا فإنّ المنظومة العبادية في الإسلام من صلاة وصوم ودعاء وغيرها ما هي إلاّ وسائل ترمي إلى إيصال الإنسان إلى الاطمئنان الروحي، والحقيقة أنّ كلّ أشكال الأمن الأخرى لا يمكن أن تتحقّق بصورتها المثلى إن لم يحصّنها الأمن الروحي.

معادلة الإيمان والأمان

وهذا يجعلنا أمام معادلة هامة، وهي أنّ الأمن العام على جميع مستوياته إنّما يكتمل بالإيمان وذكر الله، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾[الأنعام: ٨٢] ولهذا فكلما وجدتَ أنّ المجتمع مستقرٌ من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والروحية فاعلم أنّه مجتمع مؤمن وسائر على خط الحسين عليه السلام، وكلّما كان مجتمعاً مهتزّاً اجتماعياً ويعيش إنسانه القلق الروحي والتفلّت الأخلاقي وتفشّى فيه الجريمة والانحلال، فهذا مؤشّر على أنّ الإيمان قد غادر هذا المجتمع حتّى لو كان أفراده يصلّون ويصومون ويبكون على الحسين عليه السلام ويقيمون المجالس في بيوتهم، إنّ مجتمعاً يسوده القلق والخوف والجريمة وتنتشر فيه النميمة والغيبة والضغينة أنّى له أن يكون مجتمعاً مؤمناً؟!

وبهذا يتبيّن أنّ العقيدة الإسلامية ليست عقيدة تجريدية ذهنية، بل هي عقيدة حركيّة تملأ القلب والوجدان، كما تُرضي العقل والفكر، وتساهم في صنع الأمن في حياة الإنسان، فالإيمان بالله يمنح الإنسان السلام والاستقرار، وكذا الإيمان بالمعاد. إنّ العقيدة الصحيحة لا بدّ أن تقدّم إجابات مقنعة ومورثة لليقين حول أسئلة المصير التي تُقلق الإنسان وتقتحم عليه فكره.

وهكذا الحال في العبادات، فصلاتك إن لم تمنحك سلاماً روحيّاً واستقراراً عائليّاً فهي مسمى صلاة وليست جوهر الصلاة، فإنَّ الصلاة هي صلاة القلب التي تتناغم مع حركات الجسد، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ**﴾[الحديد: ١٦].

إنّ علينا أن نعيش في أمان مع الله قبل كلّ شيء لنعيش في أمان مع أنفسنا ومع الناس من حولنا، فالله هو الذي يعطينا الأمن لأنفسنا ولمجتمعنا، وإذا عشت الأمن مع الله فحسبك ذلك، وكما قال الشاعر:

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنامُ غِضَابُ

وليتَ الذي بيني وبينَك عامِرٌ ... وبيني وبينَ العالمينَ خرابُ

ويقول سيّدنا أبو عبد الله الحسين عليه السلام في جوابه لعمرو بن سعيد على كتاب الأمان الذي قدّمه له: «**فخير الأمان أمان الله ولن يُؤْمِنَ اللهُ يومَ القيامة من لم يخفْ في الدنيا، ونسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا أمانه يوم القيامة**»[1].

صمّامات الأمان في الأمة

وتأكيداً على حاجة الإنسان إلى الأمن بكلِّ أبعاده، فإنّ الإسلام وبالإضافة إلى ما تقدّم، قد جعل في حياة الإنسان صمّامات أمان وهي:

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٢٩٢.

١ـ المكان الآمن، ويطالعنا على هذا الصعيد مكة المكرمة، فهي واحة أمن وسلام يأمن فيها الإنسان والحيوان والطير، ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً**﴾[البقرة: ١٢٥]، وكانت هذه رغبة شيخ الأنبياء إبراهيم الخليل، حيث دعا ربه قائلاً:؛ ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ**﴾[البقرة: ١٢٦]، وفي آية أخرى: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾[إبراهيم: ٣٥]، وكم كان الإمام الحسين عليه السلام يقدّر حرمة هذا البلد الآمن عندما خرج منه مخافة أن تُنتهك حرمته ويُقتل هناك!

٢ـ الزمان الآمن، فهناك الأشهر الحُرُم التي يحرم فيها القتال، ليستريح المقاتلون وتأمن الناس، وهناك شهر رمضان الذي يفترض أن يساهم في تحقيق الأمن الروحي والاقتصادي والاجتماعي للإنسان، ومن أعظم ليالي هذا الشهر المبارك ليلة القدر التي هي كما وصفها الله تعالى: ﴿**سَلَامٌ هِيَ حتّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ**﴾[القدر: ٥].

٣ ـ الإنسان الذي يمثل الأمن والأمان، وفي الطليعة يأتي المعصوم عليه السلام. والحقيقة أنّ هذا هو سرّ حاجتنا إلى الرسل والأئمّة عليهم السلام، فالمعصوم ليس سلطاناً، وإنّما هو ـ من خلال رسالته ومهمته وشخصه ـ الملجأ والحصن والكهف، في حديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس**»[(١)].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**النجوم أمان لأهل السماء فإن طمست النجوم أتى السماء ما يوعدون، وأنا أمان لأصحابي فإذا قُبضت أتى أصحابي ما يوعدون، وأهل بيتي**

(١) المستدرك للحاكم، ج٣، ص ١٢٩.

أمان لأمتي فإذا ذهب أهل بيتي أتى أمتي ما يوعدون»[1].

وعن سيِّدتنا الزهراء عليها السلام في خطبتها الشهيرة: «**جعل الله الإيمان تطهيراً من الشرك... وإمامتنا أماناً من الفرقة**»[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**كان في الأرض أمانان من عذاب الله، أما أحدهما فقد رُفع وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدونكم الآخر فتمسكوا به وهو الاستغفار،** ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[الأنفال:٣٣] وهذا هو الدور الأساسي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام فدورهم الأساس ليس تولي السلطة الزمنية وإن كانوا أولى بها من غيرهم، وإنّما دورهم الأساس هو في مرجعيّتهم الروحيّة والفكريّة التي تمتاز بأنها تحقق الأمن والسلام للإنسانية جمعاء.

وما يؤسَف له أنّنا في خطابنا الديني نركّز على المرجعية الزمنية لأهل البيت عليهم السلام أكثر مما نركّز على إمامتهم الروحيّة والمعرفيّة، ولذلك نخوض في هذا الجدل الكبير حول إثبات أحقّيتهم بالخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ونكتب عشرات بل مئات الكتب والمجلدات لإثبات ذلك، ويا حبَّذا لو أنّنا نبذل بعض هذا الجهد في تأكيد المرجعية العلمية والروحية، صحيح أن السلطة الزمنية حقٌّ لهم، ولكنَّهم أرادوها ليحقّقوا من خلالها الأمن للأمة، ويفشوا العدل في الناس، يقول أمير المؤمنين عليه السلام «**اللهم إنّك تعلم أنّه لم يكن الذي كان مِنّا منافسةً في سلطان ولا التماسَ شيء من فُضُول الحُطَام ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهرَ الإصلاح في بلادِك فيأمنَ المظلمونَ من عبادِكَ وتُقامَ المُعَطَّلةُ من حدودِك**»[3]. لقد كان عليّ عليه السلام صمّام أمن وأمان للناس، وهذا هو دور كل الأئمة من أهل البيت عليهم السلام،

(١) المستدرك للحاكم، ج٣، ص ٤٥٧.
(٢) بحار الأنوار، ج٢٩، ص ٢٢٣.
(٣) نهج البلاغة، ج٢ ص١٣.

والإمام الحسين عليه السلام هو أحد هؤلاء الأئمة الذين جسَّدوا هذا المعنى، فكان صمّام أمن وأمان للناس حتّى في ثورته وحركته، وهو ما أشار إليه الحديث «**الحسين مصباحُ الهدى وسفينةُ النَّجاة**»[١]، فإنّ المصباح هو الذي يمنح الإنسان النور ليَأمن في الطريق، والسفينة هي التي تمنحه الاستقرار والأمن من مخاطر الأمواج وتلاطمها.

الحسين عليه السلام والأمن

ولهذا فإنّ حركة الإمام الحسين عليه السلام لم تكن حركة فتنة ولا شقاق، يقول عليه السلام: «**إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي**»[٢]وفي رسالته عليه السلام لعمرو بن سعيد: «**أمّا بعد فإنّه لم يشاقِقِ الله من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال: «إنني من المسلمين..»**»[٣]، ولو أنّنا نظرنا إلى كلّ شعارات الثورة الحسينية لوجدناها شعارات إسلامية ترمي إلى تحقيق الخير للناس.

لقد استطاعت السلطة الكسروية أن تسلب من الناس أَمْنهم واستقرارهم وتماسكهم وأخلاقهم وروحانيتهم، وتعيد الأمة إلى ما يشبه عصر الجاهلية،

(١) الصيغة الأساسية للحديث بحسب ما رواه الشيخ الصدوق بالإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، هي على الشكل التالي: «وإنه لمكتوب عن يمين عرش الله عز وجل: مصباح هدى وسفينة نجاة وإمام خير»، وذلك في إشارة إلى الإمام الحسين عليه السلام، انظر: عيون أخبار الرضا عليه السلام ج ١ ص ٦٢، ثم أوردته بعض الكتب المتأخرة بالصيغة المشهورة اليوم على الألسن، وهي «الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة»، انظر: مدينة المعاجز ج ٤ ص ٥٢ ولكن الحديث ضعيف السند. إلا أن مضمونه صحيح ومؤيد بروايات أخرى، فكون الحسين «مصباح الهدى» هو أمر يشهد له حديث الثقلين المشهور والذي جعل العترة من أهل البيت عاصمة للأمة من الضلال، ما يجعل التمسك بها مفتاح الهداية ومصباحها، انظر حديث الثقلين في مسند أحمد ج٣، ص١٤،٢٦. وكونه عليه السلام سفينة نجاة يشهد له حديث السفينة المعروف وهو ما روي بالإسناد عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**أهل بيتي فيكم كسفينة نوح عليه السلام في قومه من دخلها نجا ومن تخلف عنها هلك**»، انظر المعجم الأوسط للطبراني ج ٥ ص ٣٠٦.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٢٩.

(٣) تاريخ الطبري ج٤ ص٢٩٢.

وأراد الحسين عليه السلام بثورته أن يعيد للناس شيئاً من هذا الأمن المفقود، يقول عليه السلام في رسالته إلى أهل البصرة: «**فإنّ السنة قد أُميتت والبدعة قد أحييت فإن تسمعوا قولي أهدكم سبيل الرشاد**»(1).

إنّ نداء الحسين عليه السلام على رمضاء كربلاء وفي كلّ تلك الرحلة الجهادية، ونداءه لكلّ الأجيال: تعالوا إليّ فعندي كلّ الخير والأمن لكم، تعالوا إليّ فقلبي يسعكم جميعاً، لكنَّ أولئك القوم الذين قد ختم الله على قلوبهم، طعنوا ذلك القلب الكبير برماحهم وسهامهم، وانتهكوا حرمة الله والرسول فيه وسال الدم الطاهر! ليتحوّل دمه بمرور الزمن إلى نهج يقتدي به الأحرار الذين يريدون الوصول إلى شاطئ الأمان.

الجناية على الحسين عليه السلام

هذه هي حقيقة الحسين عليه السلام وحقيقة الدين الذي استشهد من أجله الحسين، لكن ماذا فعلنا نحن بني الإنسان! لقد جنينا على الدين كما جنينا على الحسين عليه السلام؛ جنينا على الدين عندما حولناه إلى عامل توتّر وقلق وخوف، وكم من دماء سُفكت باسم الدين؟! وكم من أعراض انتُهكت باسم الدين؟! إن الخطاب الديني المتخلّف برع في أن يقدّم الله وهو الرحمة المطلقة والحب المطلق والسلام الشامل باعتباره كائناً مخيفاً أو جلّاداً يتلذذ بتعذيب عباده وإحراقهم بالنار، وهكذا تتقدّم صور العذاب والنقمة على صور المحبة والرحمة، وكأنه تعالى خلق الخلق للنار والشقاء! إننا في وجه هذا الخطاب نتساءل: أين «**يا من سبقت رحمته غضبه**»؟ أين يذهب قوله تعالى: ﴿**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾[الأنعام: ١٢]؟ أين صورة ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾[البقرة:١٨٦]؟!

(١) الكامل في التاريخ، ج٤، ص ٢٣.

وهكذا، فإنّ خطابنا الديني صوّر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم باعتباره جلّاداً، وشعاره «لقد جئتكم بالذبح»![1] مع أنّه الرّحمة المهداة للعالمين، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[الأنبياء:١٠٧]!

وهكذا جنينا في بعض خطاباتنا وأساليبنا على الحسين عليه السلام وبدل أن نقدّمه باعتباره سفينة للنجاة قدّمناه باعتباره رمزاً للمأساة، وبدل أن نحوّل ذكراه إلى «مصباح للهدى» وموئل للأنام، فإذا بنا نحوّلها إلى عنصر توتر، إنْ على المستوى الإسلامي، وذلك عندما أردناها ذكرى في وجه الآخرين، وإلاّ فما معنى أن يقف عالم معروف من إخواننا أهل السُّنة على بعض المنابر في عاشوراء ليقدّم شهادة على حُبِّ الحسين وأهل بيته عليهم السلام ؟! إنّ معنى ذلك، أنّ خطابنا لا يزال يُشعر الآخرين بالإدانة ويحمّلهم المسؤولية. أو على المستوى الإنساني العام من خلال صورة الدم التي نَظْهَرُ بها للناس من خلال ما يسمّى التطبير، حتّى أطلق بعضهم على يوم عاشوراء يوم الدم، لأنّ البعض حوّله إلى ما يُشبه حمّام الدم، مع أنّ الحسين عليه السلام لم يرد لنا أن نسفك دمنا في الساحات، بل أراد لهذا الدم أن يجري في عروقنا لنصنع الحياة العزيزة، وإذا فُرضت علينا الحرب من أعداء الأمة فلنسفك دماءَنا في الجبهات.

هذا هو الحسين عليه السلام فلا تحبسوه في الكهوف المظلمة، أبقوه في الهواء الطَّلْق ليتنفّس كلّ الناس من خلاله نسيم الحرية وعبق النبوّة، لا تجعلوه في الظلمة والعتمة أبقوه في النور ساطعاً كالشمس ترسل ضياءها إلى البرّ والفاجر، لا تنزلوا بالحسين إلى مستواكم المتخلف، بل اصعدوا إلى مستواه حيث القِمّة الشامخة والنفس المطمئنّة، حيث الفرح الروحي الذي يجعل طعم الموت حلواً ما دام في سبيل الله، حيث الفناء بالله.

(١) لقد فندنا هذا الحديث المزعوم في كتاب «العقل التكفيري» ص١٤٠ وما بعدها، وفي كتاب «وهل الدين إلا الحب»؟ ص ١٣٦.

ما أعظم هذا الاطمئنان الذي انطوى عليه قلب الحسين عليه السلام! وما أرسخ هذا الإيمان الذي جعله فَرِحاً مستبشراً وهو يقدّم القرابين تلو القرابين من أبنائه وأصحابه وهو يترنّم بلسان الحال قائلاً: «**إلهي إن كان هذا يرضيك فَخُذ منّي حتّى ترضى**».

إنّنا إذ نرفع صوتنا إزاء هذه السلبيّات فلا نريد أن نغفل إيجابيّات الخطاب الحسينيّ الكثيرة، ولسنا نريد جلد ذاتنا بطريقة معنويّة، كما يجلد البعض نفسه بطريقة حسيّة، وإنّما نريد تنزيه الذكرى من كلّ ما يشوّه صورتها، ونريد الإصلاح على هدي الحسين عليه السلام، «**إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمتي جدي...**» وعلى هدي الأنبياء من قبله، قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾[هود: ٨٨].

المحور الثاني
الحسين عليه السلام مشعل الهداية

عندما نطل على ذكرى عاشوراء تزدحم الأسئلة في الذهن، كيف نفهم الحسين عليه السلام؟ وكيف نستحضره؟ وما الأسلوب الأجدى للإفادة من نهضته؟ وما الجديد الذي يمكن لنا أن نضيفه في هذا المجال؟

إننا ـ وأمام الحرارة التي تنبض بها القلوب حباً بالحسين عليه السلام وتقديراً للعاطفة الجياشة التي تجتاح النفوس لذكراه عليه السلام ـ معنيون بطرح الأسئلة الهادفة والبنّاءة. ومن أهم الأسئلة التي على المخلصين والمحبين للحسين أن يطرحوها على أنفسهم، السؤال التالي: كيف نحوّل هذه الحرارة إلى برنامج تغييري تربوي؟ وكيف نحوّل تلك العاطفة إلى سبيل رشاد وهداية؟ ليغدو الحسين عليه السلام مدرسة للتغيير وليس مجرد مظلة للتفريغ النفسي والعاطفي من خلال ذرف الدموع.

أعتقد أنّ هذا يحتّم علينا أن نرى الحسين عليه السلام من خلال تطلّعاتنا المعاصرة، وأن نستحضره بالطريقة التي تُسهم في إصلاح هذا الواقع وتغييره نحو الأفضل.

وفي ضوء ذلك أقول: إنّ ما لا يختلف فيه اثنان أنّ إنساننا كان ولا يزال بحاجة إلى علمٍ للهداية يستقي من معينه الروحي وينهل من عطائه الفكري بما يزكي النفوس ويطهّر القلوب. إننا بحاجة إلى إمام، بما تعنيه كلمة الإمام[1] وتختزنه من

(١) الإمام في اللغة هو الذي يؤتم به، وهو الدليل والحادي للإبل والطريق الواسع، وهو الخيط الذي يسوى به البناء، يقال: قوّم البناءَ على الإمام، انظر: المعجم الوسيط ج ١ ص ٢٦.

معنى الدليل والحادي والطريق والميزان والبوصلة الهادية لكلّ خُطانا وحركتنا، وهذا ما علينا أن نجده ونكتشفه في الحسين عليه السلام، لأنّه حقاً كان من أئمة الهدى وأعلام التقى، ولكي نعطي هذا الموضوع حقّه يجدر بنا أن نتناوله من خلال المحطات التالية:

١ـ الهداية الإلهية: تكوينية وتشريعية

في البدء علينا إلفات النظر إلى أنّ الله تعالى خلق الخلق وأراد لهم أن يسيروا في خطٍّ تصاعدي حتى يصلوا إلى أعلى درجات السمو الروحي والتكامل المعنوي، وأن يبنوا مجتمع العدل على وجه الأرض، وقد زوّدهم وأمدّهم في سبيل الوصول إلى هذه الغاية بأنواع من الهدايات:

١ـ فهناك الهداية التكوينية الشاملة والمتمثلة بتزويد الإنسان بضمير صاحٍ، يؤنب صاحبه إذا دعته شهواته وغرائزه إلى ارتكاب الفواحش والمظالم، وهو ما يسميه القرآن بالنفس اللوامة، ﴿**وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ [القيامة: ٢]، وزوّده أيضاً بفطرة سليمة ترشده إلى طريق الخير، ومنحه عقلاً سديداً يميّز به بين الحق والباطل، ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾[البلد: ١٠].

٢ـ وهناك الهداية التشريعيّة المتمثلة بإرسال الرسل والأنبياء عليهم السلام ﴿**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾[الرعد: ٧]، وقد أرسل الله معهم الكتاب السماوي هدى ونوراً، ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[البقرة: ٢]. إنّ الرسل هم عنوان الهداية، ووظيفتهم هي السعي في انتشال الإنسان من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور، ومطلوبٌ من الناس أن تقتدي بهم وتسير على هديهم ﴿**أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾[الأنعام: ٩٠].

٢ـ المهدي والهادي

وطريق الهداية ـ في طبيعته ومتطلّباته ـ ليس معبّداً بالورود، بل هو طريق مكلف، فهو يفرض على الإنسان أن يمارس نوعاً من المجاهدة مع النفس والمراقبة للغرائز ووضع حدٍّ للأنا والمطامع، وقد لا ينجح الكثيرون في الثبات على هذا الخط بسبب كثرة التحديات والإغراءات، ولكنّ سلوك هذا الخط، فضلاً عن أنّه ليس عسيراً ولا مستحيلاً، لا مفرّ منه لمن يريد أن يضمن لنفسه وأهله وإخوانه السعادة في الدارين ويحجز لنفسه مكاناً في صف الهداة والخيرين، ومن يمتلك إرادة ووعياً لن يعجزه الوصول إلى درجة الهداية، ولن يعدم الطريق ولا الأسباب المؤدية إلى ذلك، ولن يخذله التسديد الإلهي، فالله قد ضمن لكلّ من كان لديه إرادة التغيير نحو الأفضل أن يمدّه بالهدى، ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾[العنكبوت: ٦٩].

وقصارى القول: إن وصول الإنسان إلى نور الهداية رغم صعوبته يبقى ميسوراً ومتاحاً، إلا أنّ المهمّة الأصعب في هذا المضمار هي أن ينجح هذا المهتدي في أن يحوّل هدايته إلى مشروع قابل للنشر والتعميم، فلا يكتفي بأن يكون مهتدياً وينعم بنور الهداية، وإنما يسعى لينشر الهداية في الأنام فيكون هادياً لغيره، وشتّان بين أن تكون مهدياً فحسب أو أن تكون مهدياً وهادياً. إن معنى أن تكون هادياً لغيرك أنك سوف تعمل على إرشاد الآخرين وتبيّن لهم مفاسد الضلال ومخاطر الانحراف والمنكر، وهذا يفرض عليك أن تكون ناقداً لمسارات الانحراف مُنْكِراً للباطل، وهنا تبدأ الصعاب والتضحيات، حيث إنك ستكون في مواجهة مباشرة مع الذين يعملون على نشر الضلال ويعيشون على جهل الناس. لقد عاش النبي صلى الله عليه وآله وسلم أربعين سنة في قومه كان خلالها شخصاً صالحاً مهتدياً يحمل الهدى بين جنباته، ولم يكن له أعداء في هذه المرحلة بل كان موضع احترام الناس جميعاً لأنّ هدايته كانت ذاتية وشخصية فلم تتحول بعد إلى مشروع يزعج الفاسدين

والظالمين، فهو في تلك المرحلة لم يتعرض إلى مصالحهم ولم يفضح زيفهم، وأما عندما أراد أن يحوّل هدايته إلى مشروع يبشر به ويدعو الناس إليه عندها بدأ التكذيب والحصار والمواجهة، وانطلقت في وجهه شتى أنواع الاتهامات، فرُمي بالسحر والكهانة والجنون وقول الشعر إلى غير ذلك من الاتهامات.

والحسين عليه السلام أيضاً كان شخصاً مهتدياً وصالحاً وهذا ما جعله مقدّراً ومحترماً عند الكثيرين، ولم يكن ثمّة ما يمنع أن يظلّ كذلك، ويقوم بدور العابد الزاهد الممتلئ هدى وصلاحاً، ويكون مصدر بركة حتى لدى السلطة الكسروية وأتباعها، ولكنّه عليه السلام لم يكن يرتضي لنفسه أن يكون أنانياً غير مبال بالناس. بل أراد أن يروي عطش الناس وتطلّعهم إلى الهداية، لأنّه عليه السلام صاحب رسالة ويعلم أنّ الهداية مشروع تغييري، وهذا يفرض عليه أن يفضح كلّ أولئك الذين يعملون على إضلال الناس من خلال تزوير مصادر الهداية.

٣ـ الأئمة أعلام الهدى

وهداية الناس هي الغاية السامية لكل الأنبياء والأولياء، فالوظيفة الأساس التي يتلاقى عليها كل الأنبياء عليهم السلام هي مهمّة إنقاذ الناس من الضلال إلى الهدى، وإرشادهم إلى طريق النور والحق، إنّ هداية إنسان تعادل إنقاذه من الهلاك والموت، كما أنّ إضلال إنسان تعادل قتله، كما أشار إلى ذلك الحديث المروي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال :قلت له قول الله تبارك وتعالى : ﴿**مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**﴾[المائدة: ٣٢]؟ فقال عليه السلام : **من أخرجها من ضلالة إلى هدى فقد أحياها، ومن أخرجها من هدى إلى ضلال فقد قتلها**»[1].

(١) المحاسن للبرقي ج ١ ص ٢٣٢. وفي حديث آخر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قول الله في كتابه: ﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**﴾[المائدة: ٣٢] ؟ قال: **من حَرْقٍ أو غَرَقٍ**، قلت: فمن أخرجها من ضلال إلى هدى؟ فقال عليه السلام : «**ذلك تأويلها الأعظم**» المصدر نفسه.

وقد أوضح النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّ هذا الهدف السامي (الهداية) لا يعادله عند الله شيء، ففي الحديث: «قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّه عَلَيْه: **بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم إلى الْيَمَنِ وقَالَ لِي يَا عَلِيُّ لَا تُقَاتِلَنَّ أَحَداً حَتَّى تَدْعُوَه، وأَيْمُ اللَّه لأَنْ يَهْدِيَ اللَّه عَلَى يَدَيْكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْه الشَّمْسُ وغَرَبَتْ**»[1].

وهذا المعنى لم يغب عن بال عليّ عليه السلام في كلّ حروبه. ومن هنا رأيناه حريصاً أشد الحرص على تجنّب الحرب والقتل وسفك الدماء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً على أمل أن يهتدي به أحد من الناس، يقول عليه السلام: «**فَوَاللَّه مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وتَعْشُوَ إِلى ضَوْئِي وذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا وإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا**»[2].

لم يكن علي عليه السلام يحبّ قتل أحد من الناس، ولا سيما في الحروب الداخلية التي فُرضت عليه، ولذلك كان يسعى إلى تأخير الحرب ودفعها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعندما كانت تفرض نفسها عليه، كان يدخلها مكرهاً وهو مُدمى القلب دامع العين، يحدث المؤرخون أن علياً عليه السلام بعد أن انتهت معركة الجمل مرّ على القتلى المعسكر الآخر وكان يتحسر ويبدي الألم، فعندما مرّ على طلحة قال: «**إنا لله وإنا إليه راجعون والله لقد كنت كارهاً لهذا**»[3]، ومرّ على محمد بن طلحة قتيلاً فقال: «**هذا رجل قتله برُّه بأبيه وطاعته له**»[4]، ووقف على عبد الرحمان بن عتاب بن أسيد الأموي وهو قتيل، فقال عليه السلام: «**لهف نفسي عليك يعسوب قريش، قتلت الغطاريف[5] من بني عبد مناف!**» فقال له الأشتر: ما أشدّ

---

(١) الكافي ج ٥ ص ٢٨.

(٢) نهج البلاغة ج ١ ص ١٤١.

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦، ط ١، هذا مع أنّ طلحة لم يقتل على يد جيش الإمام عليه السلام، بل قتله مروان بن الحكم كما يذكر المسعودي، انظر المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٠٤.

(٥) الغطريف السيد الكريم.

جزعك عليهم يا أمير المؤمنين عليه السلام وقد أرادوا بك ما نزل بهم! فقال: «**إنّه قامت عني وعنهم نسوة لم يقمن عنك**»[1].

لقد قاتل الإمام علي عليه السلام فكان الفارس المقدام، الذي لا تخيفه كثرة أعدائه، ولكنه عندما كان يقتل إنساناً، كان يتحسر عليه أن يموت ولمّا تدخل الهداية إلى قلبه، ولم يقاتل أحداً لأنه يكرهه لشخصه، فالإمام عليه السلام ليس له عداوات شخصية مع أحد، وإنما عداوته هي في الله سبحانه، إنّه يعادي أعداء الإنسان الساعين في الأرض فساداً، وهؤلاء لا يُبغِض عليّ عليه السلام فيهم أشخاصَهم وإنّما يُبغض أفعالَهم القبيحة، ويقاتلهم لأجل مقاتلتهم للحق وخروجهم على النظام وإفسادهم وبغيهم في الأرض، أو لغير ذلك من الأسباب المبيحة لاستعمال القسوة والشدة، وإن هذا التفكيك بين الإنسان وعمله، بحيث تَكْرَهُ فيه عملَه دون شخصه لهو قمة النبل والشهامة التي لا يبلغها إلا من أوتي حظاً عظيماً، وقد ورد في الحديث عنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن الله يحب العبد ويُبغِضُ عمله**»[2]. ولا غرو فعليٌّ عليه السلام يأتي دائماً في القمة، ومنه تعلّم المقاتلون معنى أن يقاتلوا بشرف ونبل، وما إباؤه عن النظر إلى عورة ابن العاص يوم صفين إلا خير دليل على هذا النبل والتسامي!

٤ـ الحسين عليه السلام مشعل الهداية

والروحية عينها نجدها عند أبي عبد الله الحسين عليه السلام فقد سار على هدي الأنبياء عليهم السلام واقتفى سيرة جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وأبيه عليّ عليه السلام فكان مشعل الهداية، وهذا أمر لا ريب فيه، وسواء صحّ سند الرواية المأثورة القائلة: «**الحسين مصباح الهدى**»[3] أم لم يصح، فإنّ مضمونها ومعناها صحيح، فسيرة الحسين

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤١١.
(٢) نهج البلاغة ج ٢ ص ٤٤.
(٣) أشرنا في هامش سابق إلى مصدر هذه الرواية فراجع.

عليه السلام تؤكد أنّه كان مصباحَ الهدى وعلم التقى، وهو من أجلى وأبرز المصاديق لكلام أبيه علي عليه السلام عندما قال في خطبة له «في بيان صفات المتقين وصفات الفساق والتنبيه إلى مكان العترة الطيبة» قال عليه السلام: «**عِبَادَ اللَّه إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّه إليه عَبْداً، أَعَانَه اللَّه عَلَى نَفْسِه فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ، وتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِه، وأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِه النَّازِلِ بِه، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِه الْبَعِيدَ وهَوَّنَ الشَّدِيدَ، نَظَرَ فَأَبْصَرَ وذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ، وارْتَوَى مِنْ عَذْبٍ فُرَاتٍ سُهِّلَتْ لَه مَوَارِدُه، فَشَرِبَ نَهَلًا وسَلَكَ سَبِيلًا جَدَداً، قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ وتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ، إِلَّا هَمّاً وَاحِداً انْفَرَدَ بِه فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى، ومُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى وصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى، ومَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى، قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَه وسَلَكَ سَبِيلَه وعَرَفَ مَنَارَه، وقَطَعَ غِمَارَه واسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثَقِهَا، ومِنَ الْحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ، قَدْ نَصَبَ نَفْسَه لِلَّه سُبْحَانَه فِي أَرْفَعِ الأُمُورِ، مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْه وتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِه، مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ كَشَّافُ عَشَوَاتٍ مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ، دَفَّاعُ مُعْضِلَاتٍ دَلِيلُ فَلَوَاتٍ يَقُولُ فَيُفْهِمُ ويَسْكُتُ فَيَسْلَمُ**»[١].

وإننا لنقرأ في زيارة الأربعين في وصف الإمام الحسين عليه السلام أنّه الإمام «الهادي المهدي»: تقول الزيارة «**وأشهد أنك الإمام البر التقي الرضي الزكي الهادي المهدي، وأشهد أنّ الأئمة من وُلدك كلمة التقوى وأعلام الهدى والعروة الوثقى والحجّة على أهل الدنيا**»[٢]. وهذا الوصف يتكرر في مخاطبة أكثر من إمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام في الزيارات المختلفة أو الصلوات الخاصة التي يُصلى بها عليهم، سواء فيما روي عن الأئمة عليهم السلام في ذلك أو فيما أنشأه بعض الأعلام[٣].

وعندما يكون الحسين عليه السلام مشعل هداية، فهذا يحتّم علينا أن نلمّ بسيرته

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ١٥١.

(٢) مصباح المتهجد ص ٧٢١، وتهذيب الأحكام ج ٦ ص ١١٤.

(٣) انظر: مصباح المتهجد ص ٤٠١، ٤٠٧، ٤١٣، ٧٢١، ٧٤٨، ٧٥١، ٧٨٩.

بأجمعها، ونأخذه بكلّه وليس مجزّأً، وأن نستحضر تراثه العلمي والروحي، دون أن نقصر معرفتنا به واهتمامنا بذكراه في خصوص أيام عاشوراء وما جرى في كربلاء، إنّ من واجبنا أن نعمل على فتح الصفحات الأخرى من كتاب الإمام الحسين عليه السلام وهي صفحات مشرقة، سواء فيما يتّصل بطفولته وحياته مع جده صلى الله عليه وآله وسلم وأبويه عليّ وفاطمة عليهما السلام، أو فيما يتّصل بمواقفه في زمن المشايخ الثلاثة أو ما يتصل بحضوره مع أبيه علي عليه السلام عندما تولى خلافة المسلمين، أو ما يتصل بحياته ومواقفه إلى جانب أخيه الإمام الحسن عليه السلام، وفي كل هذه المحطات سوف نجد تراثاً مليئاً بكلّ ما يُغني الروح ويُثري الفكر والعقل ويُسدّد الخطى، ولا بدّ من التنويه هنا ببعض الجهود الطيبة لجمع تراثه[1].

لقد قام الإمام الحسين عليه السلام بمهمّة الهداية منذ سنِيّ عمره الأولى، وهذا شيء طبيعي، فهو من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، بنصّ القرآن، وهو إمام قام أو قعد، كما وصفه النبي الأكرم. واستمر في هذا الخط الرسالي إلى آخر عمره، ففي عاشوراء لم تمنعه كثرة الأسنّة التي كانت مسدّدة إلى قلبه ونحره ولا عنف الألسن التي كانت تنال منه من أن يظهر معدنه الأصيل الذي يتضوّع بالمحبة والرحمة حتى على قاتليه، كما يقول الأديب الخطيب الشيخ أحمد الوائلي رحمه الله:

ورأيتك الفكر الحصيف يشقُّ ... أستار الغيوب ويستشفُّ بعيدا
ورأيتك النفس الكبيرة لم تكن ... حتى على مَنْ قاتلوك حقودا

ولذا وجدناه عليه السلام حريصاً على هداية أعدائه مشفقاً عليهم حتى لا يتورّطوا في جريمة سفك دمه، فيحلّ عليهم غضب الله، فقد روي أنّ الإمام عليه السلام طلب أن يختلي بعمر بن سعد فلما التقيا قال له: «**ويحك يا بن سعد! أما تتّقي الله**

(١) من ذلك: كتاب كلمات الإمام الحسين عليه السلام، وموسوعة الإمام الحسين عليه السلام.

الذي إليه معادك أن تقاتلني؟ وأنا ابن من علمت يا هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاترك هؤلاء وكن معي فإني أقرّبك إلى الله عز وجل! فقال له عمر بن سعد: أبا عبد الله! أخاف أن تُهدم داري، فقال له الحسين عليه السلام: **أنا أبنيها لك.** فقال: أخاف أن تُؤخذ ضيعتي، فقال الحسين: **أنا أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز.** قال: فلم يجب عمر إلى شيء من ذلك»[١].

وتقول الروايات التاريخية إنّه وقبيل بدء المعركة يوم عاشوراء ركب الحسين عليه السلام على فرس له ثم توجه إلى الجيش الذي أحاط به من كل جانب بنداء المُحبِّ الحريص على هدايتهم، والمشفق عليهم، فقد ناداهم بأعلى صوته: «**أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما لحقٍّ لكم عليّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم، ﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾**[يونس: ٧١] **﴿إِنَّ وَلِيِّـيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾**[الأعراف: ١٩٦][٢].

وربما تسأل: كيف يكون الحسين عليه السلام أو غيره مصباحاً للهداية؟ وهل تخفى معالم الهدى حتى تحتاج إلى مصباح؟!

والجواب: نعم، إنّ طريق الهدى قد تختفي معالمه، وتضيع حدوده، نتيجة لغلبة الأهواء على المبادئ وتقدم المصالح على القيم، وعندها يلبس الضلال لَبوس الهدى والكفر لباس الدين، فلا يكاد الإنسان حينها أن يميّز طريق الهدى من طريق الضلال، يقول الإمام علي عليه السلام متحدّثاً عن الفتنة المشبَّهة: «**فَلَوْ أَنَّ**

(١) الفتوح ج ٥ ص ٩٢.
(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٢٢.

الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ، ولَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ، انْقَطَعَتْ عَنْه أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ، ولَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ ومِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ، فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِه ويَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّه الْحُسْنَى»(١).

وفي مثل هذه الحالات التي يشتبه فيها الحقّ بالباطل ويزحف الظلام سعياً لإطفاء نور الهدى يبرز دور الأئمة الهداة ليكونوا الميزان والفاروق الذي يميّز الحقّ من الباطل، ويوضّح للناس طريق الهداية ﴿**لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ**﴾[النساء: ١٦٥].

٥ـ الشهادة الهادية

وقمة الجهاد والسعي الهدايتي عند الإنسان الرسالي هو أن يحوّل دمه مشعلاً للهداية، فتكون شهادته خطاً للهداية، ومصباحاً للنور، ومقصداً يتطلّع إليه كل من يروم التغيير، وهذا ما فعله الإمام الحسين عليه السلام فعندما رأى الظلام دامساً والضلال سائداً والباطل منتشراً قرر أن يضيء مصباح الهداية للآخرين، فكان دمه الشريف هو الزيت الذي يمدُّ ذاك المصباح بالضوء حتى لا يخبو نوره على مدى الأزمان، صحيح أنّ الحسين عليه السلام كان طوال عمره الشريف قائماً بهذه المهمّة الجليلة، عنيت بها مهمّة الهداية، من خلال مواقفه ومواعظه، بيد أنّه وفي ذروة احتدام الصراع بين الحق والباطل، وعندما رأى الخطر محدقاً بالرسالة الإسلامية، من خلال العمل على تزوير المفاهيم الدينية، قدّر عليه السلام أنّ إيقاف سُحُب الظلام الآخذة بالتمدّد على حساب نور الرسالة الإسلامية وهديها، وأن مواجهة الذين يعملون على تجهيل الناس وإطفاء نور الهداية في المجتمع لم يعد يجدي فيه اعتماد أساليب الوعظ والإرشاد، فالأمور بلغت حداً يحتاج إلى

(١) نهج البلاغة ج١ ص ٩٩.

سلوك طريق مختلف عن ذلك كله، إنّه طريق التضحية والفداء، فقرر عليه السلام أن يفتدي الدين بأغلى ما يملك، ولو بأن يبذل نفسه المباركة فداء لذلك، فخرج من مسقط رأسه ومأنس نفسه قاصداً مكة المكرمة ودخلها مستعيناً ومستهدياً بالله تعالى، وكان يردد عند مسيره إليها قول الله تعالى: ﴿**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾[القصص: ٢٢][1]. وأخال أن الإمام الحسين عليه السلام عندما تلا هذه الآية المباركة كان يدرك بوضوح أنّه أمام مهمّة ثقيلة ولعلّها من أصعب المهمات وأثقلها، ولذا فهي تحتاج إلى هداية الله وتسديده وعنايته. ثمّ ترك عليه السلام مكة المكرمة حتى لا تُنتهك حرمة البيت بقتله فيه، وأكمل المسيرة إلى كربلاء حيث الملحمة التاريخية الخالدة، حيث معركة الطهر والصلاح مع الفساد، والهدى مع الضلال، والنور مع العتمة، والحق مع الباطل، والعدل مع الظلم، وفي معركة كهذه فإنّ سنة الله واضحة وماضية ولا تتخلف. لا بدّ أن ينتصر النور على الظلمة، والهدى على الباطل، قال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُون**﴾[التوبة: ٣٢].

ظنّوا بأن قتلَ الحسينَ يزيدُهُم ... لكنّما قتلَ الحسينُ يزيدا

وهكذا نعي جيداً معنى أن يكون الحسين عليه السلام مصباح الهداية، إنّ معنى ذلك بكل اختصار:

١ـ أنّه استطاع أن يكشف الزيف والخداع الذي مورس على الأمة، وأن يعرّي كلّ أولئك المتخاذلين والمتواطئين والفاسدين. وأن يفضح كلّ محاولات تزوير الدين وإلباس الباطل لبوس الحقّ، تماماً كما يكشف المصباح الضوئي عتمة الليل ويبدّد سحب الظلام.

٢ـ وفوق ذلك كلّه فقد استطاع أن يشقّ طريق الهداية للأجيال، إنّها هداية

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥٤، والإرشاد ج ٢ ص ٣٦.

الشهادة التي لا تعدلها هداية، وعطاؤها الذي لا ينضب، فالكلمات والمواعظ على أهميتها لا يمكن أن تؤثر في الأمة كما تؤثر فيها الدماء الزاكية.

بدمه المبارك وبذبيحه عبد الله الرضيع وبتضحياته الجسام وبمواقفه ونداءاته التي أطلقها على مسامع التاريخ في صحراء كربلاء، بذلك خطّ الحسين عليه السلام منهج الهداية للأجيال كلها، وغدا علماً ومشعلاً يحمله الثوار والأحرار.

٦ـ عاشوراء مدرسة الهداية

إنّ قيمة عاشوراء في أنّها موسم ومدرسة للهداية، وليست موسماً لاسترجاع أحداث التاريخ بطريقة قصصية جامدة لا تغيّر في الواقع شيئاً، ولذا فعندما نحتفل بعاشوراء ونستعيد ذكرى الحسين عليه السلام فلا بدّ أن نلاحظ مدى مساهمة إحيائنا لهذه الذكرى العظيمة في تهذيب النفوس وإصلاح الواقع وهداية العباد إلى الحق والخير.

إنّ مقياس نجاحنا في إحياء عاشوراء ليس في كثرة البكاء وذرف الدموع ولا في تزايد مجالس العزاء ولا كثرة الإطعام ولا في ارتفاع عدد الزائرين للحسين عليه السلام والقاصدين إلى كربلاء، وليس في كثرة السواد الذي يغطّي مدننا وقرانا، وإن كان ذلك كله مشروعاً ومطلوباً، وإنما المقياس هو في مدى مساهمة هذه الإحياءات في تغيير واقعنا من السيىء إلى الحسن، ومن الحَسن إلى الأحسن.

ومن خلال مصباح الحسين عليه السلام لا بدَّ لي أن أسجّل نقداً لواقعنا، فهذا المصباح يعرّينا ويكشفنا! إذ لك أن تسأل: أين الأمة التي تلطم الحسين وتندبه من هدي الحسين ومشروعه؟ أين هي على صعيد مكافحة الفساد؟ أين هي على صعيد التماسك والتكافل الاجتماعي؟ أين هي على صعيد بناء الدولة العادلة

التي كان يتطلّع إليها أبو عبد الله الحسين؟! أين هي في مجال حمل مصباح الحسين عليه السلام إلى البشرية جمعاء؟! أين هي على صعيد القيم والأخلاق التي حرصت ثورة سيد الشهداء على مراعاتها واستهدفت حفظها؟!

هل يكفينا أن نبكي الحسين عليه السلام ونحن نحمل أخلاق يزيد؟! هل يكفي نساءنا أنّ تتلوى ألماً لسبي زينب ولا تسعى لتجسد قليلاً من عفة زينب؟! هل يكفينا أن نلبس السواد على الحسين ونحن لا نحمل في قلوبنا شيئاً من طهر الحسين عليه السلام ؟!

وتتوالى الأسئلة ولا نجد لها جواباً مقنعاً! إنّها لمفارقة عجيبة! أن نكون الأمة التي تمتلك الحسين عليه السلام ومع ذلك فنحن بهذه الحالة المزرية، ما السر يا ترى وأين مكمن الخلل؟

السرّ أننا نمتلك الحسين عليه السلام اسماً وشعاراً وليس فعلاً هادياً ومناراً، لقد استطعنا ببراعة أن نخرج هذه الثورة عن فاعليتها وحوّلناها إلى طقوس نتقن أداءها وتمثيلها، وبذلك اقتربنا من الحسين بما نحب ونهوى، وابتعدنا عنه كما يحب ويهوى! اقتربنا منه على طريقتنا وابتعدنا عنه وفقاً لطريقته! وهذا في الواقع هو أدهى وأذكى عمل يمكن أن يقوم به الإنسان بحيث إنه وبدل أن يتمثل المقدّس قولاً وفعلاً، باطناً وظاهراً، فإنه يسعى إلى تمثّله تمثلاً شكليّاً وإلى تفريغه من مضمونه ومحتواه الروحي والحركي! لكنّ هذا الذكاء هو ذكاء شيطاني وليس رحمانياً! وسيعود بالضرر على الإنسان نفسه.

٧ـ لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة سالكيه

ولكنّنا مع ذلك لا نريد أن نكون يائسين أو مبشِّرين باليأس، فالأمل هو جزء من عقيدتنا، ومن هنا فإنّنا نتطلّع إلى الرساليّين في هذه الأمة ونعوّل عليهم بأن يتحمّلوا مسؤولياتهم ليصحّحوا الانحراف ويُزيلوا العوائق التي تَحُول دون

أن تقوم هذه النهضة الحسينية بالتأثير المطلوب والحيويّة والفاعلية الحقيقية، ولا سيما في هذه المرحلة الحساسة والخطيرة من تاريخنا. لأنّ معنى أن تكون حسينياً وتنتسب إلى الحسين عليه السلام بالفكر والروح هو أن تكون ـ كما كان الحسين عليه السلام ـ مصباحاً للهداية، وصوتاً للحق، فتفكّر في هداية الناس وإنقاذهم من براثن الضلال، وتقف بحزم في وجه كلّ الذين يعملون على إفساد العباد وإضلالهم، وعليك في هذا المسير أن توطّن النفس على تحمل المصاعب والأذى. سيتربص بك الكثيرون ويكيدون لك ويزرعون الأشواك في طريقك، ويعملون على وضع العراقيل في وجهك، ويسعون إلى فضّ الناس وتفريقهم عنك، باستخدام أساليب الترغيب والترهيب، وقد تجد نفسك في كثير من الأحيان تسير عكس التيار، أو تتحرّك وحيداً، فعليك في مثل هذه الحالات وفي مواجهة التحدّيات أن تلتجىء إلى الله تعالى وتتحلّى بالصبر والثبات، ولا تشعر بالوحدة أو الوحشة، كما قال الإمام علي عليه السلام: **«لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة سالكيه»**[1].

وعليك في هذا الطريق أيضاً أن تستهدي الحسين عليه السلام وتستلهم مواقفه، فقد كان لسان حاله ومقاله في أصعب الظروف التي مرّت به والمصائب التي نزلت عليه يترنم قائلاً: **«هوّن ما نَزَلَ بي أنّه بعين الله»**[2]! فلم تكن كثرة المصائب النازلة عليه لتكسر إرادته ولم تكن كل تلك الآلاف المؤلّفة الواقفة في وجهه لتفتّ من عضده أو توهن عزيمته أو تشوّش بصيرته الثاقبة. بقي يعيش حالة من الفرح الروحي اللامحدود، ومن خلال هذا الفناء والانصهار في ذات الله كان يرى ـ بعين الله ـ بأن دمه المسفوح ظلماً على رمضاء كربلاء سيجرف عروش الظالمين، ويتحوّل إلى نبراس للهداية تستضيء منه البشرية جمعاء.

---

(١) نهج البلاغة ج٢ ص١٨١.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف ص٦٩.

المحور الثالث
الحسين عليه السلام مهاجراً إلى الله تعالى

أن يحطّ الحسين عليه السلام رحاله في أرض كربلاء في الثاني من شهر محرم الحرام أي مع بدء العام الهجري[1]، فتلك ربما كانت مصادفة، إلا أنّها مصادفة رائعة لا تنفك ـ ككل أحداث التاريخ ـ عن التقدير والتخطيط الإلهيين، وهو ما يشكّل حافزاً إضافياً يدفعنا إلى عقد نوعٍ من المقارنة بين هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وهجرة الحسين عليه السلام إلى الكوفة، ونطلُّ من خلال ذلك على مفهوم الهجرة في الإسلام وأبعادها بشيء من التفصيل.

١ـ الهجرة النبوية في بعدها الاستراتيجي

من الأهمية بمكان أن نسلط الضوء في البداية على الهجرة النبوية في بعدها التاريخي، فإنّه وبعد معاناة طويلة وتحمّلٍ لشتى صنوف الأذى والعذاب التي عانها المسلمون في مكة المكرمة سمح النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه حماية لهم وحفظاً لدينهم بالهجرة منها، وكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة، وهي البلاد التي اختارها لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يقول الزهري: «لما كثر المسلمون وظهر الإيمان وتُحدِّث به، ثار ناس كثير من المشركين من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم فعذبوهم وسجنوهم وأرادوا فتنتهم عن دينهم، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: تفرقوا في الأرض، فقالوا: أين نذهب يا رسول الله؟ قال: **ههنا**، وأشار إلى الحبشة، وكانت أحبَّ الأرض

(١) هذا مبني على ما هو الصحيح والمشهور من أنّ السنة الهجرية تبدأ مع غرّة شهر محرم الحرام.

إليه أن يهاجر قِبَلها، فهاجر ناس ذوو عدد من المسلمين، منهم من هاجر معه بأهله، ومنهم من هاجر بنفسه حتى قدموا أرض الحبشة»[1].

ثمّ تلتها الهجرة الثانية والأوسع، والتي مثّلت منعطفاً أساسياً في التأريخ الإسلامي، وقد ضمّت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكافة أصحابه، وكانت الوجهة هذه المرّة هي «يثرب» المدينة التي سيصبح لها شأن عظيم فيما بعد، وذلك منذ أن دخلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واتخذها عاصمة الدولة الإسلامية، وبنى فيها قاعدةً صلبة من المؤمنين برسالته، وانطلقت منها حركة الإسلام الكبرى إلى العالم، وكان العنصر الممهد الذي هيّأ الظروف لانتقاله صلى الله عليه وآله وسلم إليها هو انخراط عدد من أهل يثرب في الدين الجديد ممن بايعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الإسلام والنصرة، ثم لحقهم عدد من أصحابه صلى الله عليه وآله وسلم وبنى هؤلاء أرضية طيبة، فتبعهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما رأى أنّ الظروف مهيأة وتسمح له بالانتقال إليها.

٢ـ الهجرة: انتقال من وطن إلى وطن

والهجرة المتمثّلة بترك الإنسان المسلم لبلاده التي لا يتمكن فيها من إقامة شعائره وواجباته الدينية، ولا يُسمح له فيها بالتعبير عن آرائه وقناعاته لم تنقطع ولم ينسدّ بابها، بل هي مستمرة ما دام هناك ظلم وطغيان، والأساس الشرعي لذلك أنّ ثمّة مسؤولية دينية تحتّم على المسلم أن يفكر بتوفير البيئة الملائمة التي تمكّنه من حماية انتمائه الديني والانسجام مع قناعاته، وكذلك عليه أن يسعى لحماية انتماء أبنائه وحفظ هويتهم الدينية واستقامتهم الأخلاقية بالقدر عينه ـ بل أكثر ـ الذي يسعى فيه لحفظهم من المخاطر الدنيويّة وتأمين مستقبلهم وتوفير لقمة العيش الكريم لهم، وهذا ما أكّد عليه القرآن الكريم عندما حدثنا عن عدم وجود عذر للأشخاص الذين أضاعوا دينهم بسبب اختيارهم العيش

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٢٠٤.

في بلاد لم يتمكنوا فيها من حفظ دينهم، ورفضوا الهجرة منها إلى بلاد أخرى يتمكنون فيها من معرفة واجباتهم الشرعية ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾[النساء: ٩٧]، فالله تعالى لم يعذرهم على ترك الالتزام الديني بدعوى أنهم مستضعفون، اللهم إلا إذا بلغ بهم الاستضعاف والاضطهاد حداً جعلهم عاجزين عن الهجرة، ولذا أضافت الآيات قائلة: ﴿**إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾[النساء: ٩٨ ـ ٩٩]، وتضيف الآيات الكريمة بأنّ على الإنسان أن لا يحجزه خوف العيش أو يمنعه عن الهجرة في سبيل الله، فالله تعالى يتكفّل له بالرزق، ويهيّىء له سبل العيش الكريم. ولو أنّ الإنسان هاجر حفظاً لدينه وتوفاه الله في هذا الطريق، فإنّ أجره سيقع على الله تعالى، يقول تعالى: ﴿**وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ [النساء: ١٠٠].

إنّ الارتباط بالوطن أمر مطلوب ومحبوب شرعاً وعقلاً، وعلى الإنسان أن يحرص على حماية وطنه والدفاع عنه وبذل المال والدم في سبيل تحريره، ولكنْ إذا غلبت أجواء الفساد على بلده ولم يكن قادراً على التغيير بل كان بقاؤه فيه سبباً لوقوعه في الانحراف عن سبيل الله أو التخلّي عن أخلاقه ومبادئه أو انسحاق كرامته، فاللازم عليه في هذه الحالة أن يقدّم حفظ دينه واستقامته وكرامته على كل اعتبار، ولو كلّفه ذلك الخروج المؤقّت من بلده إلى بلد آخر، فأرض الله واسعة، وكل بلد يتمكّن فيه من القيام بمسؤولياته وحفظ كرامته هو وطن، قال تعالى: ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**﴾[العنكبوت: ٥٦].

إنّ الوطن هو الموئل الذي يهيّئ لك أن تعيش فيه بكرامتك وتمارس في ربوعه حريتك وقناعاتك الدينية والفكرية، وأمّا إن فقدت ذلك في بلدك رغم كلّ الجهود التي بذلتها، بحيث انعدمت فرص التغيير أمامك، فإنّه يفقد معنى الوطن، وتغدو الهجرة منه أفضل، عن الإمام علي عليه السلام: «**ليس بلد أولى بك من بلد خير البلاد ما حملك**»[1].

ومن هنا وقف الإسلام موقفاً رافضاً وصارماً مما أسمته النصوص الدينية بـ«التعرب بعد الهجرة»، وعدته من كبائر الذنوب[2]، والوجه في ذلك واضح، فإنّ التعرّب بعد الهجرة هو عبارة عن ارتحال الإنسان من البيئة التي تمكّنه من حفظ انتمائه الديني إلى بيئة لا يتمكن فيها من ذلك، فيعود أعرابياً متخلّفاً بعد أن دخل في الإسلام، والأعرابي كان مثالاً للإنسان البعيد عن المعرفة والتدين، وقد قال تعالى: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً**﴾[التوبة: ٩٧]، والهجرة إلى البلاد غير الإسلامية في زماننا هذا محكومة بهذا المبدأ، أي لو أنّ المهاجر إليها لم يتمكّن من القيام بواجباته الدينيّة، ما يؤدي إلى نقص في دينه وضعف في إيمانه، أو أدت هجرته إليها إلى الانحراف عن الدين أو تركه رأساً لا سمح الله فستكون هجرته إليها محرّمة دون شك، وأمّا إذا كان المهاجر إليها متمكناً من حفظ دينه وممارسة قناعاته فلا ضير في الهجرة. ولو أنه كان متمكناً وقادراً ليس على حفظ دينه في ربوع البلاد الأخرى فحسب بل ونشره وإيصاله إلى الآخرين فسوف تغدو الهجرة إليها عبادة وجهاداً في سبيل الله.

وعلينا أن ننبّه هنا إلى أنّ المسلم ليس مسؤولاً عن نفسه فحسب، بل هو مسؤول ـ أيضاً ـ عن أولاده وأهله وعائلته، وذلك بأن يسعى لحفظ انتمائهم الديني وأن

---

(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ١٠٣.

(٢) ففي صحيحة مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع قَالَ سَمِعْتُه يَقُولُ: «**الْكَبَائِرُ سَبْعٌ: قَتْلُ الْمُؤْمِنِ مُتَعَمِّداً وقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ والْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ والتَّعَرُّبُ بَعْدَ الْهِجْرَةِ وأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ظُلْماً وأَكْلُ الرِّبَا بَعْدَ الْبَيِّنَةِ وكُلُّ مَا أَوْجَبَ اللَّه عَلَيْه النَّارَ**»، انظر: الكافي ج ٢ ص ٢٧٧.

يوفّر لهم الغذاء الروحي كما يوفّر لهم الغذاء المادي، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾[التحريم: ٦]. وتحقيق هذا الهدف لا يتم بجهود فردية، فأنت مهما كانت قدراتك لا تستطيع أن تغيّر مجتمعاً برمته، ولذا كان من الأهميّة بمكان أن تتظافر جهود المهاجرين وأن يسعوا إلى تأمين البيئة الإسلامية الملائمة لحفظ انتمائهم وانتماء أبنائهم والتزامهم الديني، لأنّ البيئة والأجواء العامة قد تؤثر على الأولاد وصياغة أفكارهم وسلوكياتهم أكثر من تأثير أهاليهم عليهم، ونحن نُقَدِّرُ لبعض المسلمين ثقتهم بأنفسهم في مجال تربية أبنائهم ولكنّنا نلفت نظرهم إلى أنه ليس من الصحيح أن يغترّوا أو يبالغوا في قدراتهم على حفظ دين أبنائهم وانتمائهم مهما كانت أجواء الانحراف والفساد المحيقة بهم، وليس من الصحيح أن يتّخذ الشخص نفسه مقياساً، فهو ربما عاش أجواءً إسلامية في وطنه الأم ما جعل لديه مناعة على هذا الصعيد، ولكن أولاده هم أولاد بيئة أخرى وثقافة مختلفة. ومن هنا يكون من أولى الأولويات بالنسبة لمسلمي الاغتراب أن يسعوا حيث هم إلى تأمين البيئة الإسلامية الحاضنة لهم ولأولادهم، وأن يهيئوا الظروف الاجتماعية الملائمة لبناء مجتمع إسلامي مصغر ينفتح على المجتمع الكبير دون أن ينصهر فيه بما يعرّض المسلم للانحراف أو يلغي خصوصيته أو يفقده هويته.

وأعتقد أنّ المؤسسات التربويّة والتعليميّة والاجتماعية تشكّل مرتكزاً أساسياً لهذه البيئة، بالإضافة إلى المساجد والمراكز الدينيّة، ومن الأهميّة بمكان نسج شبكة من العلاقات الاجتماعيّة بين المهاجرين وإيجاد أطر للتواصل فيما بينهم، بما يسمح بتلاقيهم في مناسبات الفرح أو الحزن، ويهيئ الأرضية لإقامة صداقات فيما بينهم. وأعتقد أنّه من الهام أن يحرص المهاجرون على أن يقوموا مع أبنائهم وبناتهم بين الفينة والأخرى بزيارات إلى الأوطان الإسلاميّة ولا سيّما وطنهم

الأم، ليتعرّفوا على أقاربهم وليرتبطوا بهم ويبنوا شبكة علاقات وصدقات فيها، ليظلّ الانتماء إلى هذه البلاد حياً في نفوسهم. إنّ مشكلة البعض من المغتربين أنّهم ينخرطون مع أبنائهم في أجواء غير إسلامية ولا يستيقظون إلا بعد فوات الأوان.

٣ـ هجرات متعددة وأهداف متقاربة

وغير بعيد عما تقدم، فإنّ ثمّة مستويات أخرى من الهجرة المشروعة، والتي تفرضها ظروف الحياة على الإنسان، أو يفرضها الواجب الأخلاقي أو الرسالي عليه، فتكون مطلوبة ومرغوبة، وقد أشارت النصوص الدينية إلى بعض هذه الهجرات، وهذه أهمها:

أ ـ الهجرة الجهادية

من أسمى أنواع الهجرة وأعظمها أجراً وفضلاً وأبلغها أثراً هي الهجرة الجهادية، حيث يترك المسلم بيته وأهله وأحبابه، ويفارق الراحة وينطلق ملبياً نداء الواجب الذي يدعوه للجهاد في سبيل الله ومواجهة الظالمين وبذل غاية الجهد في سبيل تحرير البلاد من رجسهم، أو يدعوه للدفاع عن المستضعفين والمظلومين، أو يستحثّه للمرابطة على ثغور المسلمين، بهدف حمايتها من هجمات الأعداء، ومن هنا نفهم ما ورد في العديد من الأخبار من ربط الهجرة بالجهاد، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أيّها الناس هاجروا وتمسّكوا بالإسلام، فإنّ الهجرة لا تنقطع ما دام الجهاد**»[1]. وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**لن تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار**»[2]. وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل**»[3].

(١) مجمع الزوائد للهيثمي ج٩ ص٣٩٥.
(٢) المصدر نفسه ج٥ ص٢٥١، والسنن الكبرى للنسائي ج٤ ص٤٢٧.
(٣) مسند أحمد ج١ ص١٩٢، ومجمع الزوائد ج٥ ص٢٥٠.

ب ـ الهجرة الروحيّة

ومن مصاديق الهجرة لله تعالى: الهجرة التي يترك فيها المسلم وطنه قاصداً زيارة مقام ديني (الكعبة المشرفة والمسجد الحرام، والمسجد النبوي وقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، المسجد الأقصى، مقامات الأئمة عليهم السلام والصالحين)، سواء كان قاصداً التوطّن بجوار النبي أو الولي أو عازماً على الرجوع إلى بلده، ونستطيع أن نسمّي هذا النوع من الهجرة بالهجرة الروحية، لأنّ هدفها الأساس ـ فيما نفهم من تشريع الزيارة والحثّ عليها ـ هو التزود الروحي والاستمداد المعنوي من المزور، بالإضافة إلى أهداف أخرى.

ج ـ الهجرة المعرفية

وهناك نوع ثالث من الهجرة، وهو ما يمكن أن نسميه بالهجرة المعرفية، حيث يهاجر المرء إمّا بهدف لقاء إمام من أئمة الهدى بغية التزوّد الثقافي والمعنوي منه والاقتباس من معينه[1]، وإمّا بقصد السفر إلى الحواضر العلميّة طلباً للمعرفة، سواء كان يقصد اكتساب المعرفة والتخصص في العلوم الطبيعية أو الإنسانية، ليعود بعد ذلك إلى وطنه ليشتغل فيما ينفع الناس، أو كان يقصد التخصص في العلوم الدينية. وهذه الأخيرة من أسمى أنواع الهجرات المعرفيّة حيث يتغرّب الإنسان عن وطنه لأجل التفقه في الدين، ليكون مبلغاً لدين الله، لا يداهن ولا يصانع على حساب القيم والمبادئ، ويقول كلمة الحق، دون أن تأخذه في الله لومة لائم، أو يكون فقيهاً مجتهداً في فهم النصوص حارساً للدين ساعياً لمواكبة المستجدات وملاحقة الشبهات. إنّ هذه الهجرة هي ـ بحق ـ من أقدس الهجرات

---

(١) في الرواية أنّ زرارة بن أعين وجّه ابنه عبيداً إلى المدينة ليستخبر له خبر أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام وعبد الله (هو ابن الإمام الصادق)، فمات (زرارة) قبل أن يرجع إليه عبيد ابنه. قال محمد بن أبي عمير: حدثني محمد بن حكيم قال : ذكرت لأبي الحسن عليه السلام زرارة وتوجيهه عبيداً ابنه إلى المدينة، فقال: إني لأرجو أن يكون زرارة ممن قال الله فيهم: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ﴾[النساء: ١٠٠]، انظر: تفسير العياشي ج١ ص٢٧١. ورجال الكشي ج١ ص٣٧٣.

وأفضلها عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[التوبة: ١٢٢].

وينسب إلى الإمام علي عليه السلام قوله شعراً:

«تغرَّب عن الأوطـان في طلب العلى
وسـافـر ففي الأسـفـار خمس فوائد
تــفــرج هَـــمّ واكـتــسـاب معيشة
وعـلـم وآداب وصحبة مــاجــد»(١).

د ـ الهجرة المعيشية

والهجرة من أجل طلب الرزق الحلال، هي الأخرى من أنواع الهجرة المشروعة والمرغوبة، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً**﴾[النساء: ١٠٠]، ولا نجانب الصواب إذا قلنا: إنّ هذه الهجرة هي أيضاً نوع جهاد في سبيل الله تعالى، أمّا أنها جهاد فلأنّها محفوفة بالمشاق والمخاطر، فما أصعبها على الإنسان أن يترك أهله وخلانه ثم يسير في الأرض ويطوف البلدان، فيعيش بعيداً عن وطنه ومسقط رأسه ومأنس نفسه ومرابع صباه، متحملاً العناء والتعب والغربة، سعياً وراء الرزق الحلال وليكفّ وجهه عن الناس! وهذا (طلب الرزق الحلال) في الواقع هو ما يعزيه ويخفف عنه وطأة السفر وآلامه، إنّ دار الهجرة الجديد إذا كان محققاً للطموح والآمال فسوف يشكّل موطناً جديداً للمسافر، لأنّه كما قال الإمام علي عليه السلام: «**الغنى في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة**»(٢).

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام، ص٨٧، وحول صحة نسبة هذا الديوان إليه راجع كتابنا «المرأة في النص الديني»، وهذان البيتان نُسبا إلى الإمام الشافعي، انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج ٤ ص ١٠٨.

(٢) نهج البلاغة ج٤ ص١٤.

وأمّاً أنّ هذه الهجرة هي في سبيل الله، فلأنّ عمل الإنسان في سبيل إعالة نفسه وأهله وأولاده هو عمل محبوب ومرضيٌّ عند الله تعالى، ويثاب العبد عليه، ففي الحديث عن رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّه فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إلى اللَّه مَنْ نَفَعَ عِيَالَ اللَّه وأَدْخَلَ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ سُرُوراً**»(١). وهذا في الواقع من بدائع ما جاء به الإسلام، حيث إنه وسّع مفهوم العبادة ولم يقصرها على مجرد الصلوات والصيام والذكر والدعاء، وإنما رأى أنّ كل نشاط في سبيل تطوير الحياة الإنسانية نحو الأفضل هو عبادة، وكل عمل يوجب تخفيف معاناة الناس أو يساعد على تواصل الناس وتلاقيهم على الخير والهدى هو ـ أيضاً ـ عمل عبادي يتقرب به إلى الله تعالى، لكنّ البعض وإلى يومنا هذا ما زالوا عاجزين عن فهم هذا الأمر جيداً، فأوجدوا شيئاً من الخصومة بين الدين والدنيا، وتخيلوا أن العبادة هي اعتزال الناس والتفرغ للذكر والدعاء!

هـ ـ الهجرة من المعاصي: الجهاد المستمر

ولعل من أهم الهجرات المطلوبة هي تلك الهجرة التي لا تستدعي ترك الإنسان لوطنه وسفره إلى بلاد أخرى، وإنّما تستدعي هجرته للمعاصي والسيئات، والسفر إلى لقاء الحبيب، قال تعالى: ﴿**وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾[المدثر: ٥]، وهذه الهجرة هي ـ من جهة ـ مستمرة ولا تنقطع أبداً، فعلى الإنسان المؤمن أن يظلَّ في حالة سفر دائم إلى الله تعالى، ويمكننا القول: إنّ هذا السفر ـ في الواقع ـ هو سفر من ديار الغربة إلى الوطن الحقيقي، حيث رضوان الله والأنس بقربه، كما أنّها ـ من جهة أخرى ـ شاملة لكل العباد، فكل إنسان معني بأن يبذل جهده ويحاسب نفسه للحؤول دون الوقوع فيما يغضب الرب، وإذا ما وقع العبد في أسر الشهوات، نتيجة ضعفٍ في إرادته فعليه أن يبذل الجهد لكسر الطوق وتحرير

(١) الكافي ج ٢ ص ١٦٤.

نفسه من السجن، ويهاجر من سجن الغرائز وقفص الأنانيات الضيّقة التي تشدّه نحو ارتكاب ما يكرهه الله من المعاصي، في الخبر: «قال رجل: يا رسول الله! أي الهجرة أفضل؟ قال: **أن تهجر ما كره ربك عز وجل**»[1]. وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الهجرة خصلتان: إحداهما أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله تعالى ورسوله، ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة**»[2].

وفي رواية أخرى: عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**أقم الصلاة، وأدِّ الزكاة، واهجر السوء، واسكن من أرض قومك حيث شئت، تكن مهاجراً**»[3].

ويمكننا القول: إنّ هذا النوع من الهجرة هو من أفضل أنواع الهجرة، وهو يكتسب شرفه وفضيلته من الغاية التي كان لأجلها، حيث إنّ المهاجر هنا يطلب رضوان الله تعالى، فهو لا يهاجر لمالٍ يصيبه أو دنيا ينالها، وإنّما يهاجر لله وفي الله تعالى. في الحديث عن أم أنس أنّها قالت: يا رسول الله أوصني، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أهجري المعاصي، فإنّها أفضل الهجرة، وحافظي على الفرائض فإنّها أفضل الجهاد، وأكثري من ذكر الله، فإنّك لا تأتي الله بشيء أحبّ من ذكره**»[4].

إنّ هذه الهجرة هي التي أسماها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالجهاد الأكبر، ولا يخفى سبب هذا التوصيف، فهي تحتاج إلى عناء وجهد كبيرَيْن في مواجهة النفس الأمّارة بالسوء، وهو عناءٌ أشدُّ من عناء مواجهة الأعداء، وما أكثر ما ينجح المؤمنون في الجهاد الأصغر ويرسبون في الجهاد الأكبر! في الحديث عنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم بَعَثَ بِسَرِيَّةٍ فَلَمَّا رَجَعُوا قَالَ: «**مَرْحَباً بِقَوْمٍ قَضَوُا الْجِهَادَ الأَصْغَرَ وبَقِيَ الْجِهَادُ الأَكْبَرُ!** قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم ومَا الْجِهَادُ الأَكْبَرُ؟ قَالَ: **جِهَادُ النَّفْسِ**»[5].

(١) سنن النسائي ج ٧ ص ١٤٤.
(٢) مسند أحمد ج١ ص١٩٢ ومجمع الزوائد ج٥ ص٢٥١.
(٣) السنن الكبرى للبيهقي ج٩ ص١٧ ومجمع الزوائد ج٥ ص٢٥٥.
(٤) مجمع الزوائد للهيثمي ج ٤ ص ٢١٨.
(٥) الكافي ج ٥ ص ١٢.

٤ـ الحسين عليه السلام مهاجراً إلى الله

ولا ريب أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو المثل الأعلى للمهاجر في سبيل الله، بل المهاجر إلى الله تعالى، على خطى نبي الله لوط، قال تعالى: ﴿**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[العنكبوت: ٢٦]، فحركة الإمام الحسين عليه السلام كانت حركة إلى الله تعالى وفي سبيل الله، وهدفها هو إصلاح ما أفسده الجاهلون والظالمون من دين الله، إنّها الهجرة التي هدفت إلى رفض الظلم والاحتجاج على الواقع الفاسد الذي ما كان بالإمكان تغييره إلا ببذل التضحيات الجسام، وقيادة حركة تغييرية إصلاحية شاملة، وإنّ حركة كهذه تسعى إلى إقامة الدين وإصلاح الاعوجاج في الأمة هي هجرة في الله وإلى الله، وهي من أفضل أنواع الهجرة في سبيل الله تعالى، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لمقام أحدكم في الدنيا يتكلم بحقّ يردُّ به باطلاً، أو ينصر به حقاً أفضل من هجرة معي**»[(١)].

لقد كان عزيزاً على الحسين عليه السلام أن يهاجر وطنه ويترك مسقط رأسه ومدينة جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وجوار أمّه البتول وأخيه الحسن المجتبى سلام الله عليهم أجمعين، لكنّ دين الله أعزّ وأغلى من البلدان والأنفس والأموال، ولهذا صمم عليه السلام على الهجرة ميمماً وجهه في بادئ الأمر شطر المسجد الحرام، الذي لم يلبث فيه كثيراً، بل اتخذ قراراً مفاجئاً بترك بيت الله في اليوم الثامن من ذي الحجة وهو يوم التروية حيث الحجيج يتوجهون إلى منى ومنها إلى عرفات، ليواصل هجرته بكل حماس وعزيمة متجهاً هذه المرّة إلى العراق بكل إصرار دون أن يثنيه عن عزمه نُصْحُ الناصحين أو كلام المشيرين، فقد اتخذ عليه السلام قراره بالمواجهة ورفض الاستعباد، وكان مستعداً لبذل التضحيات الجسام، واضعاً مرضاة الله تعالى نصب عينيه، وموطّناً النفس على لقائه تعالى بكل شوق وسرور.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ج ٦ ص ١٩٦.

٥ـ ما الذي يجمع بين هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهجرة الحسين عليه السلام ؟

لا ريب أنّ ما يجمع بين النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وسبطه الإمام الحسين عليه السلام أشياء كثيرة وعناوين كبيرة، يمكن اختصارها بالقول: إنّ الإمام الحسين عليه السلام يمثّل امتداداً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فكره ونهجه ورسالته، كما وتُمثِّل ثورتُه استمراراً لثورة جده، وهذا الأمر لا نحتاج في إثباته إلى كثير من التحليل والبرهنة، وإنما يكفينا استحضار الحديث النبوي الشريف: «**حسين مني وأنا من حسين**»[(١)]، لندرك بشكل كافٍ ووافٍ هذا الترابط الوثيق بين الشخصيتين، ولو أردنا أن نسلط الضوء على بعض العناوين المشتركة التي جعلت هجرة الحسين عليه السلام تستهدي هجرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لاكتفينا بالعناوين التالية:

إنّ الهجرة النبويّة كانت هجرة إلى الله تعالى، وعاشوراء الحسين عليه السلام كانت ثورة فداء وتضحية في سبيل الله.

الهجرة النبوية هي حالة احتجاج على الظلم والطغيان، وعاشوراء الحسين عليه السلام هي ثورة المظلوم في وجه الظالم والمعتدي.

الهجرة النبوية مثّلت الانطلاقة التأسيسية الأولى لبناء المجتمع الإسلامي، وعاشوراء الحسين عليه السلام مثّلت انطلاقة الحركة الإصلاحية الكبرى في وجه الفساد الذي استشرى في المجتمع الإسلامي.

الهجرة النبوية مثّلت حالة تحرر من كل آلهة الأرض وأصنامها، وثورة الحسين عليه السلام هي حركة تمرد على فراعنة الأرض وطواغيتها.

الهجرة النبوية هدفت إلى تحقيق الكرامة والعزّة للمسلمين والمستضعفين، وعاشوراء الحسين عليه السلام رفضت منطق الاستعباد وحملت الشعار التحرري الخالد: «هيهات منا الذلة».

---

(١) مسند أحمد: ج٤ ص١٧٢.

المحور الرابع
الحسين عليه السلام إمام في العلم وقدوة في الجهاد

قد لا يكون جديداً ولا غريباً على مسامعنا القول: إنّ الإمام الحسين عليه السلام ثار لحراسة الدين وحمايته من كل اللصوص الذين أرادوا أن يفرّغوه من محتواه الفاعل والمحرّك ويعبثوا بنصوصه لتغدو مجرد وصفات تخديرية وظيفتها تطويع الإنسان وشلّ إرادته، لكن ما يغيب عن خطابنا العاشورائي هو تسليط الضوء بما فيه الكفاية على دور الحسين عليه السلام العالم والمرجعية الفكرية التي تعدّ عاصمة للأمة من الضلال، طبقاً لما نصّ عليه حديث الثقلين الشهير[1] المروي عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فماذا عن هذا الدور؟ وما هي وظيفة العلماء تجاه هذه المرجعية؟ وما هي مخاطر انحراف العلماء عن أداء الرسالة المناطة بهم؟

١ـ الحسين عليه السلام مرجعية علمية

من البديهي أنه عندما رأى الحسين عليه السلام بأم عينه ما يتعرض له الإسلام من تزوير وتشويه وتلاعب ما كان ممكناً له أن يلوذ بالسكوت والصمت وهو عالم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم حينذاك، بل كان من الضروري أن يندفع إلى الميدان لإظهار علمه، ورفع الصوت عالياً، وفضح التزييف والتحريف، وتلك مهمّة أهل البيت عليهم السلام الأساسية، فهم حفظة الدين وحماة الرسالة، ولذا لم يألُ الحسين عليه السلام جهداً في بيان الحقائق ونصيحة المسلمين، وتحذيرهم من مغبة وصول شخص كيزيد إلى

(١) مسند أحمد ج٣، ص١٤،٢٦.

موقع الخلافة، وذلك قبل أن ينطلق في حركته الثورية والفدائية، فقد ورد في كتب التاريخ أنه بعد موت معاوية وورود الكتاب إلى والي المدينة بأخذ البيعة ليزيد، فإنّ مروان بن الحكم يتقدّم من الإمام الحسين عليه السلام ويقول له: «إني آمرك ببيعة أمير المؤمنين يزيد فإنّه خولك في دينك ودنياك، فاسترجع الحسين وقال: **إنا لله وإنا إليه راجعون، وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براعٍ مثل يزيد**»[(١)].

ولم ينحصر دور الإمام عليه السلام العلمي على تعرية الظالمين وبيان فسادهم، بل إنّ دوره الأكبر هو حراسة الدين، وحمايته من العبث والتلاعب، وأعتقد أن شخصية الحسين العالم والحجة على العباد تغيب عن أذهان الكثيرين، ولا يتم استحضارها بما فيه الكفاية، الأمر الذي يضاعف من مسؤوليتنا في الاهتمام بها والوقوف عندها ملياً، وتلك مهمّة الخطاب الديني عموماً والعاشورائي خصوصاً، فهو معني بأن يتناول شخصية الإمام الحسين عليه السلام بكل عناصرها وكمالاتها وأبعادها، فالحسين عليه السلام لا يُختصر دوره بالبعد الثوري، بالرغم من أهمية الثورة ومحوريتها ليس في تاريخ الإمام الحسين عليه السلام فحسب، بل في تاريخ الإسلام، بيد أنّ للحسين عليه السلام أبعاداً كثيرة في شخصيته، وعلى رأسها البعدان العلمي والروحي، وقد ترك لنا عليه السلام ثروة هامة على هذا الصعيد، لكن ما يدعو إلى الأسف الشديد أنّنا لا نوليها أهمية كبيرة، فتظل صورة الإمام الحسين عليه السلام في خطابنا ووعينا تتمحور على البعد الثوري، ويتم استحضاره عليه السلام من خلال البعد العاطفي، ويغيب عن خطابنا البعدان الفكري والروحي.

إنّ الحسين عليه السلام هو بنصِّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إمامٌ للمسلمين[(٢)]، والإمامة هي رسالة دينية ومهمّة جليلة وظيفتها حياطة الدين وحراسته، وهذه الإمامة لا تتوقف اطلاقاً على تولّي الإمام للسلطة، فالإمام إمام قام أم قعد، والأساس في الإمامة

(١) الفتوح لابن الأعثم ج ٥ ص ١٧، واللهوف ص ١٨.

(٢) وذلك فيما قاله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الحسن والحسين إماماان قاما أو قعدا**»، انظر: مناقب آل أبي طالب ج٣، ص١٦٣. علل الشرائع ج ١ ص ٢١١.

وفقاً لتفسير أهل البيت عليهم السلام هو الدور الفكري والروحي، فهو صمام الأمان للأمة والإنسانية. إنّ الإمام الحسين عليه السلام هو حجة الله على العباد والنور الذي يهتدون به في الظلمات، ولهذا يكون من حقه علينا أن نقرأ سيرته ونتعرف عليه في غير مجريات عاشوراء كما نتعرف على حركته العاشورائية، أن نقرأه عالماً ربانياً مسدداً، وذلك بدراسة كل التراث المنقول عنه والمنسوب إليه في المجال العلمي أو الروحي، وغربلته ومن ثم تقديمه، ونشره وشرحه، ولا ريب أنّ تعاليمه ووصاياه عليه السلام تمتلك من الغنى الروحي والثراء الفكري ما يجعلها لا تقلُّ أهمية عن كلام أبيه علي عليه السلام، وسائر الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، فالأئمة عليهم السلام يستقون من نبع واحد هو نبع القرآن الكريم، وهم خريجو مدرسة واحدة هي مدرسة الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ـ عندما يخون العالم رسالة العلم!

ومن الطبيعي أن يكون هدي الحسين عليه السلام هو المشعل الذي يسير على ضوئه كل المصلحين والعلماء المؤتمنين على الرسالة والإنسان، فلا يحقّ للعالم أن يداهن الظلم ويتعايش مع الفساد، أو يكتم علمه في الوقت الذي تحتاج الأمة إلى هذا العلم. وإذا وجدنا عالماً يكتم علمه فتلك مصيبة[1]، ولكن إذا وجدنا عالماً يسخّر علمه لخذلان الحق ونصرة الباطل وتأييد الظالم فتلك الطامة الكبرى، لأنّ ذلك يمثّل خيانة عظيمة لرسالة العلم والعلماء!

وما لا يمكن أن يخطر على بال أن تبلغ الجرأة على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم حداً يبرر فيه «فقيه»[2] من «فقهاء» المسلمين مقتل الحسين عليه السلام على قاعدة أنّه خرج عن

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[البقرة: ١٥٩].

(٢) هو القاضي أبو بكر المالكي الأندلسي، انظر: «العواصم من القواصم»، تأليف: محمد بن عبد الله بن العربي الأندلسي المالكي، (ت ٥٤٣هـ) تحقيق: أبو مسلم المسعودي، مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م، ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣.

حدّه فقتل بشرع جده!

إنها قمة الإسفاف والانحدار الخلقي أن يجعل العالم نفسه في مواجهة مع المجاهد في سبيل الله، والمهزلة الكبرى أن يُجعل الفقه في مواجهة مع الدم الزاكي! فكيف إذا جعل في مواجهة مع دم سيّد شباب أهل الجنّة، وهو من أقدس وأطهر الدماء التي سُفكت على مرّ التاريخ!! هذا مع أنّ دم الحسين عليه السلام هو البوصلة التي توجِّه العلماء وترشد الفقهاء، وعلى فعله تقاس المواقف، وحركته تشكل مرجعية تضيء للفقيه درب الفقاهة والاستنباط وتفتح له باب معرفة الحكم الشرعي واستنباطه.

وإذا كان ذاك الفقيه الأندلسي قد برر قتل الحسين عليه السلام، فقد سار على نهجه كثيرون من مدعي الفقاهة فأباحوا سفك دماء الأحرار من العلماء والمجاهدين الرساليين، ووقفوا في وجههم، محاولين عرقلة مشاريعهم الجهادية والفكرية الرامية إلى تغيير الواقع وإسقاط النظام المستبد والفاسد!

إنّ الموقع الطبيعي للعالم هو في رعاية المجاهدين واحتضانهم، والفقيه الذي يحترم فقهه هو الذي يقف إلى جانب المجاهدين ليتشارك الفقيه مع المجاهد في مهمّة الجهاد بمعناها الكبير الهادف إلى تحرير الأرض والإنسان والعقول واستعادة الكرامة السليبة! ورحم الله السيد حيدر الحلّي حيث يقول:

إنْ لم أقفْ حيثُ جيشُ الحقّ يزدحمُ
فلا مشتْ بي في طريقِ العلى قدمُ

٣ـ العالم وحراسة الدين

وفي ضوء ذلك تبرز أهميّة إعداد هذه الجماعة، عنيت بها جماعة علماء الدين، فإنّها إذا صَلُحت صَلُح المجتمع وإذا فَسُدت فَسُد المجتمع، وذلك لأنّهم يتكلمون باسم الله تعالى ويحملون راية المقدس الديني، فهم ورثة الأنبياء عليهم السلام كما جاء

في الحديث النبوي الشريف، وحملة علومهم، فمقامهم عظيم، ومهمتهم جليلة، عن الإمام الصادق عليه السلام: «**العلماء ورثة الأنبياء، وذلك أنّ الأنبياء لم يورثوا درهما ولا ديناراً، وإنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظّاً وافراً، فانظروا علمكم عمّن تأخذونه**»[1]. إن دورهم ـ إذاً ـ حماية الدين وحراسته وحياطته وتثبيت قواعده ومبادئه في النفوس، ومن هنا كان حبرُ أقلامهم أهمّ عند الله من دماء الشهداء، كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء**»[2]. ولأجل ذلك ـ أيضاً ـ كان العالم أهم منزلة عند الله من العابد، في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «**عالم يُنتفع بعلمه، أفضل من سبعين ألف عابد**»[3]. والوجه في هذا التفضيل واضح، وهو أنّ الدور الذي يقوم به العالم في حماية الدين هو أهم من دور الشهيد، فالعالم هو الذي يُرَبِّي الشهداء ويعلِّم الناس العبادة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**والذي نفس محمد بيده! لعالمٌ واحد أشدُّ على إبليس من ألف عابد، لأنّ العابد لنفسه والعالم لغيره**»[4]. وعلى هذا الأساس كان موت العالم الفقيه يمثِّل «**ثلمةً في الإسلام لا يسدّها شيء، لأنّ المؤمنين الفقهاء حصون الإسلام كحصن سور المينة لها**» كما جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام[5].

٤ـ علماء السوء وتخريب الدين

وإذا اتضح مقام علماء الدين وبان لنا أهميّة دورهم في بثّ الوعي في الأمة، فسوف تتّضحُ خطورة تعرّض هذه الجماعة للانحراف، فذلك سيكون له آثار سلبية خطيرة على الدين والمتدينين، أما خطورتهم على المتدينين فلأنهم

(١) بحار الأنوار ج ٢ ص ١٥١.
(٢) كنز العمال ج ١٠ ص ٧٦٣.
(٣) الكافي ج ١ ص ٣٣.
(٤) كنز العمال ج ١٠ ص ١٧٤.
(٥) الكافي ج١ ص٣٨، وعلل الشرائع ج٢ ص٤٦٢.

يخدعون الناس بمظاهرهم ويقدمون لهم نموذجاً سيئاً، وأمّا خطورتهم على الدين فلأنّ هؤلاء سوف يستغلون الدين ويوظفونه لأجل مصالحهم الخاصة، وأكثر مصارع العلماء هي في المال والسلطة والخضوع للشهوات، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**[التوبة: ٣٤].

ومن هنا تعرف أن مخالطة العالم للسلطان هي باب فساد كبير، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان ويداخلوا الدنيا، فإذا خالطوا السلطان وداخلوا الدنيا فقد خانوا الرسل فاحذروهم**»(١).

وقد رووا أنّ فقيهاً زاد في حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقرة كاملة تزلفاً إلى المهدي العباسي، وذلك لأنّ المهدي كان «يشتهي الحمام، فدخل عليه غياث بن إبراهيم المحدث وهو مع الحمام فقيل له: حدّثْ أمير المؤمنين، فحدث بقوله عليه السلام: «لا سبق إلا في خف أو حافر»، وزاد فيه: أو جناح. فأمر له بعشرة آلاف درهم. فلما ولّى قال (المهدي): أشهد أنه قفا كذاب على رسول الله، ولكنه أراد أن يتقرب إلي، لولعي بالحمام فذبحها كلها. وما أفلح غياث بعد ذلك»(٢).

٥ـ القرآن وتصوير العالم المنحرف

وانحراف العالم وابتعاده عما يقتضيه علمه له أثرٌ سيّىء على العالم نفسه، وهذا ما حدثتنا عنه الآيتان اللتان تحكيان قصة ذلك الرجل الذي اتبعه الشيطان، وهما قوله تعالى: **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**

(١) كنز العمال ج ١٠ ص ١٨٣.

(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ٤ ص ٢٥.

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦]، ومن الجميل أن نتوقف عند ما جاء فيهما، يقول في تفسير «الأمثل» بشأن الآية الأولى إنّها «واضحة أنها تحكي قصة رجل كان في البداية في صف المؤمنين، وحاملاً للعلوم الإلهية والآيات، إلا أنّه انحرف عن هذا النهج، فوسوس له الشيطان، فكانت عاقبة أمره أن انجر إلى الضلال والشقاء! والتعبير بـ«انسلخ» وهو من مادة «الانسلاخ» معناه في الأصل الخروج من الجلد... يدل على أن الآيات والعلوم الإلهية كانت تحيط به إحاطة الجلد بالبدن، إلا أنّه خرج منها على حين غرّة واستدار إلى الوراء وغيّر مسيره بسرعة! كما أن التعبير القرآني «فأتبعه الشيطان» يستفاد منه أنّ الشيطان كان أوّل الأمر آيساً منه تقريباً، لأنّه كان يسلك سبيل الحق تماماً، وبعد أن انحرف لحقه الشيطان وتربّص له وأخذ يوسوس له حتى انتهى أمره إلى أن يكون من الضالّين المنحرفين الأشقياء».

ويضيف صاحب الأمثل: «والآية التالية تكمل هذا الموضوع على النحو التالي: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا**﴾. إلا أن من المسلّم أنّ إكراه الناس وإجبارهم على أن يسلكوا سبيل الحقّ لا ينسجم والسُّنن الإلهية وحرية الإدارة، ولا يكون ذلك دليلا على عظمة الشخص، لهذا فإنّ الآية تضيف مباشرة: إننا تركناه وهواه، وبدلاً من أن ينتفع من معارفه فإنه هوى وانحط ﴿**وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾. وكلمة (أخلد) من (الإخلاد) وهي تعني السكن الدائم في مكان واحد مع حرية الإرادة، فجملة (أخلد إلى الأرض) تعني اللصوق الدائم بالأرض، وهي كناية عن عالم المادة وبهارجها، واللذائذ غير المشروعة للحياة المادية. ثم تشبه الآية هذا الفرد بالكلب الذي يخرج لسانه لاهثاً دائماً كالحيوانات العطاشى فتقول فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. فهو لفرط اتباعه الهوى وتعلقه بعالم المادة انتابته حالة من التعطش الشديد غير المحدود وراء

لذائذ الدنيا، وكل ذلك لم يكن لحاجة، بل لحالة مرضيّة، فهو كالكلب المسعور الذي يظهر بحالة عطش كاذب لا يمكن إرواؤها وهي حالة العبيد الذين لا يهمّهم غير جمع المال واكتناز الثروة فلا يحسون معه بشبع أبداً. ثم تضيف الآية: إن هذا المثال الخاص لا يتعلق بفرد معين، بل: ﴿**ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1]».

٦ـ كيف نميّز العالم الصالح عن غيره؟

وأمام هذا الانقسام في جماعة العلماء إلى الصالحين والطالحين، فإنّ ثمّة سؤالاً يطرح نفسه: كيف نميز بين العالم الرسالي الصالح وبين العالم التاجر؟ ولا سيما في هذا الزمن حيث أصبحنا نشهد ظاهرة غير مسبوقة وهي تمثّل معضلة حقيقية، حيث يكثر الادعاء وانتحال الصفة، ومع الأسف، فليس هناك جهة تسأل أو تمتحن أو تحاسب!

وفي الجواب عن السؤال المذكور أقول: إنّ مسؤوليتنا جميعاً أن نتحرّى عن العالِم الصالح، لنتبعه، وأن نتعرف على العالِم الفاسد لنجتنبه، ويمكن أن نلحظ في المقام عنصرين أساسيين في عملية التمييز:

العنصر الأول: سلوك العالم، فإذا كان سلوكه وعمله مطابقاً لقوله فهذا مؤشر جيد على إمكان الوثوق به، وأمّا إذا كان فعله مفارقاً لقوله، فمثل هذا «العالم» لا يُتَّخَذُ قدوةً حسنة؛ لأنه ممن يأمر بالشيء دون أن يفعله وينهى عن الشيء دون أن ينتهي عنه، وقد ورد في الحديث عن علي عليه السلام: «**إنما العالم من دعاه علمه إلى الورع والتقى، والزهد في عالم الفناء، والتولّه بجنة المأوى**»[2]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في كلام له: «**العلماء رجلان: رجل عالم**

(١) الأمثل في كتاب الله المنزل ج ٥ ص ٢٩٥.
(٢) عيون الحكم والمواعظ ص١٧٩.

آخذ بعلمه فهذا ناج، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك، وإن أهل النار ليتأذون بريح العالم التارك لعلمه، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله عزّ وجلّ فاستجاب له وقبل منه وأطاع الله عز وجل فأدخله الله الجنة، وأدخل الداعي النار بتركه علمه واتّباعه الهوى»[1]. وعن عيسى بن مريم عليه السلام: «**الدينار داء الدين، والعالم طبيب الدين فإذا رأيتم الطبيب يجر الداء إلى نفسه فاتّهموه واعلموا أنه غير ناصح لغيره**»[2].

وعن الإمام الصادق، عن أبيه عليهما السلام: «أن علياً عليه السلام قال: «**إياكم والجهال من المتعبدين والفجار من العلماء فإنّهم فتنة كلّ مفتون**»[3].

العنصر الثاني: ابتعاده عن الادعاءات الفارغة، والدعاوى العريضة، وذلك بأن يتواضع للعلم، فلا يدعي ما ليس له من مقام، كالبعض ممن يُظهر نفسه عالماً بكل شيء، ولا يعجزه شيء، إنّ هذا في الواقع دليل انتفاخ وغرور وتورم في الشخصية، ودليل جهل أيضاً قبل كل شيء، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من قال: أنا عالم فهو جاهل**»[4].

وعن علي عليه السلام -في وصيته لابنه الحسن عليه السلام-: «**قرّعتك بأنواع الجهالات لئلا تَعُدَّ نفسك عالماً... فإنّ العالم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل فعدّ نفسه بذلك جاهلاً، فازداد بما عرف من ذلك في طلب العلم اجتهاداً، فما يزال للعلم طالباً، وفيه راغبا، وله مستفيداً، ولأهله خاشعاً مهتماً، وللصمت لازماً، وللخطأ حاذراً، ومنه مستحيياً، وإن ورد عليه ما لا يعرف لم ينكر ذلك لما قرّر به نفسه من الجهالة**»[5].

---

(١) بحار الأنوار ج ٢ ص ١٠٦، نقلاً عن الخصال للصدوق.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) بحار الأنوار ج ٢ ص ١٠٦، نقلاً عن قرب الإسناد.

(٤) منية المريد ص ١٣٧.

(٥) تحف العقول ص ٧٣.

تحسّر علي عليه السلام على افتقاده حملةً لعلمه!

وقد كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يشعر بالغربة والحسرة، لأنه يملك علماً جماً ولا يجد له حملة مؤتمنين، فيقول عليه السلام **«هَا إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً وأَشَارَ بِيَدِه إِلَى صَدْرِه لَوْ أَصَبْتُ لَه حَمَلَةً، بَلَى أَصَبْتُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْه، مُسْتَعْمِلًا آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، ومُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللَّه عَلَى عِبَادِه وبِحُجَجِه عَلَى أَوْلِيَائِه، أَوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ الْحَقِّ لَا بَصِيرَةَ لَه فِي أَحْنَائِه، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِه لأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، أَلَا لَا ذَا ولَا ذَاكَ، أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ، أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ والِادِّخَارِ لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهاً بِهِمَا الأَنْعَامُ السَّائِمَةُ»**.

أقول: يا أمير المؤمنين إنك تشكو أمر زمانك وأنّك لا تجد عالماً حاملاً للعلم ومأموناً عليه، فأين أنت من زماننا الذي عمّ فيه الفساد وكثر علماء السوء ووعاظ السلاطين الذين لا يقولون كلمة حق في وجه سلطان جائر بل تحولوا إلى مجرد أبواق للفتنة المذهبية؟!

هذا ولكنّ الإمام علياً عليه السلام قد استدرك ونحن نستدرك معه: « **اللَّهُمَّ بَلَى لَا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّه بِحُجَّةٍ إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً وإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّه وبَيِّنَاتُه وكَمْ ذَا وأَيْنَ أُولَئِكَ؟ أُولَئِكَ واللَّه الأَقَلُّونَ عَدَداً والأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّه قَدْراً يَحْفَظُ اللَّه بِهِمْ حُجَجَه وبَيِّنَاتِه حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ ويَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ**»[1].

(١) نهج البلاغة ج ٤ ص٣٦.

المحور الخامس
الحسين عليه السلام شهيد الحب الإلهي[1]

وتعود عاشوراء مثقلةً بكلِّ جراحات التاريخ وآلامه بكلّ سهامه ومواجعه..

وتعود عاشوراء مضمّخة بالأحمر القاني معلنةً على رؤوس الأشهاد: «**إنّي لا أرى الموتَ إلاّ سعادةً والحياةَ مع الظالمينِ إلاّ بَرَماً**»[2]..

وتعود عاشوراء مفعمة بكلّ معاني العزّة والإباء، ويعود النداء الحسيني الخالد: «**هيهات منّا الذلّة**»[3]..

وتعود عاشوراء ويعود معها الشوق والحنين، والدمع والأنين..

وتعود عاشوراء ونستعيد معها صبر زينب عليها السلام وعزيمة الحسين عليه السلام، وإيثار أبي الفضل العباس، وشجاعة عليّ الأكبر، وتضحيات كلّ تلك الصفوة الطاهرة من أصحاب الحسين عليهم السلام..

هكذا عرفنا عاشوراء وفهمناها وهكذا نريدها، وهكذا ينبغي أن تكون وتستمر..

---

(١) هذا المحور هو مدرج في كتاب «وهل الدين إلا الحب؟» وقد أعدنا نشره هنا لأنه يتّصل بهذا الكتاب اتصالاً مباشراً.

(٢) تاريخ الطبري ج٤ ص٣٠٥.

(٣) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٢٥.

أولاً: عاشوراء.. مدرسة الحب

ولكن هل لنا أن نرى في عاشوراء قيمةً إضافية، غير ما هو معروف ومتداول من قيمها ودروسها؟ هل لنا أن نرى في عاشوراء غير الدماء والأشلاء وغير الصراخ والعويل؟

هل لنا أن نرى الحبّ في وسط الدماء والأشلاء؟

بكلّ تأكيد يمكننا أن نرى تلك القيمة (قيمة الحبّ) مع أنّها قيمة غائبة أو مغيّبة عن قاموسنا الإسلامي، وعن حياة الفرد المسلم، يمكننا أن نتعلّم الحبّ في مدرسة عاشوراء، لأنّ عاشوراء ليست مدرسة للحقد والكراهيّة، ولا لإثارة الغرائز وإيقاد الفتن، وإنّما هي مدرسة نتعلّم فيها كلّ المعاني السامية، وعلى رأسها قيمة الحبّ الإنساني والعشق الإلهي، بل يمكننا القول: إنّ حاجتنا إلى الحسين عليه السلام وحاجتنا ـ قبل ذلك ـ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما عليّ عليه السلام والزهراء عليها السلام وكلّ المُثل العليا، هي في جانب أساسي منها، تعود إلى حاجتنا الماسة إلى الحبّ والروح والعاطفة، لأنّ هؤلاء هم مصدر الحبّ والجمال والسلام، كما هم مصدر الفكر والأخلاق.

إنّ حاجتنا إلى الحسين عليه السلام هي أمسّ من حاجة التائه في الظلمات إلى مصباح ينير له الدرب وإلى مرشد يدلّه على معالم الطريق، وأشدّ من حاجة العطشان إلى الماء الذي يروي الغليل.

يقول الشاعر[1] مخاطباً الإمام الحسين عليه السلام:

سلامٌ عليك فأنت السلامُ ... وإنْ كنتَ مختضباً بالدمِ
وأنتَ الدليلُ إلى الكبرياءِ ... بما دِيسَ من صَدْرِكَ الأكرمِ
وإنّكَ معتصم الخائفين ... يا مَنْ مِنَ الذبح لم يُعْصَمِ

(١) هو الشاعر العراقي عبد الرزاق عبد الواحد، وهو ينتمي إلى ديانة الصابئة.

لقد رأى هذا الشاعر بعين البصيرة صورة السلام في وسط الدماء والأشلاء، ورأى الحسين عليه السلام قدوةً للأحرار ودليلاً إلى العزّة والإباء حتى عندما يداس صدره الشريف بسنابك خيل الظالمين! ورأى الحسين عليه السلام موئلاً للمعذبين الخائفين حتى وهو يذبح على رمضاء كربلاء!

والذي أعتقده أنّ أروع ما في عاشوراء هو مشاهد العشق والحبّ لله وفي الله، والتي نراها في مخيّم الإمام الحسين عليه السلام، حيث يبلغ حبّ الله مستوىً يغدو معه لقاء الموت في سبيل الله سعادة، وبذل النفس في سبيل المعشوق شهادة، وسوف نذكر بعضاً من تلك المشاهد فيما يأتي.

ثانياً: حبّ الله تعالى وحبّ الحسين عليه السلام

ما هو الرابط بين حبّ الله، وحبّ أوليائه؟

سأستهل هذه النقطة بهذا التساؤل الذي أخال أننا أشبعناه بحثاً في المحور الثاني من كتاب «وهل الدين إلّا الحب؟»، حيث ذكرنا هناك أنّ على المسلم أن يوحّد الله في الحبّ، ليكون حبُّه خالصاً لله تعالى، ولا يُشْرِك معه أحداً، ولا شكّ أنّ حبّ أولياء الله، هو مِنْ حبّ الله تعالى، فلا يتنافى وحبّه تعالى، تماماً كما أنّ حبّنا لكلّ مَنْ حولنا من بشر أو أرض أو جبال أو أنهار أو أشجار.. لا يتنافى وحبَّ الله، ما دام حبّ هذه الأمور متحرِّكاً في خطّ حبّ الله.

ومن هنا، فأنت معنيٌّ بأن تحبّ أولياء الله ـ وهم رسله وحججه على العباد ـ لأنّهم عليهم السلام **«أحبّاء الله وَأَوِدّاؤُه»**، ولأنّهم **«الأدلّاء على الله»**، وهم يدلّونك على طريق الحبّ الإلهي، وأعتقد أنّ حبّ أولياء الله لا يحتاج إلى وصايا خاصة من أحد، فهم بما يمتلكون من روحانية خاصة وأخلاقية عالية سوف يجتذبون الناس إليهم ويدخلون القلوب بدون استئذان، وذلك هو سرّ إمامتهم وولايتهم.

ومع ذلك، فإنّ الله تعالى قد أكّد على أهميّة محبتهم، حتّى جَعَلَ مودّتهم أجرَ الرسالة، ﴿**قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[الشورى: ٢٣](1)، وهكذا نجد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قد نصّ على أهميّة محبّتهم مؤكداً أنّ بها قوام الإيمان، فقال صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما روي عنه ـ: «**حسين مني وأنا من حسين أَحَبَّ الله مَنْ أَحَبَّ حسيناً**»(2)، إنّ حبّ الحسين عليه السلام ـ إذاً ـ هو مِنْ حبّنا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحبُّنا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو مِنْ حبّنا لله، بينما بغض الحسين عليه السلام ـ كما بُغض أبيه عليّ عليه السلام ـ هو علامة على عدم حبّ الله ولا رسوله، أي هو علامة النفاق، كما جاء في الأحاديث المختلفة(3).

الحبُّ الملهم

وإننا عندما نتأمّل مليّاً في هذا التأكيد القرآني أو النبوي على أهميّة حبّ أهل البيت عليهم السلام وارتباطه بالإيمان، فإننا ندرك بأنّ ثمّة عناية خاصة وراء ذلك، فإنّ الحبّ ـ كنبضة قلب ـ ما كان له أن يبلغ هذه المرتبة العظيمة في الدين بحيث يكون أجراً للرسالة إلاّ لأنّ هؤلاء يمثّلون الامتداد الطبيعي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ لهم دوراً في استمرار الرسالة على أصالتها، بهذا يمكن أن نفهم كيف يمكن أن يكون حبّ الحسين عليه السلام من حبّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكيف يرتبط حبّ الله تعالى بحبه عليه السلام.

(١) ورد في العديد من الروايات أنّ المقصود بالقربى في الآية المذكورة قرابة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتحديداً أهل الكساء منهم، فقد روى الطبراني في المعجم الكبير باسناده إلى ابن عباس رضي الله عنه، قال: لما نزلت ﴿**قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾ فقالوا: يا رسول الله ومن قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: **علي وفاطمة وابناهما**» انظر: المعجم الكبير ج٣ ص٤٧.

(٢) مسند أحمد: ج٤ ص١٧٢.

(٣) سنن النسائي ج٨ ص١١٥.

ثالثاً: الحسين عليه السلام شهيد الحبّ الإلهي

وعندما نطلّ على علاقة الإمام الحسين عليه السلام بالله تعالى، فإنّا نجدها قائمة على أساس الحبّ لله والذوبان فيه، وقد تجلّى ذلك في كلّ حياة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ولا سيّما في عاشوراء، حيث نجدُ أنفسنا أمام ظاهرة منقطعة النظير من حبّ الله وعشقه، وإليك توضيح ذلك من خلال صورتين روتهما لنا المصادر التاريخية:

الصورة الأولى: «هوّن ما نَزَلَ بي أنّه بعين الله».

عندما يسقط أصحاب الحسين عليه السلام وأبناؤه صرعى على رمضاء كربلاء، يخرج الحسين عليه السلام إلى جيش عمر بن سعد طالباً منهم أن يُقدّموا لابنه الطفل الرضيع شربة من ماء، لأنّ العطش قد أَخَذَ منه مأخذاً عظيماً، وكان جواب القوم أن رماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم ذبحه من الوريد إلى الوريد وهو في حجر والده! فماذا تتوقع أن يكون موقف الحسين عليه السلام بعد أن يَرمي دمَ رضيعه نحو السماء؟ هل يبكي أو يشكو أو يجزع أو يتراجع؟

كلا، لا ذا ولا ذاك، كان موقفه أن يتوجّه إلى الله تعالى ليترنّم بكلمات العشق التالية: **«هوّن ما نَزَلَ بي أنّه بعين الله»**(١)!

ما أصعبه من موقف! وما آلمها من لحظات! أن يُذبَح رضيعُك في حِجْرِك! ولكن ما أعظمه من يقين **«هوّن ما نَزَلَ بي أنّه بعين الله»**! فما دام أنّ هذا الفداء والعطاء هو لله وفي سبيل الله فإنّ وقعه على النفس يغدو عذباً وهيّناً، وهذا اليقين الذي بلغه الحسين عليه السلام قد حوّل هول الفاجعة ومرارتها إلى بلسم للجراح وعزاء أمام ألم المصاب.

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف ص٦٩.

ويتردّد على ألسنة البعض أنّه لمّا كثرت الجراحات في جسد الإمام الحسين عليه السلام كان يقول: «**إلهي إنْ كانَ هذا يرضيك فَخُذْ مِنِّي حتّى تَرْضَى**»، ولكني لم أعثر على هذا الكلام في المصادر، أجل نُقل هذا الكلام عن الإمام الحسن عليه السلام بعد أن أخذ السُّمُ منه مأخذاً عظيماً ولفظ كبده، فقد رُوِيَ أنّه في هذه اللحظات «استقبل القبلة وقال: «**يا ربّ خُذْ مِنّي حتّى تَرْضَى**»[1].

الصورة الثانية: «إنّي أحبّ الصلاة».

جاء في كتاب تاريخ الطبري وغيره أنّه وفي اليوم التاسع من محرّم وبعد أن أصبحت الخيارات واضحة «**إما السلّة، وإما الذلّة**»، طلب الإمام الحسين عليه السلام من أخيه أبي الفضل العباس أن يتفاوض مع عمر بن سعد وهو قائد الجيش المناهض للحسين عليه السلام في مسعى لإقناعه بتأخير القتال إلى يوم غدٍ، وأن يدعهم هذه العشية وشأنهم، لكن لماذا يا تُرى؟ هل ليودّعوا العيال؟ أو ليجدوا طريقاً لأجل الهرب والفرار؟

كلا، لا هذا ولا ذاك، ودعونا نتعرّف على سبب هذا الطلب في تأخير المعركة من لسان الحسين عليه السلام نفسه يقول عليه السلام «**لعلّنا نصلّي لربّنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنّي قد كنت أحبّ الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار**»[2].

ما أعظمه من طلب وما أرقاها من أمنية! «**لعلّنا نصلّي لربنا**»، لماذا؟ هل لطلب الجنة والحور العين أو خوفاً من النار وزبانيتها؟

كلا، لا هذا ولا ذاك، بل لـ «**أني قد كنتُ أحبّ الصلاةَ له وتلاوةَ كتابه وكثرةَ الدعاء والاستغفار**»!

(١) شرح إحقاق الحق: ج٢٦ ص٥٥٨.

(٢) تاريخ الطبري ج٤ ص٣١٦.

ولا ندري أيَّ صلاة صلّاها الحسين عليه السلام تلك الليلة؟ وفي أيّة حالة من حالات الانقطاع إلى الله كانت صلاته؟!

فعلاً إننا لا ندري، لأنّ هذا المقام المعنوي لا يفقهه إلّا من ذاق حلاوته، ولكنّ ما نستطيع أن نجزم به أنّ صلاته عليه السلام كانت صلاة المحبّين العاشقين الوالهين.

ونلاحظ هنا أنّ الإمام عليه السلام لم يُذهله تكاثر الهموم فيحتّم في كلامه، ويقول مثلاً: «**لنصلِّي**»، بل قال: «**لعلّنا نصلّي**»، لأنّه عليه السلام قد لا يُستجاب لطلبه بتأخير المعركة ولا يُمهل لأداء الصلاة.

ثمّ الأهمّ من ذلك أنّه عليه السلام يقول: «**إنّ الله تعالى يعلم أنّي أحبّ الصلاة، كما أحبّ تلاوة القرآن والدعاء والاستغفار**».

لقد كان الحسين عليه السلام بصلاته تلك يعتلي صهوة جواد العشق مبحراً إلى ملكوت السماء سابحاً في آفاق الروح يعانق الخلود.

تلك هي حال الحسين عليه السلام، إنّه يُحبُّ الصلاة ويعشقها، وكان إذا دنا وقتها يغمره الشوق، لأنّه سينطلق في حالة من العروج الروحي إلى لقاء الله تعالى..

ولكن يا ترى ما هي حالنا نحن في أوقات الصلوات ؟

إنّ الكثيرين منّا يشعرون بهمّ كبير إذا دنا وقت الصلاة، وإذا فرغوا من أدائها تراهم يتنهدون ويحمدون الله على الانتهاء منها، وكأنّ ثمة عبئاً ثقيلاً كان جاثماً على صدورهم وقد ارتاحوا منه بعد أداء الصلاة!

ما أعظم الفارق بين الصلاتين! صلاةٍ يحمدُ مصليها ربَّه على دخول وقتها شوقاً إلى لقياه عزّ وجلّ، وصلاةٍ يحمدُ مصليها ربَّه على الفراغ منها، لينصرف إلى شؤونه ودنياه!

طلب استمهال آخر

وتحدّثنا بعض المصادر أنّ الحسين عليه السلام قد طلب توقيف الحرب أو تأخيرها قليلاً مرّة أخرى، وذلك في ظهيرة يوم العاشر من محرّم، فإنّه وبعد أن قُتل جمعٌ من أصحاب الحسين عليه السلام وأحسّ بعض الصحب عليه السلام أنّ الموت قد اقترب والأجل قد دنا، تقدّم من الإمام الحسين عليه السلام قائلاً:

«يا أبا عبد الله.. نفسي لك الفداء، إنّي أرى هؤلاء القوم قد اقتربوا منك، ولا والله لا تقتل حتّى أقتل دونك إن شاء الله، وأحبّ أن ألقى ربّي وقد صلّيت هذه الصلاة التي قد دنا وقتها».

فرفع الحسين عليه السلام رأسه، ثمّ قال: «**ذَكَرْتَ الصلاة جَعَلَكَ اللهُ مِنَ المُصلِّين الذاكِرين، نعم هذا أوّل وقتها**، ثمّ قال: **سلوهم أن يكفّوا عنّا حتّى نصلّي**..»[١].

فالحسين عليه السلام ـ إذن ـ يطلب من القوم استمهاله بضع دقائق، لماذا؟

هل ليرتاح أو ليشرب الماء؟ كلاّ، بل لأجل أن يؤدِّيَ صلاة الظهر! وأيّ صلاة تلك هي التي صلّاها الحسين عليه السلام ظهيرة العاشر من محرم؟

صلّى عليه السلام والسِّهام تنهمر عليه كالمطر من كلّ جانب حتّى استشهد بعض أصحابه ممّن وقف أمامه ليحميَه من السِّهام ويمكّنه من الصلاة جماعة بمن تبقّى من أصحابه![٢].

إنّ إصرار الحسين عليه السلام على إقامة الصلاة وهو في وسط القتلى والأشلاء، يذكّرنا بموقف أبيه عليّ عليه السلام في صفّين، فقد كان ـ والسِّهام تتساقط عليه والسيوف والأسنّة تتشابك من حوله ـ ينظر إلى السماء مراقباً وقت الصلاة، فقال له ابن عباس: «يا أمير المؤمنين ما هذا الفعل؟

(١) تاريخ الطبري: ج٤، ص ٣٣٤.
(٢) انظر: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٢١.

قال: **أنظرُ إلى الزوال حتّى نصلّي**.

فقال له ابن عباس: إنَّ عندنا لشغلاً بالقتال عن الصلاة!

فقال عليه السلام: **على ما نقاتلُهم؟ إنّما نقاتلهم على الصلاة**»[1].

رابعاً: معسكر المتفانين في الله وفي حبّ وليّه

وهذا الفداء المنقطع النظير وتلك التضحيات الجسام التي شهدناها يوم عاشوراء يجعلان المرء حائراً أمام هذه الثلّة الطاهرة التي عشقت الحسين عليه السلام وفدته بأرواحها والنفوس، ومع أنّ هؤلاء الشهداء الأخيار هم جميعاً في مرتبة عالية من التفاني في الله والإخلاص له، وهي مرتبة لا ينالها إلاّ الأقلون عدداً والأعظمون عند الله قدراً، ولكنّا مع ذلك نشير إلى بعض المشاهد والنماذج المعبّرة عن بلوغهم مرتبة العاشقين للقاء الله والمتفانين في حبّه ورضاه:

عندما تتحوّل الأجساد إلى دروع!

النموذج الأوّل: ويتمثّل بوقوف بعض صحابته عليهم السلام أمامه ليقيَهُ السِّهام المتوجّهة إليه، ويتلقّاها بصدره وجسده، ليحميَ الحسين عليه السلام ويمكّنه من أداء الصلاة جماعة، إنّ هذا الفداء منقطع النظير ولا يفعله إلاّ أولئك الذين أعاروا جماجمهم لله، ولا يفهمه إلاّ من ذاق حلاوة العشق الإلهي. فقد رُوي أنّ الإمام عليه السلام طلب من زهير بن القين وسعيد بن عبد الله أنّ «**تقدّما أمامي حتّى أُصلّيَ الظهر**»، فتقدّما أمامه في نحو من نصف أصحابه حتّى صلّى بهم صلاة الخوف.

ورُوي أنَّ سعيد بن عبد الله الحنفي تقدّم أمام الحسين عليه السلام فاستُهدف لهم، يرمونه بالنّبل، كلما أخذ الحسين عليه السلام يميناً وشمالاً قام بين يديه، فما

(١) انظر: كشف اليقين للعلامة الحلي ص١٢٢، ووسائل الشيعة: ج٤، ص ٢٤٦، الباب ٤١ من أبواب أعداد الفرائض ونوافلها وما يناسبها، الحديث٢.

زال يُرمى حتّى سقط إلى الأرض وهو يقول: اللهم العنهم لعن عادٍ وثمود، اللهم أبلغ نبيّك السلام عنّي، وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح، فإني أردت بذلك نصرة ذرية نبيّك، ثمّ مات، فوجدوا به ثلاثة عشر سهماً سوى ما به من ضرب السيوف وطعن الرماح!»[1].

إنّ هذا النموذج من التفاني والتضحية والفداء في سبيل المبدأ هو حقّاً نموذج بديع ومنقطع النظير.

فرحٌ وسرور ساعة لقاء الحتوف!

النموذج الثاني: الذي يعكس حبّ هؤلاء العظماء لله تعالى وسرورهم بلقائه، هو ما نجده عند «برير بن خضير» حيث يُنقل عنه أنّه أخذ يهازل ويمازح «عبد الرحمن بن عبد ربّه»، فقال له الأخير: «والله ما هذه بساعة باطل!

فقال برير: «والله إنّ قومي لقد علموا أنّي ما أحببت الباطل شابّاً ولا كهلاً، ولكنّي مستبشر بما نحن لاقون، والله ما بيننا وبين الحور العين إلاّ أن يميل هؤلاء بأسيافهم»[2].

وفي بعض المصادر أنّ حبيب بن مظاهر أيضاً أخذ يمزح ويضحك، فقال له برير بن خضير الهمداني: ـ وكان يُقال له سيّد القرّاء-: «يا أخي ليس هذه بساعة ضحك!

قال: فأيّ موضع أحقُّ من هذا بالسرور؟ والله ما هو إلاّ أن تميل علينا هذه الطغاة بسيوفهم فنعانق الحور العين»[3].

(١) بحار الأنوار: ج٤٥، ص ٢١.
(٢) الكامل في التاريخ: ج٤، ص ٦٠.
(٣) اختيار معرفة الرجال: ج١، ص ٢٩٣.

تمني الحياة لأجل الموت!

النموذج الثالث: هو نموذج أولئـك الصحابة الذين كانوا يتمنّون الموت ثم الحياة مرّة أخرى ليتسنّى لهم الجهاد مجدّداً بين يدي الحسين عليه السلام، فهذا سعيد بن عبد الله الحنفي وقف بين يدي أبي عبد الله عليه السلام وقال: «والله لا نخليك حتى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيك، والله لو علمت أنّي أقتل ثمّ أحيا ثمّ أُحرق حيّاً ثمّ أذرّ يُفعل ذلك بي سبعينَ مرّةً ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قتلةٌ واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً»[١].

ولا أخالني بحاجة إلى التعليق على هذه الكلمات المفعمة بالصدق والإيمان واليقين، والتي يتبدّى من ثناياها ويلوح من فقراتها أننا أمام نفوس آمنة مطمئنة بلقاء الله ولقاء حبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

وأكتفي بهذا القدر من نماذج التفاني في الله تعالى، وإلاّ، فمشاهد الحبّ والولاء لدى أصحاب الحسين عليهم السلام كثيرة جداً، فقد كانوا يتمنّون أن يُقتلوا ثمّ يُنشروا ثمّ يُقتلوا ثمّ يُنشروا، يُفعل ذلك بهم ألف مرّة، فداءً للحسين عليه السلام! كما قال زهير بن القين وغيره[٢].

خامساً: عندما يحبّ القاتل قاتله!

إنّ من يسيطر عليه حبّ الله، فلا يمكن أن يُشرك معه أحداً، في فعل أو قول أو نبضة قلب، ومن يمتلئ قلبُه بحبّ الله، فلن يعرف هذا القلب غيرَ لغة الحبّ ولن يجد متّسعاً للحقد، لأنّ الحبّ والبغض لا يجتمعان في قلب المؤمن، ولهذا فإنّه حتّى عندما يبغض أعداء الله وأعداء الإنسانية، فهو لا يبغض فيهم سوى كفرهم وعصيانهم وتمرّدهم على الله، ولكنّه في العمق يشفق على أشخاصهم، لأنّهم

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٣١٨.
(٢) انظر: تاريخ الطبري: ج٤، ص ٣١٨.

يسيئون إلى أنفسهم ويوردونها مورد الهَلَكَة، ولذا فهو يتألم عليهم ويدعو لهم بالهداية. وَلَهِدَايَةُ شخصٍ واحد من أعدائه أحبّ إليه من أن يموت هذا الشخص على يديه، ولو كان يموت ظالماً، ويبوء بآثامه، وهذا ما عبّر عنه عليّ عليه السلام: **«فوالله ما وقعت الحرب يوماً إلاّ وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي وذلك أحبّ إليّ من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها»**[1]، فكلّ همّ عليّ عليه السلام هو أن يحيا الناس وأن يعيشوا بأمنٍ وسلام، والحياة الحقيقية عنده هي حياة الهدى التي تفتح القلوب على الله وتفتح العقول على الإبداع لِمَا فيه خير الإنسان.

وهكذا كان نجله الحسين عليه السلام.. كان يخاف على أعدائه من مغبّة جرأتهم عليه وإقدامهم على قتله وسفك دمه. يحدثنا أحدهم أنه وقف على الحسين عليه السلام فقال له أبو عبد الله عليه السلام: **«معنا أنت أم علينا؟**

يقول: فقلت: يا بن رسول الله: لا معك ولا عليك، تركت أهلي وولدي، أخاف عليهم من ابن زياد.

فقال الحسين عليه السلام: **«فولِّ هرباً حتّى لا ترى لنا مقتلاً، فو الذي نفس محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بيده لا يرى مقتلنا اليوم رجل ولا يغيثنا إلاّ أدخله الله النار»**[2].

وهكذا نراه عليه السلام يقول ذلك لعبيد الله بن الحرّ الذي فرّ من الكوفة حتّى لا يلتقي بالحسين عليه السلام، ولكن تشاء الأقدار أن يلتقيه في الطريق، ويقصد الإمام عليه السلام خيمته طالباً منه النصرة والانضمام إليه، لكنّه اعتذر، فقال له الحسين عليه السلام: **«فإن لم تنصرنا فاتَّقِ الله أن تكون ممّن يقاتلنا، والله لا يسمع واعيتنا أحد ثُمَّ لا ينصرنا إلاّ هلك»**[3].

(١) نهج البلاغة: وهي خطبة له قالها وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفّين.
(٢) وقعة صفّين: ص ١٤١.
(٣) الإرشاد للمفيد: ص ٨١، وتاريخ الطبري: ص ٣٠٨.

فالحسين عليه السلام صاحب القلب الكبير يخاف على هذا الشخص أو ذاك من النار أو الهلاك إن حضرا مقتله ولم ينصراه.

وفي كلّ الأحوال، فإنّ هذا الشخص وأمثاله لن ينجوا من المساءلة يوم القيامة، ولا ندري إذا كان الله يقبل أعذارهم، بالخوف على الذرّية، لأنّ ذرّية الإنسان المسلم ليست أعزَّ من ذرّية الحسين عليه السلام، كما أنّ اعتذاره بالقول: «لا لكم ولا عليكم» هو كلام مرفوض، لأنّه لا حيادية بين الحقّ والباطل، ومن لم يخذل الباطل فهو قد خذل الحقّ، ومن لم ينصر الحق فقد نصر الباطل، وقد سئل الإمام عليّ عليه السلام عن الذين اعتزلوا القتال معه في حروبه فأجاب: «**خذلوا الحقّ ولم ينصروا الباطل**»[1].

الحسين عليه السلام صاحب مشروع إحيائي وليس انتقامياً

وبالحديث عن الحق، فإنّ الانتصار للحق كان واحداً من أهمّ أهداف النهضة الحسينية، هذه الأهداف التي انطلقت من عناوين قرآنية بامتياز، ومن أهم هذه العناوين: عنوان «الإصلاح»، فقد جاء في وصيّة الإمام الحسين عليه السلام لأخيه محمد بن الحنفية: «**وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة أبي علي بن أبي طالب**»[2].

إنّ هذا النص العاشورائي وسواه من النصوص يؤكّد أنّ أبا عبد الله الحسين عليه السلام لم يكن صاحب مشروع انتقاميّ ولا ثأريّ، ولم يكن راغباً في سفك الدماء، وإنّما مشروعه هو إحياء النفوس وهداية الناس جميعاً إلى الإسلام.

---

(١) نهج البلاغة: ج٤ ص٥.

(٢) الفتوح لابن أعثم ج ٥ ص ٢١، وبحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٣٠

إنّ المشروع الذي حمله الحسين بن عليّ عليه السلام هو المشروع عينه الذي حمله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحمله أبوه عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو مشروع الهداية، كما أنّ الثقافة التي بشّر بها عليه السلام هي ثقافة الحبّ والرحمة والتواصل، ومسؤوليتنا أن نقدّم الحسين عليه السلام باعتباره داعية للسلام وللحبّ، كما هو داعية للعدل.

الحسين عليه السلام والصورة الدموية

وإذا كان مشروع الحسين عليه السلام هو هذا، فلا بدّ أن تكون وسائل إحياء ذكرى الحسين عليه السلام على مستوى هذا المشروع ومنسجمة مع رسالته عليه السلام كامل الانسجام، ولذا عندما يصرّ البعض على إحياء ذكرى عاشوراء من خلال وسائل الإدماء المعروفة فإنّه يحييها بعمل منفّر في نظر الكثيرين من أتباع الحسين عليه السلام ومحبّيه فضلاً عن غيرهم، الأمر الذي يفرض إعادة النّظر في جدوى هذه الوسيلة[1].

إنّ أهميّة الشعائر الحسينية والإحياءات المختلفة لذكرى الحسين عليه السلام وكلّ الأئمة من أهل البيت عليهم السلام هي أن تؤدّيَ هذه الوظيفة، وأن تُدخل الحسين عليه السلام إلى القلوب، وتعرّف الناس برسالته، فإذا كانت أساليب الإحياء منفّرة أو مقزّزة بشكلها أو بمضمونها، فإنّها ستشكّل خيانة للحسين عليه السلام. إنّ المقياس في نجاح الوسيلة الإحيائية هو في تمكّنها من أن تفتح قلوب الناس على الحسين عليه السلام، وأنت إذا فَتحت قلوب الناس على الحسين عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام فأنت بذلك ستدخل بكلّ سهولة إلى عقولهم لتفتحها على فكر الحسين عليه السلام، وستدخل إلى حياتهم لتغيّرها على صورة الحقّ الذي يمثّله الإمام الحسين عليه السلام.

وهكذا هو مشروع حفيده الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف، فهو لن يخرج لأجل الثأر والانتقام واستخراج جثث الموتى من القبور ثمَّ صلبها، كما يزعم البعض، بل

(١) ومن يريد التعرف على الموقف من هذه الممارسة الإدمائية فيمكنه مراجعة ما كتبناه حول ذلك في كتاب: عاشوراء قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء ص١٢٠ وما بعدها.

إنّه سوف يخرج حاملاً لواء العدل، ومبشِّراً بثقافة الحياة، ولا حياة بدون عدل، فالعدل هو عماد الحياة، كما أنّه لا حياة بدون حبّ، فالحبّ هو روح الحياة.

بيّض قلبك والبس ما شئت

ولهذا تعالوا أيها العاشقون للحسين عليه السلام ونحن نبكيه أن نبكيَه بكاء المحبّين لا بكاء المنتقمين، وهلموا بنا ونحن نلبس السواد على الحسين عليه السلام أن لا ندع اللون الأسود يدخل قلوبنا ليملأها بالحقد والبغضاء، فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام وقد سئل عن لبس السواد «**بيّضْ قلبك والبسْ ما شئت**»(١)، فالسواد هو تعبير رمزي عن التعاطف مع الحسين عليه السلام، ولكن لا بدّ أن تبقى قلوبنا نقيّة بيضاء، كبياض قلب الحسين عليه السلام، وكنقاء شرف زينب، وكصفاء منحر الطفل الرضيع.

والسلام على الحسين عليه السلام وعلى عليِّ بن الحسين عليه السلام وعلى المُستشهدين بين يدي الحسين عليه السلام وعلى السائرين على نهج الحسين عليه السلام ورحمة الله وبركاته.

(١) علل الشرائع للشيخ الصدوق ص٣٤٧.

الفصل الرابع

في الخطاب العاشورائي

❋❋❋

المحور الأول: قراءة نقدية في الخطاب العاشورائي المعاصر

المحور الثاني: كيف ندير الاختلاف حول الشعائر؟

لا نبالغ عندما نقول: إنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام كانت نهضةً إنسانيّةً بامتياز، إنسانيّةً في أهدافها ومنطلقاتها وفكرها ورسالتها[1]، وهي تحمل كلّ عناصر الفكر الإنسانيّ وكلّ القيم المتسامية. والنّهضة الإنسانيّة بحاجةٍ ـ في استمراريّتها ودوام تأثيرها ـ إلى خطاب إنسانيّ يحمل قيمها ويستهدي رسالتها، ويبشّر بها وينشرها بين النّاس، فإذا ما افتقدت أيّ نهضة مثل هذا الخطاب الإنسانيّ، فإنّها بالتّأكيد ستنتهي وسيؤول أمرها إلى الزّوال.

وهذا الفصل وهو الرابع في هذا الكتاب نخصّصه للحديث عن هذا الخطاب، وهو يتضمن محورين أساسيين:

المحور الأول: نحاول فيه تقديم قراءة نقديّة لهذا الخطاب لنرى ما له وما عليه، ونتعرف على أهم الخطوات اللازم اتباعها في سبيل الارتقاء به إلى المستوى المطلوب.

والمحور الثاني: نسعى فيه إلى تقديم رؤية حول كيفية إدارة الخلاف حول طبيعة الخطاب العاشورائي وبعض الطقوس والشعائر، فكيف ننظّم اختلافاتنا فلا ينزلق الخطاب إلى متاهات تثير الفتنة في الساحة؟

(١) وهذا ما أوضحناها بشكل مفصل في المحور الثالث من الفصل الأول.

المحور الأول
قراءة نقدية في الخطاب العاشورائي المعاصر[1]

والسّؤال: هل الخطاب العاشورائيّ ولا سيّما خطاب المنبر الحسيني ارتقى إلى مستوى هذه النّهضة ومشروعها؟ وحمل قيمها الإنسانيّة ورسالتها الإسلاميّة؟

الإنصاف يقتضي منّا القول بأنَّ الخطاب العاشورائيّ المعاصر، رغم إيجابيّاته الّتي لا يمكن إنكارها، لم يرقَ إلى مستوى النّهضة وتطلعاتها، بل إنّه عرف الكثير من الإخفاقات والسّلبيّات، وهذا بيان تفصيلي لهذه الحقيقة:

١ـ ما المقصود بالخطاب العاشورائيّ؟

وفي البدء، لا بدّ من أن نشير إلى أنّنا لا نقصد بالخطاب العاشورائيّ خصوص ما يتلوه قارئ العزاء أو الخطيب الحسينيّ فحسب، فما يتحفنا به قارئ العزاء، هو جزء هامّ ومصداق بارز لهذا الخطاب العاشورائيّ، لكنّه لا يختصره، بل إنّ كلّ جهدٍ شفهيّ أو كتابيّ، سرديّاً كان أو تحليليّاً، شعريّاً أو نثرياً، قصصيّاً أو مسرحيّاً... إنّ كلّ جهدٍ من هذا القبيل، هو خطاب يعكس هذه النّهضة وأهدافها.

وفي ضوء ذلك، يغدو كلّ واحدٍ منّا معنيّاً بهذا الخطاب ومنتجاً له، فعندما تشرح لصديقك معنى النَّهضة وأهدافها وشخصيَّة رجالاتها، فأنت تقوم بإحياء ذكرى الحسين عليه السلام وتتقدم بخطابٍ عاشورائيّ، وكذلك الأستاذ الّذي يشرح لطلابه أهداف هذه النَّهضة الإنسانيَّة، والفنّان الّذي يرسم بريشته لوحةً لمشهدٍ

(١) هذا المحور هو في الأساس محاضرة ألقيت في إحدى ليالي عاشوراء في عام ١٤٣٢هـ.

عاشورائيّ، أو الفنّان الّذي ينتج فيلماً عن هذه النّهضة... إنّ هؤلاء جميعاً يساهمون في تقديم خطابٍ عاشورائيّ وقد يكون مؤثراً أكثر من غيره.

أجل، يبقى لخطاب المنبر الحسيني الذي يعتليه الخطباء وقراء العزاء ومن يسمون بـ «الرواديد» دورٌ محوريٌ في مخاطبة الجمهور العام، ولذا كان لزاماً علينا أن نوليه أهميّة خاصة، وهو ما سوف نركز الحديث عنه في هذا المحور.

والمنبر الحسيني يقوم على عدّة مرتكزات أساسية وهي:

١ـ الخطيب.

٢ـ المخاطب.

٣ـ الخُطبة.

والخطبة تتكون من عدة أجزاء:

١ـ مقدمة.

٢ـ محاضرة.

٣ـ التخلّص (الربط بين المحاضرة والمصيبة).

٤ـ المصيبة (سرد السيرة الحسينية).

وعناصر الخطبة المذكورة، منها ما يتّصل بالمضمون، ومنها ما يتّصل بالشكل أو طريقة الأداء أو الأطوار الإنشادية، وأقصد بالمضمون المادة المكوّنة للخطاب، من شعر، أو قصص، أو سيرة، أو موعظة، وأقصد بالشكل الطريقة الأدائية، حيث يلاحظ أنّ طريقة الإنشاد الشائعة هي طريقة الإنشاد الشجي، والتي تعتمد على ترجيع الصوت بطريقة مفجعة ومبكيّة.

والأطوار الإنشادية المعتمدة عندهم عديدة:

١ـ الدرج.

٢ـ المثكل.

٣ـ الحداء.

٤ـ التخميس.

٥ ـ القزويني.

وتطوير خطاب المنبر الحسيني يفرض تطويراً في العناصر الثلاثة المشار إليها (الخطيب، المخاطب، الخطبة)، بما يتلاءم مع وظيفة هذا الخطاب التغييرية، فوظيفة الخطاب العاشورائي هي التي يُفترض أن تحكم عمليّة التطوير، ومن هنا فإنّ تحديدنا لوظيفة الخطاب المذكور هي المعين لنا في عملية التطوير.

٢ـ وقفة مع الخطيب والمخاطب

ومع أنّ حديثي مخصّص للكلام حول العنصر الثالث المتقدّم، أعني الخطاب، إلا أنّي سوف أسجل وقفة سريعة عند العنصرين الأول والثاني، أعني ما يتّصل بالخطيب والمخاطب، وإليك توضيح ذلك:

أولاً: فيما يتّصل بالخطيب، فلا شكّ أنّه يمثّل عنصرًا هامّاً في المعادلة، ونجاح المنبر الحسيني مدينٌ بنسبةٍ كبيرة لكفاءة الخطيب وقدرته على إيصال الرسالة إلى المتلقي، كما أنّه لا مجال للحديث عن أي تطوير للمنبر الحسيني إذا لم يتم إيلاء هذا العنصر العناية اللازمة به. وما تلزمنا الإشارة إليه في هذه العجالة هو أنّ الخطيب الحسيني لن يتسنى له القيام بدوره على أتمّ وجه ما لم يمتلك جملة مؤهّلات وملكات خاصة، وعلى رأسها الملكات الروحيّة والمؤهلات الثقافيّة، بالإضافة إلى امتلاكه حظاً مقبولاً من فن مخاطبة الجمهور، ومما يؤسف له أنّ ثمّة شريحة كبيرة ولعلّها الأكثر عدداً ممّن يعتلون المنبر الحسيني لا يملكون

المؤهلات الكافية، ولذا فإنّهم يساهمون في تجهيل المستمع وتلقينه معلومات غير دقيقة أو أفكار خرافية أو مفاهيم مغالية أو متشددة، ما قد يُسهم في زيادة منسوب العصبيات المذهبيّة في المجتمع أو في تقديم صورة غير لائقة عن خط أهل البيت عليهم السلام.

ومردّ ذلك إلى عدم إيلاء قضيّة المنبر الأهميّة اللازمة من قبل المعاهد والحوزات العلميّة والمرجعيات الدينيّة، ولذا رأينا أنّ معظم أهل العلم قد عزفوا عن التصدّي للمنبر ومَهمّة الخطابة، معتبرين أنّ ذلك لا يليق بالعالم والفقيه، فتركوا المجال لمن ليس لهم قدم راسخة في سوق العلم والفقه، كما أنّه لم تقم لدينا معاهد متخصّصة للخطابة الحسينية. أجل علينا أن لا نغفل ولا نتغاضى عن وجود نماذج رائدة من خطباء المنبر الحسيني المثقفين والأدباء والفضلاء ممّن كانت لهم بصمات جيّدة في الارتقاء بهذا المنبر ليكون مدرسة سيارة ومتحركة في الواقع الإسلامي، لكنّها ـ مع الأسف ـ تبقى حالات نادرة وجهود فرديّة ولم ترق إلى مستوى الظاهرة العامة، ونأمل لبعض المحاولات المعاصرة الساعية إلى تأسيس معاهد حسينيّة متخصصة أن تتكلل بالنجاح، لكننا نعتقد جازمين أنّ الخطيب الحسيني لا يمكن أن يؤدّي الرسالة المطلوبة منه ما لم يتسلّح بالعدة العلميّة الكافية التي تمكّنه من تقديم خطاب رسالي، ثقافي وتربوي متماسك ينفتح على الجيل المعاصر وهمومه وطموحاته، ولا أعتقد أنّ مجرد دخول الخطيب في دورة ثقافية لمدة سنة ـ مثلاً ـ كافٍ ليصنع منه خطيباً محاضراً في قضايا الدين والتاريخ والمجتمع. كما أنّ الخطيب ليس مطرباً ليكون الأساس في مهمته هو حسن الصوت، كما أنّه ليس مهرجاً، يعمل على إثارة غرائز الجمهور. إنّ الخطيب هو صاحب رسالة، وعليه أن يوظِّف صوته ومهارته الخطابية لمصلحة الرسالة.

ثانياً: فيما يتّصل بالمخاطب، فإنّ كلمتي الوجيزة التي أسجلها هنا هي أنّ

المخاطب والمستمع له دور أساسي وفعال في رفع مستوى الخطاب وتسديد الخطيب. إنّ حضور الجمهور بحسِّه النقدي كفيل برفع مستوى الخطاب، وبإشعار الخطيب بالمسؤولية عن كل كلمة يقولها وكل معلومة ينقلها، ومن هنا كان من الضروري أن ينأى المخاطَبُ بنفسه عن أن يكون مجرد إمعة[1] أو متلقٍ يتقبّل كل ما يلقى إليه، أو يرى نفسه غير معني بهذا الخطاب وأنّه قد قضى واجبه الديني وأدى قسطه للعلى بمجرد الاستماع إلى مجلس عزاء أو مرثية. إنّ على كل شخص مؤمن بأهميّة الثورة الحسينيّة وفاعليتها وضرورة استمرارها حية فاعلة مسؤولية كبيرة في حمل همّ هذه النهضة ونشر قيمها، ولذا فلا بدّ أن يكون معنيّاً بالخطاب العاشورائيّ، وأن يساهم في تقديمه وتطويره.

إنَّ الجمهور العام معنيّ بأن يكون جمهوراً مشاركاً بفاعليّة، وعندما يستمع، فعليه أن يستمع بعقلٍ مفتوح وأذنٍ واعية... وأن يقيّم كلّ ما يُلقى عليه. ولا يعيرن عقله أو يعطي سمعاً لكلّ أحد، فالاستماع مسؤولية، وقد ورد في الحديث عن أبي جعفر عليه السلام: «**من أصغى إلى ناطقٍ فقد عبده، فإن كان النّاطق يؤدّي عن الله فقد عبد الله، وإن كان النّاطق يؤدّي عن الشّيطان فقد عبد الشّيطان**»[2].

وقصارى القول: إنَّ التّثقيف مسؤوليّة، وهي مسؤوليّة مشتركة بين الخطيب الّذي يقوم بتثقيف النّاس، والمستمع الّذي لا بدَّ له من أن يعرف كيف يتثقَّف وعمَّن يأخذ ثقافته.

(١) «الإمعة ـ بكسر الهمزة وتشديد الميم ـ: الذي لا رأي له فهو يتابع كل أحد على رأيه، والهاء فيه للمبالغة»، انظر النهاية لابن الأثير ج ١ ص ٦٧، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا تكونوا إمعة تقولون إنْ أحسن الناس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إنْ أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا فلا تظلموا**»، انظر: سنن الترمذي ج ٣ ص ٢٤٦، وفي الحديث عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال لفضل بن يونس: «**أبلغ خيرا وقل خيرا ولا تكن إمعة** . قلت: وما الإمعة؟ قال: **لا تقل: أنا مع الناس وأنا كواحد من الناس. إن رسول الله** صلى الله عليه وآله **قال: يا أيها الناس إنما هما نجدان نجد خير ونجد شر فلا يكن نجد الشر أحبّ إليكم من نجد الخير**»، انظر: تحف العقول عن آل الرسول ص ٤١٣.

(٢) الكافي ج ٦ ص ٤٣٤.

٣ ـ المزايا الإيجابية للخطاب العاشورائي

بالعودة إلى العنصر الثالث، أعني الخطاب العاشورائيّ، فإنّي وفي ضوء التّعريف المتقدّم له أدخل الآن إلى دراسته وتقييمه، وقد قلنا إنّه يحمل الكثير من الإيجابيّات، ويمتلك الكثير من عناصر القوّة:

الإيجابيَّة الأولى: أنَّه يمتلك قدرةً على الاستقطاب الجماهيريّ قلَّ نظيرها، فقد لا تجد شخصاً مهمّاً كان متفوِّهاً أو خطيباً مقتدراً يستطيع أن يستقطب النَّاس ويجذبهم إليه كما يستقطبهم الخطيب الحسينيّ والمنبر الحسينيّ، وباعتقادي فإنّ منشأ هذه القدرة على الاستقطاب ليست في الخطيب ولا في الخطاب بمقدار ما هي حرارة القضيَّة التي يتناولها الخطاب والخطيب، عنيت بذلك قضية مقتل الحسين عليه السلام، وهذا ما أشارت إليه الكلمة المروية عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنَّ لقتل الحسين حرارةً في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً**»[1] إنّ هذه الحرارة هي الّتي تمتلك قوَّة الجذب، فالحسين عليه السلام ساكن الضمائر ومتربع على عرش القلوب، ولا أخال إنساناً يمتلك حساً سليماً يمكنه أن لا يتفاعل عاطفياً وروحياً مع مأساة كربلاء.

الإيجابيَّة الثَّانية: هي دوره الاستنهاضيّ والتَّعبويّ، فهو كان ولا يزال قادراً على استنهاض الأمَّة وتعبئتها، ودفعها نحو الحركة والثَّورة، وربَّما في هذا السّياق، جاءت كلمة الإمام الخميني المعروفة: «كلّ ما عندنا فهو من كربلاء ومن عاشوراء».

الإيجابيَّة الثَّالثة: هي دوره الثَّقافيّ والتَّنويريّ، فنحن لا نُنْكر أنَّ بعض الخطباء العاشورائيّين والعلماء المفكّرين، ممن تحدَّثوا وكتبوا عن الثَّورة الحسينيّة، قد امتلكوا خطاباً تنويريّاً تثقيفيّاً واستطاعوا أن يربطوا عاشوراء بالواقع المعاصر

---

(١) مستدرك الوسائل، ج١، ص ٣١٨.

وأن يقدموا تحليلاً مترابطاً لهذه النهضة وأهدافها ومنطلقاتها، ونستطيع أن نذكر على هذا الصعيد أسماء بعض هؤلاء الأعلام، وعلى رأسهم: الشيخ الوائلي والشهيدين الصدر ومطهري، والسيد فضل الله والشيخ شمس الدين وأعلام آخرين.

هذه أهم الخصائص الإيجابيّة للخطاب العاشورائيّ.

٤ ـ سلبيات في الشكل والمضمون

وإلى جانب الخصائص الإيجابيَّة المذكورة، هناك إخفاقات وسلبيّات وثغرات، يمكن رصدها في الخطاب المذكور، منها ما يتّصل بالمضمون ومنها ما يتّصل بالشكل، ونحن نعرض إليها فيما يلي بالنقد الهادف في سبيل تلافيها بما يخدم رسالة النهضة الحسينية.

أما ما يتّصل بالشكل فأعتقد أنّ أهل الاختصاص هم الأقدر على رصد هذه الثغرات والعمل على تلافيها، ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نسجل في هذا الصدد ملاحظتين:

الملاحظة الأولى: أنّ العناية بالصوت أمر جميل بكل تأكيد، لأنّ الصوت الحسن الندي يؤثّر بشكلٍ كبير في تعميق المضمون في النفس والوجدان، بيد أنّ هذا لا ينبغي أن يشكّلٍ مقياساً ومعياراً لنجاح الخطيب أو فشله، وعندما يغدو الأمر كذلك ويصبح تقييم الخطيب على أساس الصوت، فهذا يعني أننا أمام مشكلة تعبّر عن انحراف حاصل في وظيفة الخطاب.

الملاحظة الثانية: غلبة اللهجة العامية العراقية على مجالس العزاء، وإذا كان استخدام هذه اللهجة مبرّراً في العراق وبعض البلدان الخليجية، ولكن لست أدري ما الموجب لأن يتكلّم الخطيب في لبنان وبلاد الشام عامة باللهجة العراقية

ويستخدم أشعاراً ومصطلحات بلهجة لا يفهم منها السامع شيئاً؟! هذا مع أنّ بالإمكان استخدام الشعر العامي اللبناني وهو مفهوم لدى الجمهور العام في بلاد الشام وأكثر وقعاً في النفوس، والكثيرون يفهمون هذا اللون من الشعر أكثر من فهمهم اللغة العربية الفصحى.

وأمّا السلبيات التي يمكن رصدها على مستوى المضمون الديني للخطاب العاشورائي فهي التالية:

السّلبيّة الأولى: إنَّ هذا الخطابَ لا يزال في الأعمِّ الأغلب خطاباً مذهبيّاً في منحاه العام، فهو يحبس الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ونهضته في إطارٍ مذهبيٍّ ضيِّقٍ، ليغدوَ إمامَ الطّائفة وإمامَ الجماعة، وليس إمامَ المسلمين، فضلاً عن أن يكون إمامَ الإنسانيّة.

السَّلبيَّة الثَّانية: إنَّ هذا الخطاب لا يزال خطاباً عاطفيّاً بامتياز، ويطغى عليه المنحى العاطفيّ الّذي يستهدف إبكاء النّاس، ليغدوَ ذلك هدفاً للخطيب الحسينيّ، ومقياساً لنجاحه، ولا ريب أن للعاطفة دوراً أساسياً في هذا المجال بيد أنّ ذلك لا يجعلها غاية مطلوبة في حد ذاتها، إنّ العاطفة لا بدّ أن تمثّل مدخلاً ومفتاحاً للتغيير في السلوك وتعميق الارتباط الفكري والروحي والمعنوي.

السَّلبيَّة الثَّالثة: إنَّ الخطاب العاشورائيّ يتصف بالتَّسامح والتَّساهل في عرض الأفكار، ففي المادة التثقيفية التي يقدمها هذا الخطاب سواء كان في المجال الأدبي أو الفكري أو التَّاريخيّ، لا نلمس ـ في الأعمّ الأغلب ـ تدقيقاً وتحقيقاً وتوثيقاً وتجديداً، الأمر الذي يجعل هذا الخطاب محشواً بالقصص والحكايا التي تُرسل إرسالاً دون أن يُذكر لها سند أو يعرف لها مصدر، كما أنّه مملوء بالتناقضات، حيث تطرح الرواية ونقيضها أو ما يضادها، وقد يحصل ذلك على لسان الخطيب الواحد، ولعلَّ غلبة المنحى العاطفيّ المشار إليه، هي الّتي أدَّت

إلى هذا التَّسامح في تقديم النصّ التَّاريخيّ ونقل الأخبار والروايات والقصص دون تثبت، لأنَّه إذا كان الغرض هو إبكاء الجمهور، فلا ضير في أن يتوسَّل الخطيب كلّ شيءٍ يستدرّ الدَّمعة، بصرف النَّظر عن صحّته أو عدم صحّته.

وما أرومه في هذه المقام، هو التَّركيز على هذه السلبيَّة الثَّالثة، أي مسألة التّسامح في مصادر الخطاب العاشورائيّ، لأنّي أعتقد أنَّ لهذا الأمر سلبيَّاتٍ كثيرةً ونتائج خطيرة على الوعي العام وعلى صورة الإمام الحسين عليه السلام وهدفيّة ثورته، ولا سيّما في هذا الزمن الذي أصبح فيه الخطاب المذكور يبث عبر وسائل الإعلام ويسمعه الآلاف من الناس على اختلاف مستوياتهم وانتماءاتهم، ونجد البعض من ذوي النوايا السيئة أو الحسنة يعمدون إلى استغلال الأمر فينشرون بعض المقاطع الغريبة والمستهجنة من كلمات قراء العزاء وذلك بغرض النقد والإصلاح أو بغرض التشهير بشيعة أهل البيت عليهم السلام وتسجيل النقاط عليهم. وقد انتشرت في الآونة الأخيرة بعض المقاطع المصوّرة والمختارة بعناية لتظهر تناقض الخطباء في القضية الواحدة. وقد ترك ذلك أصداءً سلبية في نفوس الكثيرين من أتباع أهل البيت عليهم السلام فضلاً عن غيرهم.

هل إن النص العاشورائي عصي على التحقيق؟

وربما يسأل سائل: لماذا يبقى النص العاشورائي عصياً على التحقيق وكأنه يمتلك حصانة ضد الاختراق؟ ولماذا يبقى التسامح والتساهل وعدم التدقيق هو السمة العامة التي تطبع هذا النص الذي يرد على لسان الخطيب، مع أنّ لدينا الكثير من الجهود البحثية والتحقيقية التي يمكن البناء عليها لتقديم مادة تتصف بالاعتبار التاريخي؟

والجواب: إنّ السرّ في ذلك يكمن ـ في جانب أساسي ـ فيما أشرنا إليه في السلبية الثانية من طغيان البعد العاطفي على الخطاب العاشورائي، فعندما تتحوّل

الدمعة إلى هدفٍ في حدِّ نفسها فإنّ ذلك سوف يسوّغ للخطيب أن يستعين بكل الشواهد التي توصله إلى هذه النتيجة، بصرف النظر عن دقة هذه الشواهد من الناحية التاريخية[1].

إنّ فداحة الخطب وقداسة الرموز سمح بأسطرة القضيّة وجعلها مكوّناً لهوية الجماعة وجزءاً من وجدانها، وبالتالي أصبح من الصعب جداً ضبط النص والقيام بعمل تصحيحي والوقوف في وجه ما يضيفه مخيال القراء، وأصبحت جهود المصلحين والباحثين على هذا الصعيد تذهب هباءً منثوراً ولا تجد لها آذاناً صاغية.

٥ ـ الصمت ومحاولات التوجيه؟!

وثمة تساؤل يطرح نفسه في المقام وهو لماذا هذا السكوت العام من قبل الفقهاء إزاء السلبيات المذكورة، ولا سيما ما يتّصل بالتسامح في مصادر النص، واقتصار محاولة التصحيح على بعض المجددين والمفكرين الإسلاميين؟

والجواب: إنّ الفقهاء وهم أصحاب الكلمة الفصل في الوسط الشيعي قد اكتسبوا ثقافتهم وكونوا تصوّرهم عن الحدث العاشورائي من خلال المنبر الحسيني، وقد تلقوا منذ الصغر هذه المفاهيم والمقولات في أجواء المأساة والبكاء ممزوجة بالألم والأسى والفجيعة ما جعلها مستقرة في الوجدان بل في اللاوعي، ولذا غدوا يأنسون ويألفون ـ كسواهم من عامة الشيعة ـ استحضار هذه الفجائع ويتفاعلون معها عاطفياً ويرون في ذلك ممارسة عبادية تعبر عن عمق الولاء والحب لأهل البيت عليهم السلام وإحياء أمرهم، إنّ هذه التربية التي تربى عليها الفقيه والعالِم منذ نعومة أظافره سوف تجعل من العسير عليه أن يواجه أو

(١) تحدثنا عن هذا الأمر بشكل مفصّل في كتاب عاشوراء قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء.

يعترض حتى لو اكتشف فيما بعد أنّ القصة المتداولة لا يوجد أي شاهد عليها بل يتجه لاشعورياً إلى التبرير إرضاءً لأحاسيسه وانسجاماً مع تربيته ومشاعره الداخلية التي يصعب عليها التخلي عما اعتادت سماعه من أحداث وألفته من صور حتى صار ذلك جزءً من وجدانه. وهذا المقدار من الذاتية قد لا يستطيع الفقيه التخلص منه إلاّ بجهد جهيد.

على أنّ بعضهم لا يرى أنّ النقد مؤثّرٌ، أو أنّه لا يمتلك جرأة المواجهة حتى لو اقتنع بأنّ هذه القصة أو تلك ممن يُتلى على المنابر صبحاً وعشياً ليست صحيحة أو لا دليل عليها، فيلوذ بالصمت حفاظاً على مكانته الاجتماعية والدينية، ويركن إلى السكوت خشية أن تطاله أو تناله سهام الإسقاط أو تحاصره جهود المقاطعة.

ويرى المحدث النوري أنّ سبب عدم قيام العلماء بالنهي عن اختلاق الروايات يعود «إمّا إلى عدم اطلاعه عليها أو لعدم ملاحظة ما فيها من نقص وشذوذ أو لعدم تمكنه من النهي لضعف حاله عن مواجهة هؤلاء وردعهم»[(١)].

محاولات التوجيه

ولم يقف الأمر عند حدود الصمت عمّا يجري بل إنّ البعض ذهب إلى خطوة أكثر خطورة، وهي محاولة تبرير واقع الخطاب العاشورائي، وذلك بالقول: إنّ الروايات المشجية والمؤثرة والتي تشتمل على صور مؤثرة من المعاناة والمأساة، لا داعي للتشدد في رفضها وإخضاعها لمعايير علم الرجال الدقيقة، لأنّها ما دامت لا تشتمل على مفاهيم مزورة أو قلقة ولا تمسُّ المعتقد ولا تنافي الحكم الشرعي، فلا ضير في طرحها.

ولكن هذا الكلام لا يستقيم، وله مخاطر جمة، فهو سيعني الإقرار بالواقع

(١) اللؤلؤ والمرجان ص٢١٣.

على علاته، ويبرر الكذب الجزئي، بحجة أنه لا يترتب عليه مفسدة أو ضرر يتّصل بالعقيدة أو الشريعة، وهذا بالإضافة إلى أنّه غير مبرّر شرعاً فإنّه سيشرع أبواب الكذب على مصراعيه، وسنغدو أمام نصٍّ فضفاض لا يمكن ضبطه ولا تقف المسألة عند حد، وهكذا ستضيع الحقيقة وتتشوه القضية. إنّ المسألة مسألة منهج واضح يرفض استغلال الأكاذيب ولو كان ذلك لغاية نبيلة، وهي تحريك مشاعر الجمهور.

وقد يقترح البعض حلاً آخر يتلخص في إبقاء كل المرويات ـ بصرف النظر عن الوثاقة بها سنداً أو مصدراً أو مضموناً ـ قيد التداول، ولكن على أن تطرح لا بعنوان أنها أحداث تاريخية ووقائع حقيقية، بل تصاغ بلغة أدبية رمزية افتراضية، على طريقة لغة الشعر، وبذلك تؤدي وظيفتها وغرضها دون أن نكون قد وقعنا في المحاذير الشرعية، من التقول والكذب. ألا ترى أنّ الشاعر دعبل أنشد شعراً عند الإمام الرضا عليه السلام ضمّنه بعض الصور المتخيّلة، فقال:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً
وقد مات عطشاناً بشط فرات

إذا للطمت الخد فاطم عنده
وأجريت دمع العين في الوجنات

أفاطم قومي يا بنت الخير فاندبي
نجوم سماوات بأرض فلات(١)

ويلاحظ أنّ الإمام عليه السلام ـ بناءً على صحة الرواية ـ لم يرَ بأساً فيما قاله دعبل، وليس ذلك إلا لأنه يقدِّم صورة شعرية تعتمد على الخيال، وليس أحداثاً حقيقية وقعت في التاريخ.

---

(١) كشف الغمة في معرفة الأئمة ج ٣ ص ١١٤.

إلا أنّ هذا الطرح لا أعتقد أنّه هو الحل المناسب، لأنّ الواقع لا يشير إلى انضباط المسألة، فما كان يطرح بعنوان خيال شعري سرعان ما يتحوّل إلى حقائق، وسيأتي أنّ بعض الأمور ربما تمّ طرحها في باديء الأمر بعنوان لسان الحال ثمّ غدت تطرح على المنابر وكأنها حقائق تاريخية.

والحلّ الأمثل هو أن يصار إلى اتخاذ موقف أو قرار جريء بالسعي إلى إصلاح الخطاب العاشورائي، فليتحملْ العلماء وعلى رأسهم الفقهاء مسؤوليتهم الإسلامية في الإصلاح باعتماد خطة متكاملة وتدريجية تستهدف العمل الجاد بدون مداهنة أو تسويف، ولا يترك الأمر إلى قراء العزاء لأنّ الخطابة بالنسبة لمعظمهم غدت مهنة يعتاشون عليها فلا يتوقع منهم القيام بإصلاح ذاتي.

وفي هذا السياق سوف أتقدم بأفكار مختصرة تسعى ـ أولاً ـ إلى بيان ما هي المصادر الصّحيحة والمعتبرة للثّقافة الحسينيّة والعاشورائيّة، ثمّ أبحث ثانياً عن المصادر غير المعتبرة:

٦ـ المصادر المعتبرة للثقافة العاشورائيّة

أمّا المصادر المعتبرة، والّتي لا بدّ من الاعتماد عليها في الخطاب الديني عموماً ومنه الخطاب العاشورائي، ولن يكون الخطاب إسلامياً إذا تجاوزها وابتعد عنها فهي تتمثل بأمرين أساسيين:

أوّلاً: القرآن الكريم.

وهو المصدر الأوّل للثّقافة الإسلاميّة، ويمتاز بأنّه ـ أيضاً ـ المرجع الّذي تُحاكم على ضوئه كافّة المصادر الآتية، وذلك لأنّه مصون من الخطأ ومحفوظ من التلاعب والتحريف.

وحيث إنّه ليس هناك شكٌّ في أنَّ القرآن الكريم هو مصدر الثَّقافة الإسلاميَّة

الأوّل، فإنَّ من الضروري أن نعرف كيف نفهم القرآن؟ وكيف نقدّمه إلى النّاس؟ لأنّ بعض الخطباء والكتَّاب قد ينزلق إلى اعتماد منحى خطير في هذا المجال، وذلك من خلال فتح باب تأويل القرآن على مصراعيه، مما يعدُّ خروجاً عن ضوابط قراءة النص وقواعده، هذه القواعد التي يشكّل الظهور العرفي الحجر الأساس فيها. إنّ بعض التأويلات التي تذكر لآيات القرآن الكريم تقترب من العبث والتلاعب بالنص لأنها لا تقوم على قاعدة، ولا ترتكز على أساس، بل ربّما اندرجت في نطاق تحريف القرآن.

فعلى سبيل المثال، قد نسمع بعض الخطباء يفسِّر قوله تعالى: ﴿**كهيعص**﴾ [مريم: ١]، بأنّ الكاف هي كربلاء، والهاء هلاك العترة، والياء يزيد، والعين عطش الحسين، والصّاد صبر الحسين... وهنا نتساءل: كيف يمكن تقبّل هذا التأويل حتى لو استند على بعض المرويات[1]؟!

ولكن ربما يقال: إنّ هذا من التأويل الذي عَلِمَه الأئمة من أهل البيت عليهم السلام فلا يصحّ ردُّ الرواية الواردة في ذلك.

ولكننا نلاحظ على هذا النمط من التأويل:

١ـ أنَّ القرآن الكريم ليس كتاب ألغاز أو أحاجٍ، إنّه بيان وتبيان للنّاس، كما تنصُّ العديد من الآيات الكريمة، وكتابٌ كهذا لا يمكنه أن يستخدم هذه الطريقة المعمّاة في إيصال الفكرة، ولا سيّما أنها تفتح الباب على تأويلات غير منضبطة، ويمكن لكل أحدٍ أن يستغلها في تأويل كتاب الله تعالى والتلاعب بآياته وتفسيرها بما ينسجم مع أهوائه الخاصة.

٢ـ إنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام فيما صحّ لنا من أخبارهم لم يعتمدوا هذا المنهج التأويلي في تفسير القرآن الكريم بل حاربوا ذلك ووقفوا في وجهه واعتبروه

(١) انظر: كمال الدين وتمام النعمة ص ٤٦١،

خطراً على كتاب الله تعالى، ولهذا عندما قيل للإمام الصادق عليه السلام أنّ بعض الناس يروون عنكم أنّ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجال، في إشارة إلى ما جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ**﴾[المائدة: ٩٠]، فيكون الأمر بالاجتناب في هذه الحالات متمثلاً بالابتعاد عن فلان وفلان وفلان! نجده عليه السلام رفض هذا النهج وتقدّم ببيان قاعدة في تفسير القرآن الكريم وفي محاكمة الموروث التفسيري التأويلي، والقاعدة هي ما جاء في قوله عليه السلام: «**ما كان الله ليخاطب خلقه بما لا يعقلون**»[(١)].

ثانياً: السنة الصحيحة

المصدر الثّاني للثّقافة الإسلاميّة هو السُنّة، وهي قول المعصوم أو فعله أو تقريره، والاعتماد على السنة يحتاج من بعض الجهات إلى تدقيق أكثر من التعامل مع القرآن الكريم، وذلك لأنّ القرآن الكريم مصدر معصوم وهو قطعي الصدور، بينما الروايات التي تحكي لنا سنة المعصوم ليست كذلك، بل فيها الكثير من المكذوبات والموضوعات والضعاف، ومن هنا كان تراثنا برمته بحاجة إلى غربلة وتصفية وتنقية، وسوف نشير عمّا قليل إلى كيفية الغربلة هذه، ولكنّ ما نريد التنبيه عليه هنا أنّه من غير المقبول ولا السديد أن يقرأ الخطيب على منبره كل ما وقعت عليه عيناه من الأخبار التاريخية، بل عليه أن يخضعها للضوابط الآتية.

وربما يقال: إنّ إيكال هذه المهمّة التحقيقية إلى الخطيب هي من التكليف بما لا يطاق، الأمر الذي يلزم منه سدّ باب الخطابة الحسينية، وأن لا يُسمح بصعود

(١) تفسير العياشي ج ١ ص ٣٤١، وقد تحدثنا عن التأويل وضوابطه وشروطه في كتاب «أصول الاجتهاد الكلامي» فليراجع.

المنبر إلا للفقهاء الذين لديهم مبانٍ رجالية يستطيعون في ضوئها محاكمة التراث وتقييمه.

ولكننا نقول: ليس الأمر بهذا العسر، فهناك فسحة كبيرة أمام الخطيب، وبإمكانه الاعتماد على تصحيحات بعض الأعلام الرجاليين، وهي متوفرة وتغطي غالب الكتب والمصادر الحديثية[١].

على أنّ بإمكانه أن يستشهد من الروايات بما يكون مضمونه منسجماً مع المفاهيم القرآنية ولا يصادمها، حتى لو لم يتحقق من صحة سندها، فإنّ موافقتها للقرآن الكريم تجبر ضعفها، وتسمح بالوثوق بمضمونها، وهذا ما أشرنا إليه من أنّ الثقافة القرآنية تبقى هي المحور الذي يدور رحا الثقافة الإسلامية عليه، وعلى الخطيب ـ كما الفقيه ـ أن يتسلح بالقرآن ويعتمد عليه، ويتزود من معينه في كل ما يقدمه من مفاهيم وأفكار، أو يستنبطه من فتاوى.

ثالثاً: التاريخ المعتبر

والمصدر الثالث هو التّاريخ، ولكنّ التثقيف المستند إلى الأخبار التاريخية يتوقف على حيازة الخبر على شروط الاعتبار التاريخي. وبيان ذلك: أنّ الاعتبار له عدة مستويات:

الاعتبار الكلامي: وذلك لأنّ القضيّة إذا كانت تتصل ببيان مفهومٍ عَقَديّ فلا بدّ في إثباتها من العثور على دليل قطعي عقلياً كان أو نقلياً.

(١) فيما يتّصل بالكتب الأربعة يوجد العديد من الدراسات التي عملت على تصنيفها وتمييز صحيحها من ضعيفها، وتعتبر كتب المجلسيين محمد تقي وولده محمد باقر (للمجلسي الأول: روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه، وللمجلسي الثاني: مرآة العقول في شرح الكافي، وملاذ الأخيار إلى شرح تهذيب الأخبار) من أوسع ما كتب في هذا المجال وفق المعيار المعروف والمشهور في توثيق الرواة، كما أن تجربة الشيخ آصف محسني تعتبر هي الأخرى من أبرز التجارب المعاصرة في هذا المجال، وميزتها أنّها لم تغط الكتب الحديثية ذات المنحى الفقهي كالكتب الأربعة فقط، بل وشملت أكبر الموسوعات الحديثية الشيعية عنيت بذلك «بحار الأنوار»، من خلال كتابه «مشرعة بحار الأنوار»، ولديه كتاب خاص جمع فيه الأخبار المعتبرة من وجهة نظره، وهو «معجم الأحاديث المعتبرة».

الاعتبار الفقهي: بمعنى الاعتماد على خبر موثوق أو صحيح يرويه الثّقاة، وذلك عندما يكون المفهوم المطروح متصلاً ببيان حكم شرعي.

الاعتبار التّاريخيّ: عندما يتّصل الأمر بنقل حادثة تاريخيّة لا علاقة لها ببيان حكم شرعيّ أو مفهوم عقدي، فهنا قد يكفينا الاعتبار التّاريخيّ، بمعنى أن يكون للحادثة الّتي تُقَدَّم إلى النّاس مصدر تاريخي معتبر ولا يكون المضمون مخالفاً لضوابط وشروط قبول الخبر، مما تأتي الإشارة إليه.

والحقيقة أن المصادر التاريخية المعتبرة أو بتعبير أدق الصالحة للاعتماد عليها في بيان أحداث النهضة الحسينية ومجرياتها ليست بالقليلة، فهي متوفرة، وهي تبلغ العشرات، من تاريخ الطبري وما نقله عن أبي مخنف، إلى «مقاتل الطالبيين» إلى «تاريخ اليعقوبي» إلى «أنساب الأشراف» إلى «الإرشاد» للشيخ المفيد، إلى غير ذلك، ويضاف إليها ما تضمنته بعض كتب الحديث المعتبرة من روايات أضاءت على بعض الجوانب المتصلة بالنهضة الحسينية ومجرياتها.

إنّ الخطيب ليس قصاصاً وإنّما هو داعية رسالي ومسؤول عن بناء جيل على أساس الثقافة الإسلامية الأصلية، ولذا ليس صحيحاً أن يحدّث مستمعيه وروّاد مجلسه بكل خبر يقرأه أو رواية يسمعها وإنّما عليه أن يُخْضِعَ الخبر لضوابط البحث التاريخي.

ربما يقال: لو بنينا على هذا التشدد في نقل الأخبار التاريخيّة لكان اللازم أن يتوقف معظم الخطباء عن صعود المنبر، لأنّه إذا اشترطنا في كلّ روايةٍ أو قصّةٍ يراد نقلها، أن تكون مرويةً بسندٍ صحيح، فلن نجد في معظم الأخبار التاريخيّة ما يتوفر على هذا الشرط.

ولكننا نعلّق على ذلك بأنّه لا داعي لهذا التهويل لأنّ منهج الوثوق هو الكفيل بالتغلب على هذه الثغرة، وهذا المنهج يعتمد على جمع الشواهد المختلفة التي

تشكّل كل واحدة منها قرينة احتمالية، وبضمٍّ هذه الشواهد بعضها إلى البعض الآخر يحصل الوثوق بمضمون القضية، وتكتمل صورة المشهد التاريخي.

ضوابط في محاكمة الخبر

وأمّا الشروط والضوابط التي لا بدّ من توفرها في الأحاديث والأخبار التاريخيّة حتى يتسنى لنا اعتمادها في الثقافة العاشورائية وغيرها، فهي مذكورة ومفصلة في علم الأصول والرجال والدراية، ونحن نشير إلى بعضها، ليضاف إلى ما تقدم من ضرورة توفر الخبر على الاعتبار التاريخي أو الفقهي:

١ـ أن لا يتعارض النقلُ التاريخي مع كتاب الله ومضامينه ومفاهيمه، فالخبر الّذي يعارض القرآن الكريم يجب طرحه وعدم الاعتناء به، حتّى لو كان صحيح السّند، فضلاً عمّا إذا كان ضعيفاً، أجل، علينا وقبل أن نتسرع برمي الخبر بأنه منافٍ لكتاب الله تعالى، أن نكون ملمين بهذا الكتاب ومطلعين عليه ومتشبعين بثقافته ومتدبرين في آياته.

وفي ضوء هذا المعيار، فقد ذكر بعض الفقهاء أنّ الخبر الذي يذمّ بعض الأقوام وبعض الشّعوب وبعض الأعراق، لا بدّ من طرحه، كالرّوايات التي تنهى عن مزواجة الأكراد ومعاملتهم التجارية، معللة ذلك بأنهم «حيّ من الجنّ كُشف عنهم الغطاء»(١)، فمثل هذه الأخبار تنافي روح القرآن ومفاهيمه الأصيلة الّتي جاءت لتقول: لا فرق بين مسلم وآخر، بين إنسانٍ وآخر، إلا بالتّقوى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[الحجرات: ١٣].

وعلى هذا الأساس فعندما يقدّم لنا الخطيب حديثاً أو قصّةً تاريخية تتضمن إقدام الإمام الحسين عليه السلام على ما ينافي عزّته وكرامته، فلا يمكن قبول ذلك. فإنّ أيّ خبرٍ يخدش حرمة مؤمنٍ عاديّ، فضلاً عن أن يخدش حرمة نبيّ أو وليّ،

---

(١) الكافي ج٥ ص١٥٨، من لا يحضره الفقيه ج٣ ص١٦٤، تهذيب الأحكام ج٧ ص١١.

هو خبر مرفوض ويُضرب به عرض الحائط، لأنّه يُنافي الكتاب الكريم الّذي أكّد كرامة الإنسان وعزّة المؤمن، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[الإسراء:٧٠]، وقال سبحانه: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[المنافقون:٨].

٢ـ أن لا يتنافى الخبر مع معطيات العقل الفطريّ والوجدان السليم، وهذا المعيار لا غبار عليه، لأنّ ما ينافي العقل والفطرة والوجدان السليم لا يمكن أن يفعله المعصوم، أو يقوله.

أجل، علينا التنبيه هنا إلى أنّ المعيار في رفض الخبر ليس مخالفته للذّوق أو الاستحسانات الخاصّة، وإنّما المعيار هو العقل القطعي، والفطرة السّليمة المودعة في الإنسان، والّتي كانت إحدى وظائف الأنبياء أن يعملوا على إيقاظها، كما جاء في نهج البلاغة عن الإمام عليّ عليه السلام وهو يحدّد وظائف الأنبياء تجاه الأمّة، يقول: «**وواتر إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَه لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَته، ويُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِه، ويَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، ويُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ**»(١)، يعني أن العقل قد يعلوه الغبار وتجتاحه الأهواء والمصالح، فيأتي دور النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليثير هذه الدّفينة ويكتشف هذا الكنز ويعيده إلى إشراقته.

٣ـ ومن معايير قبول الخبر أن لا يعارض المسلّمات والحقائق العلميّة، والوجه في هذا المعيار هو ما نقوله دائماً إنّ الوحي هو كلام الله، والكون هو خلق الله، ولا يمكن أن يتعارض قول الله مع فعله، وعلينا التنبيه هنا إلى ضرورة عدم التسرع في رمي الخبر وردّه لمجرد منافاته مع فرضية علمية لا تزال موضع جدل بين أهل الاختصاص، إننا نتحدث عن ردّ الخبر في حال منافاته مع الحقائق العلمية، وإنّ حركيّة العلم وتطوّره تفرض علينا المحاذرة والدقة في هذا المجال.

وعلى هامش هذا المعيار علينا أن نشير إلى ضرورة الدقة في نقل أخبار الآحاد

---

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٢٤.

التي تتضمن بعض القضايا الإعجازية العامة والتي لا بدّ ـ بطبيعة الحال ـ أن يراها ويشهدها الآلاف من الناس، ومع ذلك ينفرد بنقلها شخص أو شخصان أو ثلاثة أشخاص، فإنّ الإنسان يستريب في هذا المقام، إذ مع توفر دواعي النقل ولا سيّما أمام غرابة الحدث، فلماذا قد يتفرد بالنقل هذا الراوي أو ذاك؟!

وقد أوضحنا هذه المصادر وسواها بشيء من التفصيل في مجال آخر، فليراجع[1].

هذه إطلالة سريعة على أهمّ المصادر المعتبرة للثّقافة العاشورائيّة والإسلاميّة.

٧ ـ المصادر غير المعتبرة

وأمّا المصادر التي لا يصح اعتمادها في الثّقافة الإسلامية والعاشورائيّة، وإن كان بعض الخطباء الذين يعتلون المنبر الحسينيّ يكثرون من الرجوع إليها فيمكن أن نلخصها بما يلي:

أوّلاً: الأخبار والرّوايات غير الموثّقة

إنّ بعض الخطباء والكتاب لا يتوثّقون من الروايات التي ينقلونها ويتحدثون بها مع الجمهور العام، مع أنّ بعضها ليس له اعتبار تاريخيّ، فضلاً عن الاعتبار الفقهي، وهم يكتفون بنقلها من بعض الكتب غير المعتبرة، مع أنّ وجود الرّواية في كتاب معتبر وقد ألّفه عالم جليل ـ فضلاً عن أن يكون غير معتبر ـ لا يعني أنّها معتبرة وصحيحة وتصلح للتثقيف العام، كما هو الحال في بعض روايات «بحار الأنوار»، حيث إنّ العلامة المجلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو نفسه لا يضمن صحّة جميع أخبار كتابه، بل ربما قال: «وجدْتُ في نسخة قديمة من مؤلفات أصحابنا»[2]، ولهذا

(١) انظر: أصول الاجتهاد الكلامي ص٣٥٨ وما بعدها.

(٢) ورد هذا التعبير في باب الزيارات، انظر: بحار الأنوار ج ٩٧، ص ١٦٩، ١٨٩، و٢٠٧، و٣٣١، وج ٩٨، ص ٢٦٢، وج ٩٩ ص ١١٥، و١٩٧، و٢٤٧، وغيرها من الموارد.

فمجرّد أنّ يجد الخطيب الرّواية مذكورة في «البحار» أو غيره من المصادر، فهذا لا يبرّر له اعتمادها وكأنها حقيقة لا تقبل النقاش أو فوق النقد.

أجل، إنّ بعض الأخبار قد لا يكون لها إسناد بالمعنى المعروف فقهياً، لكنّها تمتاز بقوّة في مضمونها، ولها كيمياء خاصّة، وعليها حلاوة تشهد بصدورها عن الإمام عليه السلام، وقد ورد في بعض الرّوايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ على كلّ حقٍّ حقيقةً، وإن على كلّ صوابٍ نوراً**»[1]، فإذا كان للكلام هذه القوّة في المضمون، وكان منسجماً مع مضامين القرآن الكريم، فيمكن للخطيب أو الكاتب طرحه على النّاس ونقله إليهم وتثقيفهم به، أمّا الأخبار الّتي لا تملك اعتباراً فقهيّاً، ولا اعتباراً تاريخيّاً، ولا تملك هذه القوّة في مضمونها بما يساعد على الوثوق النوعي بصدورها عن المعصوم، فلا يصح اعتمادها في التثقيف العام وإلقاؤها إلى الجمهور.

ويبلغ التساهل في هذا المجال مداه عندما يصبح مصدر بعض الخطباء في سرد الأحداث ونقل الأخبار هو «أرباب المنبر الحسيني»، فيقول لك الخطيب: «نقل أرباب المنابر» أو «حدَّثَ بعض الخطباء» بكذا وكذا.. فالمصدر ـ إذاً ـ هو «بعض الخطباء»! وهكذا ينقل خطيب عن خطيب عن خطيب؛ دون أن تدري من هو ذاك الخطيب! وما مدى دقته وتثبته ووعيه وأمانته! وقد يتردد الكلام المنقول على ألسنة الكثيرين، ويتعرّض للزيادة والنقصان، فكلٌّ يصيغ الحادثة المزعومة بطريقته الخاصة ويضيف عليها من مخياله! وربما يأخذ التساهل منحى آخر، حيث نلاحظ أنّ ما يتردد على لسان خطيب منسوباً إلى «أرباب المنبر»، قد ينقله خطيب آخر بعنوان «ورد في بعض الأخبار» في عملية إلقاءٍ للكلام على عواهنه، واستخفاف بعقول الجمهور.

(١) الكافي ج٢ ص٥٤.

إنّ ما ينقله «أرباب المنبر» ليس مصدراً معتبراً لنقل الرّواية ولبناء الثّقافة الإسلاميّة، وعلى الخطيب أن يتثبت من الأمر وأن لا يرسل الكلام إرسالاً، فالمنبر مسؤولية والحديث مع الناس مسؤولية.

والشيء المؤلم أنّ بعض الأخبار التي تتلى على المنابر الحسينيّة لا أصل لها أو يطالها التحريف دون أن تجد مُنْكِراً لذلك، وكأنّه قُدّر للخطاب الحسيني أن يظلّ بعيداً عن التدقيق وعن اعتماد الضوابط!

ثانياً: الكتب غير المعتبرة

والمصدر الأكثر التباساً في مجال التثقيف العام ولا سيما فيما يتّصل بالثقافة العاشورائية هو الكتب غير المعتبرة، وعدم اعتبار الكتاب لا ينشأ دائما من كون الكتاب مكذوباً أو منحولاً على صاحبه، أو غير ثابت النسبة إليه، بل ربما كان الكتاب معلوم النسبة إلى مؤلفه، بيد أنّ المؤلف قد لا يكون موثوقاً، أو ربما لا يملك خبرة وضبطاً وتدقيقاً، بما قد يجعله يعتمد على ما لا يمكن الاعتماد عليه، فعدم اعتبار الكتاب لا يعني الطعن في شخص مؤلفه ولا يعني أيضاً أنّ كل ما حواه الكتاب مرفوض، ولكن التمييز بين الغث والسمين يحتاج إلى دراية ومعرفة، ومن هنا وجدنا أن العلماء الأبرار الأتقياء كما يقول العلامة المحدّث الشيخ النوري: «لا ينقلون عن الكتاب الذي عرف صاحبه باللامبالاة في نقل الحديث بأن لا يفرّق في نقله بين الأخبار الموهونة وغير الموهونة، ولا يميز بينها في مقام النقل فلا تراه يردّ خبراً على الإطلاق»[١].

ومما يؤسف له أنّ الكتب غير المعتبرة في هذا المقام كثيرة وهي لا تزال متداولة ومنتشرة ويتم طبعها باستمرار، وفيما يلي نشير إلى بعضها:

(١) اللؤلؤ والمرجان ص ٢٢٦.

١ـ كتاب «إكسير العبادات وأسرار الشّهادات» للدّربندي، والمعروف اختصاراً بأسرار الشهادة، وهو من الكتب التي أدخلت إلينا العديد من الأخبار التي لا أصل لها، وأعتقد أنّ المحدث النوري المعاصر لهذا الشيخ قد أوضح الأمر بشكل جلي حول شخصية الدربندي وذهنيته وكيفية جمعه لكتابه المذكور، مؤكداً أنّه لا يمكن الوثوق بكتابه، وإن كان هو رجلاً صالحاً في نفسه، ومن أهم الدلائل التي ذكرها المحدث النوري لإثبات عدم الوثوق بكتاب «أسرار الشهادة» أنّ الدربندي اعتمد كمصدر لكتابه على بعض المجاميع المجهولة التي نهى بعض كبار الفقهاء آنذاك عن نشرها أو قراءتها، لما تضمنته من الأكاذيب[1]. والغريب أنّ هذا الكتاب وأمثاله

(١) يقول المحدث النوري: «ولا أزال أذكر أنّه حينما كنت مجاوراً بكربلاء المقدسة أيام دراستي على علامة عصره الشيخ عبد الحسين الطهراني طاب ثراه الذي ليس له في التبحّر والفضل والإتقان عديل، جاءه سيد عربي قارئ عزاء من الحلة وكان أبوه من وجهاء الطائفة وقد ورث عنه كتباً قديمة فأراد أن يستعلم حال أحد الكراسات التي ورثها عن أبيه هل هو معتبر أم غير معتبر ولم يكن لذلك الكرّاس بداية ولا نهاية وقد كتب في حاشيته هذا من مؤلفات العالم الفلاني (هو العالم شهاب الدين العاملي راجع أسرار الشهادة.) من علماء جبل عامل من تلامذة المحقق صاحب المعالم. وبما أنّ اسمه موجود في تراجم الرجال فقد أمكن الاستعلام عن حاله فلم يوجد بين مؤلفاته اسم ذلك «المقتل» وعندما طالع رحمه الله في ذلك الكتاب أدرك أنّه لكثرة اشتماله على الأكاذيب الواضحة والأخبار الواهية لا يحتمل أن يكون مؤلفه عالماً فنهى ذلك السيد عن نشره والنقل عنه.

ولكن بعد عدة أيام اطّلع عليه، في بعض المناسبات، أحد الفضلاء المعروفين الساكنين العتبات العالية فأخذه من السيد. وبما أنّه كان مشغولاً بتأليف كتابه أسرار الشهادة فقد أدرج فيه روايات ذلك الكتاب وأضافها إلى الأخبار الواهية المجعولة التي لا حصر لها الموجودة في كتابه المزبور فاتحاً بذلك للمخالفين أبواب الطعن والسخرية والاستهزاء وقد وصلت به همّته إلى درجة أنّه جعل جيش الكوفة مليوناً وستماية ألف منهم مليون راجل والباقي فرسان مهيئاً بذلك لجماعة قراء العزاء ميداناً فسيحاً لا يبلغون منتهاه مهما أطلقوا لأنفسهم العنان. وقد أوغلوا في الافتراء على علمائنا العظام بكثرة ترداده قول: «قال الفاضل الدربندي». والفاضل المذكور من العلماء المبرزين والأفاضل المعروفين وليس لإخلاصه لخامس آل العبا عليهم آلاف التحية والسلام حدٌّ ولا نظير إلا أنّ هذا الكتاب ليس له أي واقع ولا اعتبار لدى علماء هذا الفن وجهابذة الحديث والسير بل إنّ الأخذ عنه والاعتماد عليه يدل على ضعف الناقل وقلّة بصيرته في الأمور بل إنّ نفس المؤلف يعترف في كتابه بضعف رواياته ويبرز بعض العلامات الدالة على كذبها ووضعها إلا أنّه راح يبرر سبب نقله لها فكان شريكاً فيما سببته تلك الروايات من الفساد».

ويضيف النوري: «ومن المطالب العجيبة التي نقلها لي مشافهة أنّه سمع فيما مضى أنّ العالم الفلاني قال أو روى أنّ يوم عاشوراء كان سبعين ساعة. وأنّه كان يستغرب ذلك حينها ويتعجب من ذلك النقل لكنه حينما فكر وتأمل في وقائع اليوم العاشر تأكّد وتيقّن أنّ ذلك النقل صحيح وأنّ تلك الوقائع لم يكن لها لتحصل لولا تلك المدة من الزمن. هذا حاصل كلامه وإن كنت لا أذكر نص عبارته بسبب طول المدة وقد قوّى هذه الفكرة

لا يزال في محل التداول ويطبع مراراً وربما اعتمد البعض عليه، «مع أنّ فيه الغث والسمين بما لا يخفى على نقّاد فنّ الحديث»، كما قال العلامة الخبير السيد الخونساري الصفائي[(١)].

٢ـ كتاب «المنتخب» للطريحي من العلماء المتأخرين[(٢)]، وكتابه هذا لا يمكن التعويل عليه، فهو لا يذكر لنا مصادره، وإنما يرسل الأحاديث إرسالاً، وقد أشار المحدث النوري إلى أن هذا الكتاب مشتمل على ما هو موهون وما ليس كذلك[(٣)]، وهكذا فقد غمز المحدّث الشيخ عباس القمي من هذا الكتاب ومن كتاب «نور العين» الآتي، حيث قال تعليقاً على خبر ضرب السيدة زينب عليها السلام لرأسها في مقدم المحمل: «لا يوجد ذكر المحمل إلا في خبر مسلم الجصاص، وهذا الخبر وإن نقله العلامة المجلسي، لكن مستنده هو كتاب منتخب الطريحي وكتاب نور العين، ولا يخفى على أهل الخبرة والفنّ في علم الحديث، حال الكتابين المذكورين، ونستبعد القول بأنّ زينب نطحت جبينها بمقدم المحمل حتى سال الدم وإنشادها تلك الأبيات؛ فإنها أجلّ من ذلك وهي عقيلة الهاشميين، عالمة غير معلّمة، رضيعة ثدي النبوة، وذات مقام شامخ في الرضا والتسليم»[(٤)].

وكتاب المنتخب هذا هو ـ بحسب الظاهر ـ أول من روى قصة حديث الكساء

في كتابه. ويمكنك أن تعرف من خلال هذه الفقرة كيفية تفكيره». انظر: اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر، العلامة حسين النوري الطبرسي المتوفي سنة ١٣٣٠هـ تعريب الشيخ إبراهيم البدوي دار البلاغة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م/ ١٤٢٣هـ. ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(١) انظر: كشف الأستار عن وجه الكتب والأسفار ج ٣ ص ٤٥٨، مؤسسة آل البيت، ط ١، قم إيران، ١٤١١هـ.

(٢) اسمه «المنتخب في جمع المراثي والخطب» للشيخ فخر الدين بن محمد علي بن أحمد بن طريح النجفي، المتوفى سنة خمس وثمانين وألف، ويسمى «مجالس الطريحي» و «المجالس الفخرية» و«المنتخب الكبير»، انظر: الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ٢٢ ص ٤٢٠. ويسمى أيضاً بالبياض الفخري، انظر كشف الحجب والأستار للسيد إعجاز حسين ص ٥٥٨.

(٣) اللؤلؤ والمرجان ص ٢٢٨.

(٤) انظر: منتهى الآمال ج ١ ص ٧٢٩.

بالطريقة غير المشهورة والمتداولة أخيراً في بعض المجالس.

والواقع أنّ المتأمل في الكتاب سيجده مليئاً بالقصص الخيالية المرسلة إرسالاً دون سند أو إشارة إلى مصدر، والغريب أنّ الكثير من قصصه هي من منفرداته، والغالب عليها الطابع الإعجازي وبعضها معاجز ذات بعدٍ وتأثيرٍ كبيرين، مما يفترض ويحتم ـ بحسب طبيعة الأمور ـ أن يكون نقلها عاماً ومشهوراً، لا أن ينفرد بنقلها بعض المتأخرين!

ومن الأمثلة على ذلك: خبر الطير الذي تمرّغ بدم الحسين عليه السلام ثم طار إلى المدينة المنورة وهو ينوح ويبكي، وقد سقطت منه العديد من قطرات الدم على امرأة يهودية مصابة بالجذام والعمى فشفيت من ذلك، وعلى أثر ذلك أسلم أبوها وخمسمائة من قومها، والسؤال هل يبقى الدم طرياً كل هذه المدة؟! ثمّ أين كان هؤلاء الخمسمائة من اليهود إلى زمن الإمام الحسين عليه السلام ؟! والحال أنّ اليهود قد تم إجلاؤهم عن المدينة في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ! وتمّ إجلاؤهم من الجزيرة العربية بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم !

٣ـ كتاب «نور العين في مشهد الحسين»، المنسوب إلى أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفراييني الشافعي (٤١٩هـ)، هذا الكتاب ـ أيضاً ـ لا يمكن الاعتماد عليه لعدم الوثوق به، واحتمال الوضع فيه وارد، لجهة أنّ أسلوبه لا يتلاءم مع أسلوب علماء القرن الرابع كما نبّه عليه المحقق المعاصر السيد عبد العزيز الطبطبائي رحمه الله والذي رجح أن «الكتاب منحول منسوب، فأسلوبه لا يلائم مصنفات القرن الرابع»(١).

(١) انظر: أهل البيت في المكتبة العربية ص ٦٥٥، وهكذا فإنّ إسماعيل باشا في هدية العارفين ج ١ ص ٨، يبدو منه التشكيك في نسبة الكتاب إلى الإسفراييني، حيث ذكره بعنوان «رسالة تنسب إليه». وهكذا فإنّ الشيخ فضل علي القزويني (١٢٩٠ ـ ١٣٦٧ هـ) بدوره قد رفض الاعتماد على هذا الكتاب، حيث قال: «ومن نظر في مقتله المطبوع (نور العين) يعرف أن فيه أكاذيب وأموراً على خلاف ما أجمع عليه الفريقان، ولا يهمّنا نقل مجعولاته، ومن أراد فلينظر إلى مقتله؛ فإنّا لا نعتمد على ما تفرّد به»، انظر: الإمام الحسين وأصحابه ج ١ ص ١٥٠.

إلى غير ذلك من الكتب غير المعتبرة والتي نبّه عليها بعض العلماء والباحثين، ومنهم الشيخ الريشهري، فقد أورد في كتابه «موسوعة الإمام الحسين عليه السلام» الصادر مؤخراً، عشرة مصادر تحت عنوان «المصادر غير الصالحة للاعتماد» في مجال معرفة أحداث النهضة الحسينية، منها ما ذكرناه ومنها مصادر أخرى، كـ «محرق القلوب» و«معالي السبطين»، و«ناسخ التواريخ» وغيرها من الكتب المتداولة[1].

ومن الغريب أنّ بعض الخطباء يسندون الكثير من القصص والأخبار والأحداث التي يتلونها على المنابر إلى «أرباب المقاتل» في عبارة توحي بكون القضية مسلمة أو مشهورة، دون أن يحدد لنا الخطيب من هم أرباب المقاتل هؤلاء؟ ولا تفاجأ إذا ما قلت لك: إنّك قد تبحث في «كتب المقاتل» عن القضية المزعومة فلا تجد لها عيناً ولا أثراً!

ثالثاً: المنامات والأحلام

ويلاحظ أيضاً أنّ بعض الخطباء يكثر من سرد المنامات على المنابر، ويستشهد بها ويثقّف الناس من خلالها. وربما يطرح بعض الأمور والأحداث المتصلة بالسيرة الحسينيّة ومجرياتها مما لا وجود لها في كتب التاريخ والسيرة مكتفياً بأنّها منام لبعض الصالحين، والسؤال: هل يمكن أن يشكّل المنام والرؤيا مصدراً للثّقافة الإسلاميّة؟

والجواب: إنّ المنام تارة يكون لنبي من الأنبياء وأخرى لغيره، فإذا كان مناماً لنبي فهو وحي، لأنّ أحد أشكال الإيحاء إلى النبي عليه السلام هي الرؤيا، فعندما يرى النبيّ إبراهيم عليه السلام ـ مثلاً ـ في المنام أنّه يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، فهذا

(١) موسوعة الإمام الحسين عليه السلام ج١ ص ٨٨ وما بعدها.

وحي من الله تعالى، ولذا نرى إبراهيم عليه السلام اندفع إلى تنفيذ الوحي المتلقى من خلال الرؤيا، وانقاد إسماعيل عليه السلام للأمر مسلماً لأمر الله تعالى، قال تعالى: **﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾** [الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٥]، وأما غير النبي من الأشخاص العاديين فلا يكون منامه حُجّةً شرعاً ولا يعول عليه، وبناءً عليه فإنّ المفاهيم والتصورات العقدية والأخلاقيّة والأحكام الشّرعيّة لا تؤخذ من المنامات ولا يستدل عليها بذلك، وإنّما لها مصادرها المعتبرة والمعروفة، فقد ورد في الحديث الصحيح عن الإمام الصّادق عليه السلام، وقد سئل عن بعض الأمور العباديّة الّتي رُئِيَتْ في المنام، قال: «**إنّ دين الله أعزّ من أن يُرى في المنام**»[1]. وينقل عن الشّيخ جعفر آل كاشف الغطاء أنّه قال: «إنّ الأحلام ليست شواهد الأحكام، باتّفاق علماء الإسلام»[2].

إننا لا نريد القول بأنّ نقل المنامات على المنابر أو في مجال التثقيف العام هو أمر محرّم شرعاً، أو مرفوض بالمطلق، فلربما يستأنس المتكلم بمنام لبعض الصالحين، وإنّما غرضنا التحذير من تحويل المنبر الحسيني إلى منصّةٍ لسرد المنامات أو تأويلها فضلاً عن الاعتماد عليها في إثبات بعض الأمور والأحداث.

على أنّ المنام بحاجةٍ إلى من يعبّره بطريقة سليمة ويبيّن خباياه، وهذا علم خاص لا يمتلكه إلا الأوحدي من الناس، وقد كان يوسف الصديق عليه السلام يمتلك مثل هذا العلم، ويقال إنّ تلك كانت معجزته، حيث خصّه الله ببصيرة نافذة لا تخطأ في تعبير الرّؤى وتفسير الأحلام، ولذا عندما رأى عزيز مصر سبع بقراتٍ سمان يأكلهنّ سبع عجاف، لم يستطع المعبرون تأويل هذا المنام باستثناء

(١) الكافي، ج٣، ص ٤٨٢.

(٢) الحق المبين في تصويب المجتهدين وتخطئة الإخباريين ص٨٣.

يوسف عليه السلام فقد فسّرها تفسيراً أثبتت الأيام صحته، الأمر الذي كان سبباً في خروجه من السجن، ووصوله إلى أعلى المراكز في الدولة المصرية آنذاك، كما أنه عليه السلام كان قبل ذلك قد عبّر رؤيا صاحبي السجن وتحقق ما قاله لهما.

والخبير في تعبير الرؤيا يميّز أنواع المنام ويعي أنّ بعض المنامات ليس لها تعبير، وإنّما هي مجرّد أضغاث أحلام، بينما بعضها الآخر قد تصلح لتكون بشائر أو نذراً، كما جاء في بعض الرّوايات، ففي الخبر الصحيح عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: «**الرُّؤْيَا عَلَى ثَلَاثَةِ وُجُوه: بِشَارَةٍ مِنَ اللَّه لِلْمُؤْمِنِ وتَحْذِيرٍ مِنَ الشَّيْطَانِ وأَضْغَاثِ أَحْلَامٍ**»(١).

لهذا لا يمكن للخطيب الذي يحترم نفسه وعلمه ومنبره أن يقف على منابر المسلمين ويطرح عليهم سيلاً من المنامات الّتي لا يُعرف من رآها ولا تحرز صدقيتها أو اعتبارها. وإذا ما أورد الخطيب مناماً في مناسبة معينة فيجدر به أن ينبّه المستمعين إلى أنه إنما يورده للاستئناس لا للاستدلال والاعتماد.

وموقع المنام في الثقافة الإسلامية قد تناولناه بشكل موسع ومفصّل في مجالات أخرى، ويمكن للمهتم مراجعة ذلك(٢).

رابعاً: اعتماد لسان الحال

ومن المصادر غير المعتبرة في التّثقيف العاشورائيّ، اعتماد ما يعرف بلسان الحال، الّتي يكثر استخدامها على لسان الخطباء، حيث ينقلون الكثير من الأحداث والقصص والمحاورات بعنوان لسان الحال، أو بصيغة: «كأنّي به يقول»، ونحن هنا لا نريد أن نتحدث عن رفض مطلق لاعتماد هذا الأسلوب،

---

(١) الكافي ج ٨ ص ٩٠.

(٢) انظر: «في فقه السلامة الصحية ـ التدخين نموذجاً» ص٢٦٨ وما بعدها، و«تحت المجهر» ص٤٥ وما بعدها، وفي «بناء المقامات الدينية» ص٤١.

ولكننا نعتقد أنّه أسلوب محفوف بالكثير من السلبيات والملاحظات، وقد تناولنا ذلك في مجال آخر[1]، ونكتفي هنا بالإشارة إلى ملاحظتين:

الملاحظة الأولى: أنّه عندما يكون المقصود حكاية حال المعصوم، فيرد سؤال في المقام، وهو أنّه مَنْ الّذي يعرف لسان حال المعصوم ليحكيَ حاله؟! فأنت عندما تريد أن تتكلّم بلسان حال إنسانٍ، فلا بدّ من أن تكون ملمّاً بحاله ومشاعره وتطلّعاته وعقله وطريقة تفكيره، وهذا ما يصعب التنبؤ به في الإنسان العادي، فما بالك بالمعصوم؟ إنّ الذي يريد أن ينقل لسان حال الحسين عليه السلام، فإنّ عليه أن يعرف الحسين عليه السلام معرفةً جيّدة، في فكره وعقله، وفي تطلّعاته ومشروعه، وفي مواصفاته السّامية. ومَنِ الّذي يجرؤ على القول: إنّه محيطٌ بحال الإمام الحسين عليه السلام، أو إنّه ملمّ بما كان يفكّر فيه ويجول في خاطره ظهيرة العاشر من محرّم، حتّى يتحدّث بلسان حاله ويحمله بعض الأقوال أو المواقف؟!

والواقع أنَّ الكثير مما ينقل إلينا بلسان حال الإمام عليه السلام إنّما يحكي ويعكس لسان حال المتكلّم أكثر من لسان حال المعصوم. وعلى سبيل المثال: عندما يتحدّث بعض الشّعراء، ممن نحترم ونقدّر، ويتكلّم بلسان حال الإمام الحسين أو سائر الأئمة من أهل البيت عليهم السلام قائلاً:

سادةٌ نحن والأنام عبيدُ
ولنا طارفُ العُلى والتّليدُ[2]

فإنّنا نتساءل: هل هذا لسان حال الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام فعلاً؟! وهل يتحدَّثون بهذا الأسلوب أو المنطق؟! أعني منطق السادة والعبيد؟! بالطبع لا، فهذه ليست حال الأئمة عليهم السلام فهم أبعد ما يكون عن ذلك كما يشهد بذلك

(١) انظر: عاشوراء قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء ص١٦٤ وما بعدها.
(٢) هذا البيت هو من قصيدة للسيد جعفر الحلي (ت ١٣١٥هـ).

حالهم ومقالهم ورسالتهم. فهم قد نبذوا هذه الطبقية ورفضوا منطق الاستعباد وقادوا حملة تحرير العبيد.

وقد حذّر الشيخ عباس القمي رَحِمَهُ اللَّهُ قراء العزاء من « تصحيح الأشعار الكاذبة والمراثي المبتدعة بأنها بلسان الحال»[١].

الملاحظة الثّانية: إنّ قضيَّة لسان الحال شكّلت ـ باعتقادي ـ مدخلاً لتسرّب الكثير من الأكاذيب إلى النّهضة الحسينيّة، حيث إنّ بعض الأمور التي ينقلها الخطباء ويكاد يجمع الباحثون على أنه لا مصدر لها، لربما تكون قيلت في بادئ الأمر بعنوان «لسان الحال»، ثم تخيل البعض أنّها من الأمور الواقعة فعلاً فصارت تطرح على المنابر وترسل إرسال المسلمات.

وعلى سبيل المثال: ثمة بيت شعريّ شهير يقول:

إن كـــانَ ديـــنُ مـحـمّـدٍ لـم يستقمْ
إلاّ بـقـتـلـي يـــا ســيـــوفُ خـذيـنـي

ويتخيّل الكثيرون أنّه للإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا خطأ شائع، وربّما وقع فيه بعض العلماء والخطباء[٢]، وإنما هو بيتٌ من قصيدةٍ قالها الشاعر العراقيّ الشّيخ محسن أبو الحبّ، (ت ١٣٠٥هـ)[٣]، بلسان حال الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن مع مرور الزمن وبسبب التساهل الذي يحكم قضية الخطاب العاشورائي أصبح هذا البيت يحكى بلسان المقال. ولعلّ الكثير من الأحداث الّتي لا أصل لها هي من هذا القبيل، كما في قصّة عرس القاسم، أو قضيّة وجود ليلى في كربلاء، والتي يتناقلها الخطباء، وهي تنصّ على أنّها دخلت الخيمة ونشرت شعرها،

(١) منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل ج ١ ص ٨٣٤، طبعة جامعة المدرسين.

(٢) انظر: الشيعة هم أهل السُنَّة للتيجاني ص١٠٢.

(٣) انظر كتابه: أدب الطف ج١٠ ص١٣١.

ودعت قائلةً: «يا رادّ يوسف على يعقوب ردّ عليّ ولدي علي». إنّ هذه القضيّة ـ كما يعلم الباحثون ـ لا وجود لها في أيّ مصدرٍ من المصادر، حتى أنّ العلامة المجلسي، رغم تتبّعه، يقول: لم أجد أيَّ نصٍّ عليها[1]، وهكذا فإنّ الشَّيخ عبّاس القمّي يقول: «لم أظفر بشيءٍ يدل على ذلك»، يقصد مجيء ليلى إلى كربلاء[2]، ويذهب المحقق التستري إلى أنّه لم يُذكر في السير المعتبرة حياة ليلى يوم الطف فضلاً عن شهودها وحضورها، وإنما ذكروا شهود الرباب أم الرضيع وسكينة[3]، بل إنّ المحدّث النّوري يقول إنّ هذه القضيّة الّتي تحكي قصّة ليلى يوم عاشوراء وما فعلته عند خروج علي الأكبر إلى الميدان هي كذبٌ في كذب[4]، والتفسير الأقرب لانتشار هذه القصة أنّها قد طرحت في بادئ الأمر بلسان الحال، وغدت تُتلى على المنابر بكرةً وعشيّة، وبمرور الوقت، حصلت الغفلة عن كونها محكية بلسان الحال، فتحوّلت إلى حقيقة!

خامساً: أخبار العجائب والغرائب

ومن المصادر التي يلزمنا التدقيق في اعتمادها في مجال التثقيف العام: أخبار العجائب والغرائب والكرامات. فإننا حتى لو كنّا نؤمن بمنطق المعجزة والكرامة، لأنّ القرآن الكريم حدّثنا عن معاجز الأنبياء عليهم السلام وكراماتهم، لكن الّذي يحصل في كثيرٍ من الحالات هو التوسّع والمبالغة في نقل الكرامات، والإسهاب في تثقيف النّاس بها، والإكثار من الاستشهاد بها بهدف إثبات حقانيّة العقيدة أو المذهب، فترانا نسمع العشرات من القصص التي تحدثنا عن أنّ فلاناً قد جاءه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام عليه السلام وأنقذه من الهلكة، أو أنّ بعض الناس قد

(١) جلاء العيون في سيرة المعصومين الأربعة عشر (فارسي) ص٤٠٦.
(٢) نفس المهموم ص ٣١٥.
(٣) قاموس الرجال ج٧ ص٤٢٢.
(٤) اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر ص١٢٨.

شفوا في المقام الفلانيّ، أو أن الضريح الفلاني نزف دماً مباركاً! إلى غير ذلك من الغرائب التي نسمعها كل يوم.

وما نروم قوله هنا هو أنّ اعتماد هذه الطّريقة ـ ولا سيما في زماننا ـ في مجال التّثقيف العام لا يخلو من محاذير، وهذا ما نبينه من خلال النقاط التالية:

١ـ الأمور مرهونة بأسبابها

النقطة الأولى: إنّ التّقدير الإلهيّ الذي يمثل قاعدة أو سنّة من سنن الله في الخلق قضى بأن يجري هذا الكون وفق منطق الأسباب والمسببات، وليس وفق منطق المعاجز والكرامات، إنّ المعاجز وكذا الكرامات كما يستفاد من القرآن الكريم تمثّل حالة استثنائية، حتّى بالنّسبة إلى الأنبياء عليهم السلام، بل ليس من شرط النبيّ عليه السلام أن يقوم بمعجزة، إذ يمكن إثبات نبوته عن طريق آخر كتصديق النبي السابق له[1]، ويلاحظ أنّ حياة الأنبياء عليهم السلام لم تقم على أساس المعاجز، وإنما كانوا يعيشون حياةً طبيعيّةً، وإذا ما طلب النّاس منهم معجزةً، فلم يكن الله تعالى ليستجيب لطلبهم على الدوام، ولا سيما في مواجهة الأسئلة والطلبات التعنتية، بل كان الجواب الذي يكثر تردده في القرآن، هو قوله: ﴿**قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ**﴾[الأنعام: ١٠٩]، أو قوله تعالى: ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً**﴾[الإسراء: ٩٣].

وخلاصة القول: إنّ القرآن الكريم يعلّمنا قاعدة هامة في هذا المجال وهي أنّ الحياة تسير وفق منطق السّنن، وليس الصدف، وأنّ الله تعالى لا يخرق القوانين لمجرد اقتراحات تصدر من هذا أو ذاك أو دونما أسباب موجبة.

ومن هنا تعرف أنّ ابتعاد المسلمين في مرحلة طويلة من تاريخهم عن الأخذ بالأسباب والمسببات بحجة أنّ ذلك ينافي مبدأ التوكل على الله أو قاعدة

(١) ربما كان النبي هارون عليه السلام كذلك فلم يثبت أنّ له معجزة خاصة.

التوحيد كما توّهمت بعض الفرق[1] هو واحد من أهم أسباب تخلفهم وتأخرهم على الصعيد العلمي والحضاري، فعندما ابتعدت الأمة عن الأخذ بمنطق السنن، وأصبحت تفتّش عن أدويةٍ لأمراضها من خلال «التَّداوي» بالقرآن أو الأحراز، وتطلب النّصر بالدّعاء بدل إعداد القوّة، عندها تخلّفت وتأخّرت وأصبحت على هامش الأمم.

إننا بذلك لا نريد أن نتنكر لأهمية الدعاء واللجوء إلى الله تعالى في حالات الشدّة والرخاء وطلب الحوائج منه مباشرة أو التوسل إليه تعالى ببركة نبي أو ولي من الأولياء، فهذا قد يشكِّل مدخلاً لاستجابة الحاجات ونيل الطلبات، وليس ثمّة ما يمنع من أن يظهر الله تعالى كرامة لنبي من الأنبياء عليهم السلام أو ولي من الأولياء، فإنّ ذلك في الواقع يمثّل مظهراً من مظاهر لطف الله بعباده وحضوره في حياتهم، بيد أن هذا ليس هو القاعدة المطردة ولا يمكن أن يكون بديلاً عن الأخذ بالأسباب التي يقوم عليها نظام الكون والتي أمرنا الله تعالى بالأخذ بها.

في ضوء ما تقدم نقول: إنّ ما يفعله بعض الخطباء من الإكثار من ذكر الغرائب والعجائب ليس عملاً سديداً، إذ ربما يوحي ذلك للمتلقي وكأنّ الحياة قائمة على الخوارق والمعاجز.

٢ـ التوثق من الكرامات

النقطة الثانية: إنّ من اللازم أن يتمّ التوثّق من هذه المعاجز أو الكرامات قبل أن تطرح على الرّأي العام، فبعضها ربما كانت مجرد تلفيقات، وبعضها قد يحصل فيها الاشتباه ويتخيّل الناس أنّها كرامة مع أنّها ليست كذلك.

فعندما يأتي شخصٌ ويقول لك: هناك شجرة في المكان الفلانيّ، يرشح منها الدّم في العاشر من محرّم كلّ عام، فلا تقبل ذلك ببساطة وسذاجة، بل توثّق من

(١) انظر حول ذلك ما ذكرناه في كتاب «ظواهر ليست من الدين» ص ١٧ وما بعدها.

الخبر. ولا بأس أن اسجل هنا قصّة حدثت أيام دراستنا في مدينة قم، وخلاصتها أنّ أحد المشايخ جاء ذات يوم إلى أحد أساتذتنا الأجلّاء، وقدَّم له كتاباً ألّفه حول معجزة للإمام الحسين عليه السلام ويتضمن الكتاب قصَّة شجرة يرشح منها الدّم في يوم عاشوراء، مفترضاً أنّ ذلك يمثّل معجزة للإمام الحسين عليه السلام، وطلب من أستاذنا أن يكتب له مقدّمةً لذلك الكتاب، فقال له الأستاذ: أنا مستعدّ لكتابة المقدمة، لكن بشرط أن تجلس أنت أو شخص يوثق به تحت هذه الشَّجرة لمدة ٣٦٥ يوماً، وتُكرر ذلك لسنوات، فإذا تبين نتيجة المراقبة أنّ هذه الشجرة يرشح منها الدَّم في كلّ سنة في يوم العاشر من محرم، ساعتئذٍ أكتب لك مقدّمةً لكتابك. لقد كان هذا الجواب لأستاذنا بمثابة ردٍّ حكيم ومتين، وهو كأنه يريد القول لهذا الشخص: إنّ خروج مادة حمراء من بعض الأشجار في يوم عاشوراء من بعض السنين ربما كانت مصادفة، فبعض أنواع الشجر يخرج منها سائل أحمر وقد يتحوّل إلى صمغ، فإذا حصل خروج هذه المادة في يوم عاشوراء فهذا لا يعني أنّ ذلك يمثّل معجزة أو كرامة للإمام الحسين عليه السلام، فإنّ طبيعة هذه الشجرة قد تكون مما يترشح منها هذه المادة الحمراء، وقد يصادف ذلك في يوم عاشوراء.

لذا لا بدَّ من التّوثّق من دعاوى الكرامات، قبل أن تلقى على عواهنها، أو تنقل على المنابر وتطرح على الجمهور، مع أنّه قد لا يكون لها أساس من الصحّة، ومكانة الحسين عليه السلام ومنزلته الرفيعة في النفوس لا تحتاج إلى التشبث بمثل هذه الأوهام التي قد ينسجها بعض الناس من محض خيالهم، وعلى الخطيب أن يتحلى بالحكمة ولا يكون ساذجاً، وعليه أن يعلم أنّ نقل هذه الأمور قد يكون مضراً ومثاراً للسخرية والاستهزاء.

إنّ الأمور العجائبية والمخالفة لظواهر القوانين، لا يكفي للوثوق بها وطرحها على الملأ الاستناد في نقلها إلى بعض المؤمنين، كما هو شائع، حيث يقال:

«حدثني من أثق بدينه»، بل لا بدّ من الوثوق ـ أيضاً ـ من عقل المحدِّث ورشده وبصيرته وضبطه للأمور، لأنّ منشأ الكثير من القضايا التي تروّج على أنها من العجائب والكرامات هو السذاجة وعدم التدقيق في القضية، وسوف أذكر مثالاً لذلك، هو قضية المعمر المغربي التي انتشرت في القرن الرابع الهجري، وهي تحكي قصّة رجلٍ يمني كان بصحبة أبيه وعمه قاصدين مكة المكرمة لحج بيت الله الحرام، وبينما هم يسيرون في الصحراء تاهوا لمدة ثلاثة أيام، وبعد ذلك عثروا على بئر ماء عليها رجلان فاستسقوا منهما فأعطاهما أحد الرجلين كوب ماء فشرب الابن منه، فكان هذا الماء هو ماء الحياة، فأخبره الرجلان باسميهما وأنهما الخضر وإلياس، وأنه سوف يعمّر إلى آخر الزمان حيث سيلتقى المهدي والمسيح، وأخبراه أيضاً أنه لن يدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل سيصل المدينة وقد مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنه سيلتقي أمير المؤمنين عليه السلام وتحكي الرواية كيفية لقائه أمير المؤمنين عليه السلام يوم صفين ثمّ بعد ذلك حضوره مع الحسين عليه السلام في كربلاء ثمّ هربه منها إلى المغرب حيث توطن فيها، وأنجب الأولاد وأنجب أولاده وأولاد أولاده..

وقصّة هذا الرجل قد رواها الشيخ الصدوق في كتاب «إكمال الدين وإتمام النعمة». وهي قصة خيالية غير قابلة للتصديق، كما نصّ على ذلك السيد الخوئي رحمه الله (١)، إذ لو كانت هذه الشخصية حقيقية ولها وجود فعلي لكان أشهر من نار على علم، فشخصٌ له كل هذا الحضور والدور وهذه المشاركة في العديد من الأحداث التاريخية أليس من الغريب أن لا نجد له ذكراً في المصادر التاريخية وغيرها، باعتباره أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أو أحد الذين حضروا كربلاء ومع ذلك نجى من القتل؟! إلى غير ذلك من الملاحظات التي أوردناها

(١) معجم رجال الحديث ج٣ ص٩٨.

على هذه القصة في دراسة خاصة[١].

إنّ كلامي هذا لا يشكّل دعوةً إلى التّشكيك أو رفض كلّ ما ينقل إلينا من الكرامات، وإنما أدعو إلى الحذر من اعتمادها وتسويقها ونشرها قبل التثبت منها، ولذا علينا عندما نستمع إلى عجيبة من العجائب أن نضعها في دائرة الإمكان، وفق القاعدة المعروفة المنقولة عن ابن سينا: «كلّ ما طرق سمعك فذره في بقعة الإمكان، حتّى يذودك عنه قاطع البرهان»[٢]. ومن ثمّ يصار إلى التثبت منها ودراسة مدى صدقيتها والتفكر في جدوى طرحها على الرأي العام.

٣ـ العجائب واللبس الكبير

النقطة الثالثة: إنّ منطق الأمور العجائبيّة، ليس هو الأسلوب السّليم لإحقاق الحقّ ودحض الباطل، ولا سيّما مع انتشار الحديث عن هذه الأمور لدى غالب أتباع المذاهب والأديان التوحيدية، ونحن بين الفينة والأخرى نسمع أو نشاهد بعض ذلك مما ينقل على شاشات التّلفزة، وهو يحكي لنا عن تمثالٍ رشح منه الزَّيت وشفي منه فلان أو فلان، إلى غير ذلك من القصص العجائبيّة الّتي تنقل ويتداولها النّاس، وربّما يتمّ في ضوئها تطويب[٣] بعض الكهنة، ولو أنّنا تجاوزنا أصحاب الأديان التوحيدية المعروفة، وذهبنا إلى الهندوس، سنرى أمثال هذه القضايا الّتي قد تكون أحياناً مبنيّةً على علم معيّن أكثر ممّا تكون كرامة إلهية، الأمر الذي يجعل من هذه القضية ليست ذات جدوى، لأنّ ذلك لم يعد فارقاً وفاصلاً بين الحق والباطل. وليس في زماننا نبي عليه السلام أو ولي ظاهر ومسدد من قبل الله تعالى، بحيث يمكّنه الله تعالى من أن يظهر حقانيته ويبطل زيف الآخرين

(١) الدراسة موجودة على الموقع الرسمي الإلكتروني للشيخ حسين الخشن. وعنوان المقال قصة المعمّر المغربي «أبو الدنيا» بين الحقيقة والخيال.

(٢) مضمون القاعدة موجود في كتاب الإشارات والتنبيهات ج ٤ ص١٦٠.

(٣) التطويب هو «تقديس» كاهن ميت، وإعلانه قديساً وطوباوياً من قبل البابا، وذلك بسبب عجيبة تحدث عند قبره أو نتيجة التوسل به.

وخوارقهم، ويظهر أضاليلهم وخِدعهم، كما أظهرت عصا موسى عليه السلام زيف السحرة وخِدعهم.

ولهذا، فإنّنا نعتقد أنّ حقّانيّة الدّين أو المذهب في يومنا هذا، ليست مدينة للإكثار من هذه القضايا العجائبية، وإنما هي في امتلاكه الحُجّة المقنعة، وابتنائه على رؤية روحية وتشريعية وأخلاقية واجتماعية مبدعة تجيب على أسئلة الإنسان وتروي غليله وعطشه، وإنّ قوّة المنطق في رسالة الحسين عليه السلام، هي الّتي تثبت حقّانيّة هذه النّهضة، وليس حصول عجيبة أو كرامة مع فلان أو فلان. على أنّه لا يمكن الاعتماد على أخبار الآحاد ولو كانت صحيحة في إثبات المعاجز الخارقة للطبيعة والتي تقتضي طبيعة الأمور شيوعها وتواتر نقلها، ما يجعل انفراد البعض بنقلها محل ريبة وموضع شك وتهمة.

ومع غض النظر عمّا تقدّم، فإنني أدعو نفسي، وأدعو غيري من الخطباء وأرباب المنبر، إلى احترام عقول النّاس، وأن نقدّم لهم العلم النافع والثقافة المثمرة التي تتصل بمسؤولياتهم وتثري عقولهم وتغني تجربتهم، أمّا طرح الأمور الغرائبية التي تثير انقساماً وبلبلةً في أوساط الجمهور، والتي لا يتفهمها الكثيرون فعلينا الحذر من طرحها، عملاً بوصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّا معاشر الأنبياء أُمِرْنا أن نكلِّم النّاس على قدر عقولهم**»[1].

حسين الحياة لا الحقد

ختاماً أقول: إنّ انتماءنا إلى الحسين عليه السلام يفرض علينا أن نرتقي في خطابنا إليه لنقدِّمه في رسالته الإنسانيَّة المتسامية، فهو ليس حسين المهانة والذلّة الّذي يردّد في آخر لحظات حياته: «يا قوم إنّي عطشان»!، بل إنّ الحسين الحقيقيّ هو

(١) الكافي، ج١، ص ٢٣.

حسين «**هيهات منّا الذلّة**».

إنّ الحسين الإنسانيّ والحقيقيّ ليس هو حسين الحقد، هو حسين الحبّ لله وللنّاس، كيف وهو الّذي قال للقوم: «**أمهلونا سواد هذه اللّيلة لنصلّيَ لربّنا، فإنّ الله يعلم أنّي أحبّ الصّلاة**»[1].

إنّ الحسين الحقيقيّ ليس حسين الموت، بل حسين الحياة، ورسالة الحسين هي رسالة الحياة. إنّ الحسين الإنسانيّ ليس هو حسين الدّمعة فحسب، بل حسين العاطفة والفكر والسّلوك.

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ج٨، ص ١٩١.

المحور الثاني
كيف ندير الاختلاف حول الشعائر؟[1]

في كل عام وفي ذكرى الأربعين، يتقاطر الملايين من المؤمنين إلى زيارة أبي عبد الله عليه السلام يشدُّهم العشق والحنين ويقودهم شوق كبير إلى ذاك الإمام العظيم الذي فدى الدين بنفسه وأبنائه وضحّى بأعزّ ما يملك، وأقدم على الموت بجرأة منقطعة النظير فصرع الموت بدل أن يصرعه الموت، ويعمد الكثيرون من الزوار إلى الذهاب مشياً على الأقدام إلى زيارته عليه السلام. وقد أثير في الآونة الأخيرة جدل واسع حول شرعيّة زيارة الأربعين، وحول شرعيّة المشي إلى الزيارة، الأمر الذي يدفعنا إلى تسليط الأضواء على هذا الأمر، محاولين تلمس ضوابط إدارة الاختلاف في هذه القضايا، وهذا ما نبينه من خلال النقاط التالية:

١ـ مشروعيّة الاختلاف

إنّ الشعائر الحسينيّة كغيرها من الشعائر الدينية أو الأحكام الفقهية قد تقع في بعض جوانبها محلاً للاختلاف وتعدد وجهات النظر، وهذا الأمر ليس سلبياً، فليس علينا أن نَضِيقَ بالاختلاف، كيف والحال أنّ الاختلاف في وجهات النظر يثري الفكر ويغنيه، كما يشير الحديث المروي عن علي عليه السلام: «**أمخضوا الرأي مخض السقاء ينتج سديد الآراء**»[2]، كما أنّ الاختلاف يفتح أمام العقل آفاقاً للمعرفة وأبواباً للتفقه، ولهذا فهو ـ من حيث المبدأ ـ نعمة وحالة صحية فلا

(١) محاضرة ألقيت في المعهد الشرعي الإسلامي في بيروت في ذكرى أربعين الإمام الحسين عليه السلام.
(٢) عيون الحكم والمواعظ ص ٩١.

يجوز أن نحوّله إلى نقمة وسبباً للتنازع.

على أنّ الاختلاف في الرأي من جهة أخرى حقٌّ من حقوق الإنسان، وقد كفله الله له عندما أعطاه عقلاً وأمره بأن لا يجمّده بل يحركه، تفكراً وتدبراً وتأملاً، ولا يمكن لأحد أن يسلب الإنسان هذا الحق الذي منحه الله تعالى إياه، وهذا يعني أنه لا بدّ أن يتاح المجال لكل أحدٍ أن يعبّر عن رأيه ويطرح أفكاره بحريّة كاملة، بعيداً عن الإرهاب الفكري ولغة التضليل والتبديع والتكفير.

ثمّ إنّ المساحة التي يتاح فيها الاختلاف وإبداء الرأي واسعة جداً ولا تنحصر بنطاق خاص، فهي تمتد إلى الفضاء الديني فضلاً عن غيره، فهذا الفضاء ليس مقفلاً على التفكير والمراجعة والتأمل وإعادة النظر فيما طرحه السابقون، وهذا أمر طبيعي، لأنّ القضايا الدينية ـ عقدية كانت أو تشريعية أو تاريخية ـ هي في غالبيتها العظمى ليست من الضروريات المقفلة على النقاش، وإنما هي من النظريات[1]، التي قد تتعدد فيها الأنظار وتختلف الآراء.

ولكن السؤال: كيف ندير الاختلاف في هذه القضايا ولا سيما في الأمور الشعائرية بما يجنب واقعنا الانقسام والتشظي؟

٢ـ العاطفة ودورها الإيجابي والسلبي

وعلى الرغم من أنّ معايير إدارة الاختلاف الفقهي هي معايير عامة ولا تنحصر بفقه الشعائر، بيد أنّ للشعائر الحسينية خصوصية تفرض نفسها على طريقة تناول الموضوع في الفضاء العام، ومردّ تلك الخصوصية إلى الحساسية العاطفيّة لموضوع الشعائر الحسينيّة لجهة الحماس الجماهيري في التفاعل معها والانخراط في الدفاع عنها. ولا سيما في هذه المرحلة الخطيرة التي يعمل فيها

(١) أنهى بعض الفقهاء المعاصرين نسبة النظريات إلى الضروريات إلى ما يصل إلى ٩٤ ٪ في كافة المنظومة الدينية العقدية والتشريعية، انظر: النظرة الخاطفة في الاجتهاد ص١١.

التكفيريون على استهداف الشعائر والقائمين بها.

وفي الواقع فإنّ للحساسية العاطفية المشار إليها وجهين:

الوجه الأول: هو الوجه الإيجابي في المسألة، حيث نرى حماساً منقطع النظير يتمثّل في هذا التفاعل الحي مع كل ما يتّصل بالإمام الحسين عليه السلام وزيارته وشعائره، وهذا الأمر لا بدّ أن نقدره تقديراً عالياً، لأنه من نعم الله علينا، وربما كان تجلياً من تجليات تلك المأساة التي حفرت عميقاً في الوجدان الإسلامي الشيعي، وجعلت الحسين عليه السلام يتربع على عرش القلوب بلا منازع، وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لن تبرد أبداً**»[1].

الوجه الثاني: وهو الوجه السلبي في المسألة، وذلك لأنّ العاطفة قد تتجاوز حدودها كتعبير إنساني مقبول، فتسيطر على صاحبها وتخرجه عن حالة التوازن الفكري والسلوكي فيندفع إلى ظلم الآخرين، وقد تتحوّل أو يحوّلها البعض إلى سيف مسلط على رقاب الآخرين، فيرميهم ببعض الاتهامات محاولاً إرهابهم ومنعهم من إبداء الرأي المخالف، وهذا أمر غير مقبول وليس له ما يبرره، ولا سيما في الفضاء العلمي والحوزوي.

ومن باب المثال على ما نقول: أذكر لكم مثالاً حدثنا به أحدُ أساتذة العقيدة في الحوزة، يقول: إنّه عندما وصل في بحثه العقدي إلى قضيّة الإمامة وتناول مسألة «علم الإمام عليه السلام» طرح رأياً رافضاً أو مشككاً في علم الإمام عليه السلام بالموضوعات، فثارت ثائرة بعض الطلاب ممن لا يحيطون بأبعاد القضايا العلميّة! انتصاراً منهم لمقام الإمام عليه السلام! يقول هذا المدرس: ومهما حاولت إقناعهم بأنّ هذه المسألة تعالج بطريقة علميّة وليس بطريقة انفعالية، وأنكم ـ أي طلابه ـ تنطلقون في دفاعكم من منطلقات عاطفية، فإنّهم لم يتقبلوا الأمر، فما

(١) مستدرك الوسائل، ج١، ص ٣١٨.

كان منّي ـ كما يقول هذا المدرس ـ إلا أن ذكّرتهم بمطلب قد مرّ بحثه في دروس سابقة، قائلاً: ألا تذكرونا أنّه أثناء بحثنا حول «علم الله» تعالى قد طرحنا هناك رأياً لبعض كبار الفلاسفة ينفي فيه علم الله بالجزئيات، فلماذا لم تثر ثائرتكم حينها؟! أليس المفروض أن تكون غيرة المسلم على ما «يمس» خالقه هي الأشد حضوراً لا توازيها غيرة على أمر آخر؟! أيستفزكم رأي مخالف في «علم الإمام» ولا يستفزكم رأي مخالف في «علم الله»! إنّها الانفعالات العاطفية هي التي تتحكم بمنطقكم وليس الغيرة على العقيدة والدين. ولا ينبغي بطلبة العلوم الدينية أن تسوقهم العاطفة أو تتحكم بعقولهم، لأنّ تحكم العاطفة قد يعمي عن رؤية الحقيقة والوصول إليها.

وهذه الالتفاتة صحيحة، وهي قد تعبّر عن مشكلة عقدية في واقع الأمر، لأن الله تعالى هو قدس الأقداس بالنسبة إلينا وكل قدسيّة أخرى هي مستمدّة من قدسيته، فهو المقدس بالذات وغيره مقدس بالعرض وبمقدار قربه من الله تعالى، ولذا فإنّ مقتضى التوحيد الكامل لله تعالى أن يكون حبنا له مقدماً على كل شيء، وأن تكون غيرتنا على ما يمس قداسته عزّ وجل مقدمة على غيرتنا على ذواتنا وأعراضنا وعلى كل من عداه.

وقصارى القول: إن الاختلاف على الصعيد العلمي مطلوب ومحمود، فهو يعطي حيوية وحراكاً يتمخض عنه تقديم الرأي الأفضل، ولا يصح أن تشكّل العواطف حاجزاً عن البحث والاجتهاد.

أجل، على مستوى الخطاب الجماهيري العام، لا بدّ أن يراعي الإنسان الذي لديه قناعة مغايرة لما هو شائع وسائد ـ ولا سيما فيما يتّصل بأمر شعائري معين ـ الحكمة في الطرح وفي نقد هذه الشعيرة أو تلك، على قاعدة: «**إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم**»[١].

(١) الكافي، ج١، ص ٢٣.

٣ـ معايير إدارة الاختلاف

والاختلاف ـ كما ألمحنا ـ في قضية الشعائر أمر موجود وطبيعي، ولكن علينا أن نعرف كيف نديره؟ وأستطيع في هذا المجال أن أذكّر بمعيارين ينبغي اعتمادهما في إدارة هذا الاختلاف ونظائره:

المعيار الأول: وهو يتّصل بإدارة الاختلاف في النطاق العلمي، وهذا المعيار معلوم وليس جديداً، وخلاصته أنّ الفيصل في إدارة الاختلافات العلمية هو البرهان والحجة وليس الأهواء والعواطف أو المزاج الخاص أو الاستحسانات، وفقاً لقول الحق تعالى: ﴿**قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[البقرة: ١١١]. إنّ الاختلاف قائم وموجود وقد يستمر إلى ما شاء الله في أمر الشعائر، إنْ على مستوى الدائرة الإسلامية الكبرى أعني ما بين الشيعة والسنة، والحَكَمُ في إدارة هذا النوع من الاختلاف وفصل الخطاب فيه هو البرهان والدليل، أو على مستوى الدائرة الإسلامية الأصغر، أعني فيما يتّصل بالدائرة الشيعية، فالاختلاف هنا أيضاً قائم وموجود ليس في مبدأ الشعائر، وإنما في بعض جوانبها التفصيلية، وهنا أيضاً لا يمكننا إلا أن نعتمد الدليل والحجة في إدارة هذا الاختلاف، فمن حقك أن تخالف في شعائرية عمل معين، لأنه لم ينهض ـ بنظرك ـ دليل على شعائريته، ولا يملك أحدٌ حق تخوينك أو إسقاط حرمتك أو النيل منك بطريقة أو بأخرى، فهذا الأسلوب ليس إسلامياً ولم يعد مجدياً، كما أثبتت التجربة.

وفي المقابل، فإنّه لا يحقُّ لك إذا كنت لا تؤمن بشعائرية عمل أو بمشروعيته أن تُبدِّع الآخرين أو تسخّف آراءهم أو أن تستهزأ بهم، أو تسخر من أعمالهم، فهذا الأسلوب ليس إسلامياً ولا يجدي نفعاً على الإطلاق.

نقول لضيّقي الأفق: إنّ الفضاء الشيعي يسع الجميع تحت خيمته، والاختلاف في هذه القضايا وإبداء رأي آخر فيها مباح ومسموح، لأنه ليس خلافاً في الأسس

والضرورات، بل في بعض التفاصيل العقدية أو الشرعية أو التاريخية التي تخضع للدليل الاجتهادي.

ولكننا نؤكّد على أنّ المطلوب في هذه المقام أمر أساسي وهو التعامل في تناول هذه القضايا بطريقة علمية تقوائية، بعيداً عن هتك الأعراض وتجاوز آداب النقد وأخلاقيات التخاطب والتراشق بالاتهامات المتبادلة التي توتر الساحة الداخلية. لقد بتنا نشهد عودةً للصراع الشيعي القديم الذي كان قائماً بين المدرستين القميّة والبغدادية، حيث كانت الأولى تتهم أتباع الثانية بالغلو، وفي المقابل كانت الثانية تتهم أتباع المدرسة القمية بالتقصير في حق الأئمة عليهم السلام، لكن مع فارق بين النزاع في أيامنا وذاك النزاع، وهو أن الصراع في الزمن السابق كان ـ في الأغلب ـ يبقى محصوراً في الإطار العلمي، وأما في زماننا فقد امتد إلى الساحات الشعبية التي أصبحت تتجادل في هذه الأمور عبر الفضاء الإلكتروني الطلق وبأساليب غير علمية، فتنقسم الساحة بطريقة يصعب ضبطها، الأمر الذي قد يؤدي إلى نتائج غير محمودة.

المعيار الثاني: وهو يتّصل بإدارة الاختلافات حول الشعائر في الفضاء الشيعي الشعبي العام، وهنا تكمن الحساسيّة، حيث قد يثير الرأي المخالف لما هو سائد حساسية معينة، والمعيار الذي أعتقد أنّ اعتماده يخفف الوطأة في المقام ليس هو الكف عن إبداء الرأي المخالف بل هو عبارة عن النقاط التالية:

١ـ القبول بواقع تعدد الآراء وأن يعذر بعضنا البعض الآخر في حالات الاختلاف. مع تكريس مبدأ رجوع كل مكلف إلى مرجع تقليده، ومع الحرص على تربية الناس على قبول التعدد واختلاف وجهات النظر. فكل مكلّف يأخذ برأي مرجعه الذي قامت عنده الحجة على تقليده فليس من حقي الاعتراض عليه. إنّ علينا أن نتعلم أن يكون لدينا رحابة قبول

الاختلاف ورجوع كل مكلف إلى مرجعه. وعلى أهل العلم أن يعملوا هم قبل غيرهم بهذه البديهة الفقهية ويطبقوها على أنفسهم، قبل أن يدعوا الآخرين إلى تطبيقها، ومن مسؤوليتهم أن يبتعدوا عن إثارة معارك غير مبرّرة في هذا الإطار، وعليهم أيضاً أن يشجعوا الناس ويرشدوهم إلى ضرورة التعامل في قضايا الاختلاف بهذه الرحابة والأريحية. فقد لا يثبت عندك ـ اجتهاداً أو تقليداً ـ أن غداً هو عيد الفطر مثلاً، بينما يثبت ذلك لدى المرجع الآخر فيرتب مقلدوه آثار العيد على ذلك اليوم، فعليك في هذه الصورة أن تحترم تقليدهم، كما تتوقع منهم أن يحترموا رأيك وتقليدك، ولا يحقُّ لك التجريح بمرجعهم، الذي هو من أهل الاختصاص والعلم والاجتهاد، كما لا يحق لهم التجريح بمرجعك أيضاً، إنّ من الضروري أن نتعامل بروحيّة إيجابية ورحابة عالية في هذا المجال.

٢ـ فيما يتّصل ببيان الحكم الشرعي للشعيرة المفترضة، فإنّ إبداء الرأي المخالف ـ كما قلنا ـ ونقد الفكرة السائدة مشروع، لكنّ المعالجة النقدية يفترض أن تكون بلغة علمية، وأن يتمَّ التوجه بذلك إلى العلماء والمحافل والمنتديات العلمية، وإذا أراد الباحث أن يتوجه إلى الجمهور العام فله الحق في ذلك، ولكن شريطة أن يتجنب استخدام اللغة الخطابية العاطفية التي لا تمت إلى العلم بصلة، وحري به أن يلتفت إلى أنّ عامة الناس لا يقلدونه فلا ضرورة للتوجه إليهم بطريقة خطابية تحاول تشكيكهم فيما هم يفعلونه مما قامت الحجة عليهم من خلال تقليدهم؟!

٣ـ فيما يتّصل بتشخيص الموضوعات، كما في موضوع الهتك الذي يطرح في مواجهة بعض الأعمال التي يؤتى بها في عاشوراء من قبيل التطبير مثلاً، فإنّ من حقّ الباحث بل وكل مكلف أن يبدي رأيه في المسألة،

لأنّ تشخيص الموضوعات هو في يد عامة المكلفين لا بيد المجتهدين والفقهاء. وكذلك الحال في اقتراح الأساليب الملائمة لإحياء الذكرى، والتي تكون داخلة في بعض العناوين الشرعية العامة كعنوان «إحياء الأمر»، فهذا أيضاً يكون لعموم الناس على اختلاف تخصصاتهم وأعمالهم دور أساسي فيه، ولكنْ عندما تبدي رأيك في موضوع من الموضوعات فعليك أن تأخذ بالأساليب القرآنية الداعية إلى اعتماد الحكمة واللين، ومراعاة الزمان والمكان الملائمين لتسجيل موقفك.

٤ـ مراعاة ضوابط النقد

ربما يقال: إنه وفي ضوء ما قدمتم، فأنتم تدعون إلى إقفال باب النقد حتى فيما يتّصل بالظواهر الشاذة والمسيئة للدين أو المذهب، لأن البعض ممن يمارسها لا يعدم أن يجد لها مستنداً يثبت شرعيتها بنظره.

والجواب على ذلك هو أننا لا نلتزم بهذا اللازم، ولسنا نقبل بسد باب النقاش والبحث العلمي في شتى الأمور، ونحن من دعاة فتح باب النقد، ونقول لكل من يملك ثقافة النقد والقدرة التخصصية عليه: انقدْ وناقشْ، ولكن انقدْ بعلم، وكنْ حكيماً في نقدك، فبعض القضايا قد يكون من الحكمة في بعض الأحيان أن لا تناقشها في الفضاء العام والهواء الطلق بسبب حساسيتها الخاصة، وبعض القضايا الأخرى يمكن مناقشتها لكن بأسلوب علمي رزين بعيدٍ عن اللغة التخوينية التي تستخف بالآخر وتستهين به. إنّ الحكمة في إدارة الأمور مطلوبة، لأنّ تجييش الجماهير ولا سيما في القضايا الجزئيّة والتفصيلية قد يؤدي إلى نتائج غير محمودة، ويوقعنا في صراعات نحن بغنى عنها.

إنني وإن كنت على المستوى الشخصي أنتمي إلى المدرسة الإصلاحية التي تدعو إلى تهذيب الشعائر الحسينية من كل ما يشين، وأرفض العبث باسم الحسين

عليه السلام، ولا أقبل أن يُدخِلَ البعض علينا كل عام بدعة جديدة تحت عنوان الشعائر، وذلك من قبيل «المشي على الزجاج» أو «تلطيخ الثياب والأجساد بالطين» أو ما إلى ذلك، ولكنني في الوقت عينه أحرص على أن يكون نقدي لهذه الظواهر أو غيرها نقداً هادفاً لا عابثاً، نقداً رسالياً وليس شخصياً، نقداً يركّز على تفنيد الفكرة وليس مهاجمة أصحابها أو الأشخاص البسطاء الذين اقتنعوا أو أُقنعوا بها فاندفعوا إلى ممارستها.

والتفكيك في النقد بين الشخص والفكرة نستلهمه من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما نقله الإمام علي عليه السلام عنه قال على ما جاء في الرواية: «**إنّ الله يحب العبد ويبغض عمله**»(1). إنا نستوحي من هذا الكلام النبوي قاعدة عامة في مجال النقد بأن نركز على نقد الأفكار لا الأشخاص.

على أنّ النقد ـ في الإسلام ـ تنطلق شرعيته من انطباق عنوان النصيحة أو الإصلاح عليه، فينبغي لنا أن ننقد الآخر، لكن إنما ننقد لنصلح لا لنهدم، وننقد لننصح الآخر ونسدد خطاه ونرشده، لا لنسجل نقطة عليه، علينا أن ننقده نقد الحريص عليه المهتم بأمره الذي يسعى إلى احتوائه، وليس نقد من يريد معاداته، وهذا يحتّم عليك أن تعيش همّ انقاذ المنقود مما ترى أنه أخطاء يرتكبها وتبتعد قدر المستطاع عن معاداته وإثارة حفيظته.

٥ـ زيارة الأربعين والمشي

وفي ضوء ما تقدّم من معايير لإدارة الخلاف حول الشعائر، سوف أذكر نموذجين لشعيرتين أو سلوكين أثير الجدل حولهما في الآونة الأخيرة عنيت بهما زيارة الأربعين بعنوانها، والمشي إلى الزيارة:

---

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٤٤.

النموذج الأول: زيارة الأربعين

لا يخفى أنّ استحباب زيارة الأربعين بعنوانها الخاص، قد يكون مورد نقاش فقهي، وهو نقاش مشروع، وليس لنا أن نحجر على أحدٍ أن يتبنى رأياً مخالفاً قام عليه الدليل عنده. بل من حقه علينا احترام رأيه وعدم قمعه، وفي المقابل فمن حق القائل بالاستحباب ـ تقليداً أو اجتهاداً ـ على النافي أن يحترم رأيه حتى لو كان مبناه في الاستحباب هو «قاعدة التسامح في أدلة السنن»، مع أنّ هذه القاعدة ليست تامة وهي محل نقاش كبير كما هو معلوم. وفي ضوء ذلك وبالاستناد إلى ما قدمناه سابقاً، فليس لي أن أدعو الآخر الذي يؤمن باستحباب زيارة الأربعين إلى تركها فضلاً عن أن أسخر منه لقيامه بها، أو أنفي ثواب زيارته، والحال أنّ الثواب بيد الله تعالى. على أننا حتى لو استشكلنا في استحباب زيارة الأربعين بعنوانها الخاص، فليس ثمة مجال للتشكيك باستحباب الزيارة بالعنوان العام، وعليه فيمكن أن يؤتى بالزيارة امتثالاً لهذا الاستحباب العام، وعليه فلا داعي لإثارة الغبار وتشكيك الناس بالزيارة، مع أنّهم لا يقلدونك وإنّما يقلدون من يرى استحباب هذا العمل.

النموذج الثاني: المشي إلى الزيارة

وأما النموذج الثاني فهو المشي إلى الزيارة، ونستطيع القول هنا: إنّ الأدلة الروائية على استحباب المشي في الجملة موجودة، وقد يناقش البعض في سند الروايات أو في دلالتها، وهذا حقه، وقد يصححها البعض الآخر وهذا حقه أيضاً، وعليه فلا بدّ أن تدار المسألة برحابة علمية بعيداً عن الاتهامات المتبادلة، فمن لم يثبت عنده استحباب المشي فليذهب ركوباً أو يبقى في بيته، ولكن لا يحقّ له خدش مشاعر الآخرين الذين يمشون أو يرميهم بالتخلف أو ما إلى ذلك، كيف والمشي ليس غريباً على الثقافة الإسلامية، فقد كان الأئمة عليهم السلام يحجون إلى

بيت الله الحرام مشاة والمحامل تساق أمامهم، كما ورد في الأخبار الصحيحة[1].

وأخيراً لا بدّ لي أن أقول: إنّنا في الوقت الذي لا ننكر فيه الحاجة إلى تهذيب هذه الشعائر وترشيد الأداء فيها في بعض الجوانب، ولا ننكر أيضاً أنها قد تتعرض للاستغلال من قبل بعض الناس كما قد يستغل البعض تواجده في مكة المكرمة في موسم الحج للقيام ببعض الأعمال المنافية للأخلاق والحشمة، إنّ هذا لا ينكر. ولكنّ ذلك لا يبرر لنا أن ندعو إلى سدّ باب هذه الشعائر، فهذه دعوى تعبّر عن سذاجة علميّة وعن ضعف حظ قائلها في الفقه، إننا نرى في هذه الشعائر عنصر قوة ولا بدّ من الحفاظ عليها ودعمها. وأمّا استغلالها السيّىء من قبل البعض فلا يؤثر على مشروعيتها بقدر ما يحملنا مسؤولية العمل على تنقيتها من الشوائب، ويحتّم علينا نحن الذين نتقن فنّ النقد أن ننزل من بروجنا العاجية ونترك تخيلاتنا بأننا أوصياء على هذا الدين وننخرط مع هذه الملايين التي تتدفق بحماسة عالية ويشدها الشوق إلى سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام، ومن هذا الموقع وعلى أرض الواقع وفي طريق كربلاء نمارس عملية الإصلاح فيما يحتاج إلى الإصلاح.

(١) وسائل الشيعة ج١١ ص٧٨، باب ٣٢ من أبواب وجوب الحج وشرائطه، باب استحباب اختيار المشي في الحج على الركوب.

الفصل الخامس

حوارات من وحي عاشوراء

وردت إليّ عبر وسائل التواصل الاجتماعي والموقع الإلكتروني العديد من الأسئلة حول المفاهيم المتصلة بالنهضة الحسينية، أو بكيفية إحيائها وقد ارتأيت إدراج هذه الأسئلة مع أجوبتها في ختام هذا الكتاب، عسى أن ينتفع القارئ بها.

١ـ المجالس العاشورائية والصوت المرتفع

السؤال: نحن ننزعج جداً ونتأذى من صوت مكبرات الصوت الصادر من الحسينية أو المسجد أحياناً، أريد أن أسأل عن الموقف الشرعي من هذه الأصوات العالية؟

الجواب على ذلك:

أولاً: إنّ ظاهرة الأصوات المرتفعة والصادرة من مكبرات الصوت والتي تدخل على الناس بيوتهم بدون استئذان، وتقتحم عليهم غرف نومهم وراحتهم متسببة في إزعاج الكثيرين وإقلاق راحتهم، كونها تأتيهم في كل وقت ولا تراعي حالتهم ولا أوقات نومهم، هي ظاهرة مستنكرة ومرفوضة، وغير مقبولة لا شرعاً ولا عرفاً، ولا سيما أن في الناس الطفل والمريض والعجوز، ويمكن الاستدلال على حرمة هذا العمل بالاستناد إلى القواعد الفقهية الإسلامية التي تقتضي حرمة إيذاء الآخر وإزعاجه وفعل ما يوجب إقلاق راحته، ومنعه من النوم والراحة في بيته. فإنّ «**النوم راحة للجسد**»، كما ورد في بعض الروايات[1]؛ لذلك نجد بعض الفقهاء أفتوا بحرمة الأصوات المرتفعة المزعجة للناس والمؤذية لهم، حتى لو

(١) من لا يحضره الفقيه ج٤ ص٤٠٢.

كان ذلك في قراءة القرآن أو الدعاء أو التعزية أو تلاوة الأناشيد أو اللطميات أو ما إلى ذلك، فضلاً عما إذا كانت في الموسيقى أو الأغاني.. ومن هنا أفتى بعضهم بلزوم الاكتفاء في أذان الفجر ـ بواسطة المكبر ـ بالمقدار الضروري الذي تقوم به المصلحة الإسلامية العليا ويضمن إقامة الشعيرة الدينية وهي رفع الأذان؛ أما قراءة القرآن قبيل الأذان لفترة زمنية تمتدّ لربع ساعة أو يزيد، فهذا عمل مشكل في حال مثّل إيذاءً للناس ولا سيما إذا كان في المنطقة من غير المسلمين، والكلام عينه ينطبق على مجالس العزاء واللطميّات والأناشيد التي تتلى على المنابر، وقد نصّ بعض الفقهاء على أنّه لا يجوز إقامة مجالس العزاء بشكلٍ يؤذي أحداً بالميكروفونات وبالأصوات المرتفعة.

وأضف إلى ذلك أنّ في النصوص القرآنية والحديثية الكثير من التشجيع على غض الصوت، وكراهة رفعه في بعض المواطن أو الحالات، ولدينا بحث في هذا المجال كتبناه في كتابنا «الإسلام والبيئة» تحت عنوان: التلوث السمعي، فليراجع.

ثانياً: إنّ الظاهرة المذكورة، وبصرف النظر عن تسببها بإيذاء الناس دون موجب، فإنّها لا تخدم رسالة الدين ولا رسالة الحسين عليه السلام، لأنّ هذه الرسالة هي رسالة أمن واطمئنان وسلام للناس، وينبغي أن نبحث عن الطريق الأمثل لإيصالها إلى قلوب الناس، ومن هنا فإنّ من الخطأ الفادح أن يتمّ إيصال رسالة الدين بطريقة مزعجة لأهل الدين فضلاً عن غيرهم، وقراءة القرآن وتلاوة الأذان ومجالس العزاء يجب أن تكون مريحة للناس وأن تمثّل حاجة لهم وأن يتطلّعوا إلى ذلك ويتشوقوا إليه، فعندما تقدّم للناس بطريقة منفِّرة ومقلقة لراحتهم، فهذا سيوجب اشمئزازهم من هذا الدين، وأخطر ما في الأمر أنّه قد يحصل اقتران في ذهن بعض الأشخاص ـ ولا سيما الأطفال ـ بين صوت القرآن أو الأذان وبين

الانزعاج والانقباض والتوتر، فيغدو هذا الصوت رمزاً للإزعاج، ومستدعياً له، بحيث ما إن يستمع صوتاً من هذا القبيل حتى يشعر بالنفور والاشمئزاز بشكلٍ لا شعوري. وإنّ ما أشرنا إليه في هذه النقطة قد يتشكّل في ضوئه عنوان ثانوي موجب للحرمة بصرف النظر عن عنوان الإيذاء المتقدّم في النقطة الأولى.

ثالثاً: وفي ضوء ما تقدم، فإنّ ثمّة مسؤولية شرعية في مواجهة هذه الظاهرة، والسعي لوضع حدٍّ لها، والمسؤولية في هذا المقام تقع في الدرجة الأولى على عاتق علماء الدين، فإنّ من واجبهم أن ينصحوا ويندّدوا بهذه الأعمال ويقفوا في وجهها إنكاراً للمنكر، ويبينوا للناس أنّ هذا الأمر ليس من الدين في شيء، وتقع ـ من جهة ثانية ـ على المجتمع بعامة ليرفض الناس هذه الظاهرة ويقفوا في وجهها، ولا يسكتوا على تحمّل الإيذاء والإزعاج.

٢ـ فلسفة الحزن على الحسين عليه السلام

السؤال: لماذا نحزنُ على الحسين عليه السلام ونقيمُ العزاء ونبكي، وهذه الحادثة أتت من إرادة الله وليس بالصدفة، والحسين عليه السلام استُشهد لكي نبقى أقوياء، لا ضعفاء نبكي؟

وفي الإجابة على ذلك نقول:

أولاً: الحزن مسألة إنسانية، فالإنسان ليس صخرة أو جلموداً وإنما هو كتلة من العواطف، ولذا فهو قد لا يملك في الكثير من الأحيان أمر الدمعة، فهي لا تصدر بمرسوم ولا بقرار، وإنما تفرض نفسها عليه وربما غلبت إرادته وفضحته في المواقف التي لا يريد فيها إظهار الدمعة، كما قال الشريف الرضي في رثاء أمه:

كم عبرة موهتها بأناملي ... وسترتها متجملاً بردائي
أُبدي التجلد للعدو ولو درى ... بتململي لقد اشتفى أعدائي

ما كنت أذخر في فداك رغيبة ... لو كان يرجع ميت بفداء
فارقت فيك تماسكي وتجملي ... ونسيت فيك تعزّزي وإبائي
وصنعت ما ثلم الوقار صنيعة ... مما عراني من جوى البرحاء
كم زفرة ضعفت فصارت ... أنّة تمّمتها بتنفّس الصعداء[1]

ومن هنا، لم يكن من المنطقي أن يحرِّم التشريع مسألة البكاء والحزن، كما ليس منطقياً أن يحرِّم الفرح والضحك؛ لأنّ هذه الأمور مما تقتضيها الطبيعة البشريّة، ومن خصائص ومزايا التشريع الإسلامي أنّه لا يصادم الفطرة والجبلة.

ثانياً: هذا فيما يتّصل بالبكاء بشكل عام، فكيف إذا كان الفقيد شخصاً كسبط رسول الله ﷺ، الإمام الحسين عليه السلام وكانت المأساة جليلة كمصيبته عليه السلام، التي تتفطر لها القلوب، إنّ الإنسان عندما يستمع لما جرى عليه وعلى أحبائه وأصحابه وفلذات كبده في صحراء كربلاء من أعمال وحشية، فإنّ وجدانه يهتز، ويتفطر قلبه حزناً وألماً ولا يمتلك إلا أن يذرف الدمعة حزنًا على سبط الرسول، وكما قال الشاعر:

تبكيك عيني لا لأجل مثوبة ... لكنما عيني لأجلك باكيه

ومن هنا، تجد أن كل من لديه حس إنساني وقد عُرضت عليه تلك المصائب الجسام أو استمع إليها أو قرأها، فلا محالة سوف يغلبه البكاء وتسبقه الدمعة. قال الشاعر بولس سلامة:

أنا المسيحي أبكاني الحسين وقد
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

(١) ديوان الشريف الرضي

بكيت حتى وسـادي ضـجّ مـن حرق
وضـجّ فـي قلمي إعـوال منتحبِ

ثالثاً: وهذا البكاء أو الحزن على مصرع ابن بنت رسول الله بهذه الكيفية المفجعة والأليمة لا ينافي إيماننا بقضاء الله وقدره، واعتقادنا بأنّ هذا الأمر مكتوب في اللوح المحفوظ. ولا ينافي ذلك ـ أيضاً ـ أن تُشكّل شهادة الإمام الحسين عليه السلام، وذكراه سبباً لعزة الأمة وقوتها، فنحن نذرف الدمعة القوية على الإمام الحسين عليه السلام، لا الدمعة الضعيفة الخانعة. إنّ الدمعة التي نذرفها هي تعبير عن ولائنا وحبنا، وفي الوقت نفسه تملأ النفوس غضباً وحنقاً على الظالمين والمستكبرين. فالعاطفة المثقّفة والواعية والدمعة الهادفة هي التي تصنع العزة والقوة في واقعنا.

٣ـ أيهما أفضل: الزيارة عن قرب أم عن بعد؟

السؤال: ألا يمكن تأدية «زيارة المعصومين» عن بُعد، وما الفائدة من الذهاب إلى المقامات؟ وماذا عن المبالغة في الثواب الوارد في بعض الروايات؟

والجواب عن ذلك:

أولًا: إنّ أصل زيارة الإمام الحسين عليه السلام أو غيره من أعلام الدين وأئمة المسلمين أمر لا ريب في رجحانه وشرعيته وعظيم ثوابه عند الله، وكثرة منافعه وفوائده، فإنّ فيها تعظيماً وتكريماً لإمام من أئمة الدين، واستدعاءً لمواقفه وتضحياته، واحتفاءً بالقيم والأخلاق التي جسدها، وتأكيداً على اتباع نهجه والاقتداء بهديه، وفيها أيضاً من الاستزادة الروحية والسياحة المعنوية والثقافية والتاريخية الشيء الكثير، وقد أفاض الفقهاء وعلماء المسلمين(١) وكتبوا بشكل

(١) انظر: «كشف السقام في زيارة خير الأنام» للشيخ تقي الدين السبكي (٦٨٣هـ)، وكتاب «الرد على الوهابية في

مسهب حول مشروعية الزيارة، وأشرنا إلى ذلك وتناولناه في بعض المؤلفات[1]، وذلك في مقابل الاتجاه السلفي الذي يشكك في الشرعية، معتمداً على بعض الوجوه الضعيفة والتي لا يعوّل عليها.

ثانيًا: إنّ الزيارة مشروعة حتى لو كانت عن بعد؛ ولا دليل على منعها، وهي تحقّق الكثير من المعاني المتقدّمة، على اعتبار أنّ الأساس هو أن تطوف بروحك وعقلك مع روح المزور وعقله، بيد أنّ للقرب المادي جاذبيةً وأثراً بالغين، حيث يتفاعل الإنسان مع الحدث في مكانه وزمانه، ويشعر بأنّه في مسرح ذلك الحدث التاريخي الذي هزّ الضمائر الإنسانية، ويكون ذلك أدعى لاستحضار الصور التاريخيّة التي تتداعى إليه، فهنا وقف النبي ﷺ، وهناك قُتل الإمام عليه السلام، وهنالك صلى وكبّر، وفي هذا الموقع ناجى ربه، وفي ذاك كلّم أصحابه ... إلى غيرها من الصور التي تتداعى إلى ذهنه وهو في أرض الواقع، وتجعله ينطلق في حالة من السمو الروحي الذي يؤثر عليه، ويعطيه درساً بالغاً في متابعة خطى المعصوم وهديه.

ثالثاً: أما الروايات الواردة بشأن درجات الفضل والثواب المعدّين للزائر، حيث قد تعطيه ثواباً مبالغاً به على بعض الزيارات ربما يكون أعلى من ثواب الأنبياء والشهداء والصديقين، فهذه تحتاج إلى تدقيق ودراسة، ولا نستطيع أن نضمن صحتها، بل إنّ بعضها موضع تشكيك كبير، فنحن مع إيماننا بسعة رحمة الله تعالى وعظيم منّه ولطفه وكرمه، لا نسمح لأنفسنا أن نحدّ من كرمه أو نضيّق من سعة رحمته، وأنّى لنا أن نستنكر عليه تعالى ما هو حق من حقوقه ونتدخل فيما

القرن التاسع عشر: نصوص الغرب الإسلامي نموذجاً» تأليف: حمادي الرديسي وأسماء نويرة، دار الطليعة، بيروت، وهو كتاب قيم، وانظر من مؤلفات الشيعة كتاب: كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب للسيد محسن الأمين العاملي.

(١) في بناء المقامات الدينية ـ المشروعية، الأهداف، الضوابط: ص١٥.

لا نملك أمره، وهو الثواب! إنّ ثواب الزيارة من حيث المبدأ ليس مستغرباً ولا مستنكراً، فالله تعالى واسع المغفرة وهو يريد أن يرحم عباده بأدنى سبب فكيف إذا كان السبب وثيقاً كزيارة وليّ من أوليائه، إلا أننا مع ذلك نرسم علامة استفهام على بعض الروايات التي تبالغ في الثواب وتمنح الزائر من الثواب الجزيل الذي لا يبلغه الإنسان لا بالإيمان ولا بالعمل بأهم الأركان والأخذ بأصعب التكاليف وأحمز الأعمال، فإقرار هذا الثواب العظيم على العمل البسيط لا يتناسب مع عدله تعالى ومع قانون «أفضل الأعمال أحمزها»، مما هو ثابت ومنصوص عليه في الصحيح من النصوص. وهذا أمر قد تطرقنا إليه في محل آخر(١) فليراجع.

٤ـ التمسّح والتبرّك بالأضرحة

السؤال: ما مدى صحة ما يفعله البعض عند الذهاب للزيارة من مسح يده على باب العتبة، ثم يمسحها على وجهه (تبركاً).. أو أننا عندما نصل إلى ضريح الإمام نتمسح به؟ ما الهدف من ذلك وهل فعلاً يُعتبر تبركاً؟

في الإجابة على ذلك نقول:

أولاً: إن فكرة التبرك بآثار الأنبياء والأولياء عليهم السلام فكرة يؤمن بها الكثير من المذاهب الإسلامية وليست هي من خصوصيات الشيعة، وهذه الفكرة لها شواهدها من سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته الكرام، وليس ثمّة ما يدلّ على حرمة ذلك، بل إنّها في الواقع تلبّي ميلاً لدى الإنسان إلى الارتباط بالغيب من خلال بعض المحسوسات، والإسلام لم يسدَّ هذا الباب أو يقفله بشكل نهائي، فقد عدّ الطواف بالكعبة من أبرز العبادات لله تعالى، وحثّ على تقبيل الحجر الأسود وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُقبله، وكذا الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وسائر الصحابة

(١) هل الجنة للمسلمين وحدهم؟، ص ٤٦.

والتابعين، ولعلّ هذا الأمر هو الذي أسس لامتداد هذه الظاهرة وتوسعها إلى ما نراه اليوم من التمسح بأبواب المقامات أو الأقفاص الموجودة على الأضرحة الشريفة للنبي ﷺ والأئمة عليهم السلام. وعليه، فالتبرك ليس مظهراً من مظاهر الشرك أو الوثنية أو العبودية لصاحب الضريح، سواء انطلق من منطلق عاطفي أو إيماني، فلا يجوز التهجم على المسلمين ورميهم بالوثنية أو القبورية لتقبيلهم الأضرحة، في اتهامات متسرعة ولا تراعي حدود الله في هذا المجال. ولا سيما أنّ التقبيل ـ عند البعض ـ قد لا ينطلق من منطلق الاعتقاد بأنّ هذا التقبيل له أثر مباشر في الشفاء والنفع أو ما إلى ذلك، وإنّما هو تعبير عاطفي يندفع فيه الإنسان بمشاعر الحب الخالص إلى تقبيل الضريح أو الأبواب، على طريقة الشاعر:

أَمُرُّ عَلى الدِيارِ دِيارِ لَيلى أُقَبِّلَ ذا الجِدارَ وَذا الجِدارا.

وَما حُبُّ الدِيارِ شَغَفنَ قَلبي وَلَكِن حُبُّ مَن سَكَنَ الدِيارا

ثانياً: وبالرغم من مشروعيّة التقبيل والتبرّك، فإنّ بعض الفقهاء ينصح بعدم المبالغة في هذا الأمر والإفراط فيه، ولا سيما إذا كان التقبيل على هيئة السجود، دفعاً لتوهم من يظن أنّ ذلك يمثّل عبادة لصاحب المقام، مع العلم أنّ الزائر لا يكون قاصداً بسجود سوى شكر الله تعالى على توفيقه للزيارة، وليس بالضرورة أن يسجد لصاحب الضريح تعبداً له، بل لا يُظنّ ذلك بالمسلم، حيث إنّ من البديهيات والضرورات الدينية أنّه لا يجوز السجود لغير الله تعالى.

ثالثاً: إنّ هذه العواطف التي تندفع إلى تقبيل الضريح وتحرص على اقتناء أثر منه أو مما لامسه وجاوره، ربما تتعرّض للاستغلال من قبل بعض التجار الذين يعملون على الاتجار ببعض الأمور بحجة أنها من الأماكن المقدّسة أو لامست الأضرحة، فربما عمد البعض إلى بيع الزائرين التراب أو الأقمشة الخاصة التي يدعون أنها لامست المقام. وقد نبه بعض العلماء[1] إلى ما كان يفعله «تجار

(١) راجع: في المقامات الدينية: المشروعية، الأهداف، الضوابط، ص ٣٣ ـ ٣٥.

الدين» من خداع زوار الإمامين العسكريين عليهما السلام حيث يأتون بالتراب من الصحراء ويكذبون على الناس بزعم أنها من تراب المقام! وهذه الظاهرة قد توسعت في زماننا هذا حيث يعمد البعض إلى بيع الصور التي يدعى أنّها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لأهل البيت عليهم السلام وعمد آخرون إلى اختراع سبحة خاصة باسم سبحة أم البنين وبيعه على الناس، إلى غير ذلك من الاختراعات التي هدفها جني المال عن طريق القداسة الدينية المزيفة!

رابعاً: إنّ المبالغة المشار إليها تتحول شيئاً فشيئاً إلى ظاهرة عامة تسير في منحى تصاعدي يبالغ في التعلّق بهذه الأمور وتقديسها، ووصل الأمر إلى حد الطواف في القرى والمدن ببعض تلك الأقمشة ودعوة الناس للتجمع في المساجد أو الحسينيات لأجل التبرك بها. وهذا كله قد يعكس حالة من «طقسنة» الشعائر أو «شكلنة» العلاقة مع الإمام المعصوم عليه السلام وتفريغها من مضمونها الروحي السامي، ومن بعدها الأساسي وهو ضرورة الاقتداء بالإمام في سلوكه وأخلاقه وروحانيته، ومن مؤشرات المبالغة في هذا الأمر ما نلحظه من تزاحم وتنافس وتضارب عند المقامات أو عند جدار الكعبة أو الحجر الأسود، بغية التمسح بها، وربما أفضى الأمر في بعض الأحيان إلى حد الاشتباك بالأيدي، وخروج الإنسان عن طوره وهدوئه، وربما لا يخرج الواحد من هذه الزحمة بسهولة. ومكمن الخلل هنا هو المبالغة في الحديث عن أهميّة هذا الأمر، بحيث يعتبر بعض الحجاج أو الزائرين أنّه إذا لم يقبّل البيت أو الحجر الأسود أو القفص فإنّ عمله يكون ناقصاً، مع أنّه ورد في الأخبار كراهة مزاحمة الناس حتى عند الحجر الأسود والذي ثبت استحباب تقبيله شرعاً، وكم رأينا من امرأة قد انتُزع حجابها وهُتك سترها بسبب إصرارها على الدخول بين عشرات الرجال المتنافسين على الوصول إلى الحجر الأسود أو إلى جدار الكعبة!

٥ـ ركضة طويريج

السؤال: ما هي فلسفة (ركضة طويريج) وهل هي من الشعائر؟ وهل يشارك الإمام المهدي في الهرولة مع أصحاب هذا الموكب كما ينقل عن السيد مهدي بحر العلوم؟

في الإجابة عن هذا السؤال نذكر النقاط التالية:

أولاً: «ركضة طويريج» هي ركضة عُرف بها أهالي بلدة «طويريج» العراقية والتي تبعد عن كربلاء حوالي (١٥ كيلو متر تقريباً)، فقد كان أهالي هذه البلدة، يجتمعون صبيحة يوم العاشر من محرم في دارة السيد صالح القزويني (ت ١٨٨٦ هـ) للاستماع إلى تلاوة المصرع الحسيني وبعد الانتهاء من تلاوته يذهب المجتمعون مشياً على الأقدام إلى كربلاء، فيدخلونها بعد وقت الظهيرة بساعة واحدة تقريباً، وكان السيد صالح يمتطي صهوة جواده، محاطاً بالجموع، ولا يتحرك الموكب إلا بإشارة منه، كما يقول الدكتور جودت القزويني في كتابه « تاريخ عزاء طويريج» ويضيف قائلاً: «عندما يحين موعد الانطلاق يضرب (السيد صالح) عمامته السوداء بيده اليمنى وهو يصرخ «يا حسين»، وتبدأ اطلاقة الموكب»[1]، ثم يسير الناس من خلفه على نحو الهرولة الخفيفة وفي حالة من الحزن والبكاء، وهم يرددون شعارات خاصة، و«ينتهي المطاف إلى الحضرة الحسينية المطهرة، حيث ينزل السيد عن جواده، ويستقر بغرفة «الكليدار».. وكانت العادة أن يقرأ أحد «الرواديد» الأكفاء قصيدة شعبية مؤثرة أمام الحشود المتجمعة في الصحن الحسيني»[2].

ثانياً: هذه الركضة كما اتضح هي تعبير شعبي عاطفي عفوي يندفع بها الموالون

(١) تاريخ عزاء طويريج ص ٣٦ و٤٤.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ ـ ٤٥.

والمحبون للحسين عليه السلام متهافتين على مرقده الشريف بلوعة وحسرة، ولكنها ليست واردة في النصوص وليست من الشعائر التوقيفية، ولا هي ممتدة إلى زمن الأئمة عليهم السلام بل تاريخها لا يعود إلى أكثر من عمر مؤسسها، السيد صالح القزويني رحمه الله، ومن غير الصحيح إضفاء بعد تعبدي أو شعائري عليها بعنوانها، لأنّ ذلك يجعل القضية محلاً للإشكال ويخرجها عن عفويتها وبراءتها.

ثالثاً: أما بشأن مشاركة السيد مهدي بحر العلوم (ت ١٧٩٧م) في هذه الركضة، فخلاصتها على ما قيل: إنّ السيد كان يوم عاشوراء في كربلاء ووقف على مشارف المدينة مع عدد من تلامذته ينتظر قدوم موكب طويريج، وعند اقتراب الموكب تفاجأ الجماعة بالسيد مهدي بحر العلوم، وقد خلع عمته وقميصه وأخذ يهرول بين صفوف الجمع الغفير، وعند انتهاء الموكب، سئل السيد بحر العلوم عما حصل معه، فأجاب تلامذته أنه رأى صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف حاسر الرأس حافي القدمين وهو يلطم ويبكي بين الباكين، فلم يرتضِ البقاء متفرجاً بل اندفع في وسط الحشود. هذه خلاصة الرواية، بيد أنّ هذه الرواية التي تتردد على ألسنة الخطباء دون أن يكون لها مصدر معتد به، لا أصل لها من الصحة، بل هي من الأخطاء التاريخية[١] كما نبّه على ذلك الدكتور جودت القزويني، والوجه في ذلك أن تأسيس[٢] مدينة طويريج نفسها حصل بعد وفاة السيد بحر العلوم بأكثر من سبعين عاماً، فكيف يشارك بعزاء لأهل هذه البلدة قبل نشوئها؟! وهذا الأمر يدفعنا إلى ضرورة التدقيق في أمثال هذه الروايات التي يتناقلها الخطباء دون أن يكون لها مستند واضح.

(١) ركضة طويريج ص ٤٧.

(٢) تأسيس المدينة على ما ينقل عن الدكتور علي الوردي حصل في حدود عام ١٨٧٠م، انظر: « تاريخ عزاء طويريج» ص ٤٧.

٦ـ ما رأيكم باسم عبد الحسين؟

السؤال السادس: هناك تسميات للمواليد في بلاد الهند تحمل أسماء غريبة مثل «كلب علي» أو «كلب حسين» فما رأيكم بذلك؟ وما رأيكم بأسماء مثل «عبد الحسن» و«عبد الحسين» و«عبدة الزهرة» فقد سمعت شيخاً وهابياً يقول هذا شرك وكفر؟

والجواب: إنّ موضوع التسميات موضوع مهم وحساس وقد بحثناه بشكل مفصل في بحث مستقل[1]، ولكن فيما يتّصل بسؤالكم أحبّ أن أشير إلى النقاط التالية:

أولاً: في الأدب الإسلامي وفي المنظومة الحقوقية الأخلاقية ليس من حقّ الوالد أن يختار لابنه الاسم الذي يريده حتى لو كان قبيحاً وسيئاً؛ كما في تسمية الطفل باسم «ظالم» أو «غاصب» أو غيرها من التسميات القبيحة والمستهجنة! ففي الحديث الشريف: «**حق الولد على والده أن يُحسن اسمه..**»[2]. أجل، ليس الأب مقيداً بلائحة خاصة من الأسماء بحيث لا يجوز تخطيها، فله أن يبتكر اسماً جديداً لابنه أو ابنته، ولكن ينبغي للمسلم أن يختار أسماء من وحي انتمائه الإسلامي، ويستحب له ـ كما تدل عليه الروايات ـ أن يختار التسميات التي تظهر عبوديته لله تعالى، كـاسم «عبد الله» ونظائره. وكذلك الأسماء التي تظهر انتماءه وولاءه لرموز هذا الدين من قبيل أسماء «محمد» «علي» «الحسن» «الحسين» و «فاطمة»..

ثانياً: وفي ضوء ذلك يتضح أنّ أسماء مثل «كلب علي» أو «حمار علي» أو «كلب الحسين» ليست مصداقاً للاسم الحسن الذي أمر به الحديث الشريف،

(١) راجع كتاب: حقوق الطفل في الإسلام ص ١٩٤ وما بعدها.
(٢) مستدرك الوسائل ج ١٥ ص ١٢٨، وكنز العمال ج ١٦ ص ٤١٧.

بل إنّها توحي بالتوهين والتحقير، والله تعالى يريد للمسلم أن يكون عزيزاً كريماً ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨]، وحبّ الإنسان لأهل البيت عليهم السلام لا ينبغي أن يدفعه إلى المغالاة في التسمية أو في غيرها، بأن يسمي نفسه أو ابنه باسم يوحي بالمهانة والذل أو القبح، ونحن نعلم أنّ مخاطبة الآخر بعبارة «يا كلب» «يا حمار» هي من مصاديق السب المحرم في الفقه الإسلامي، وإضافة الكلب إلى علي عليه السلام في الاسم حيث يقال «كلب علي» لا تخرج كلمة الكلب عن دلالتها التوهينية عندما تطلق على الإنسان، تماماً كما في نسبتها أو غيرها إلى الله تعالى بأن يقال: «كلب الله» أو «حمار الله»..ولهذا فإنّ هذه التسميات مرفوضة وليست من مصاديق الاسم الحسن. وما نسب إلى الشاعر ابن الحجاج أنّه أوصى أن يكتب على قبره ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾[الكهف: ١٨] لا يمثّل حجّة في هذا المجال، كما أنّه لا يرتبط بالتسمية، على أنّ بعض التفاسير تذهب إلى أنّ كلب أهل الكهف كان أسداً وإن كان خلاف الظاهر.

وقد كان بعض العرب في الجاهلية يسمون أمثال هذه التسميات «كليب، جرو»، لكن الأدب الإسلامي نسخ الكثير من تسميات الجاهلية، ودعا إلى اختيار الاسم الحسن للوليد. وإنّنا نلاحظ أنه غالباً ما تُطلق هذه التسميات (كلب علي، كلب الحسين) في البلدان المحمومة بالأجواء المذهبية والعصبية كباكستان أو غيرها، فقد تكون هذه التسميات ردّة فعل تجاه الآخر الذي يناصب هذه الجماعة العداء على خلفيّة مذهبيّة ضيقة، ولعله لهذا لم نجد من يسمي ابنه باسم «كلب محمد» مثلاً، وإنّما تقتصر التسمية على إضافة لفظة « كلب» إلى أحد أئمة أهل البيت عليهم السلام. وتجدر الإشارة إلى أنّه قد لا يفهم الكثيرون هناك ـ باعتبار أنهم من غير العرب ـ معنى كلمة «كلب» ما يجعل التسمية غير مستفزة.

ومن هنا فإنّنا ندعو إلى ترك أمثال هذه التسميات، ولا سيما أنّ أهل البيت عليهم السلام لا يريدون لعلاقة المؤمنين بهم أن تكون كعلاقة الكلب بصاحبه، بل أن

تكون علاقة الإنسان الذي كرمه الله وجعله خليفته في الأرض بمثله الأعلى وقدوته في الحياة الدنيا.

ثالثاً: فيما يتّصل بالأسماء التي تتضمن لفظ «عبد» منسوباً لغير الله، لا بدّ أن نقول في بادئ الأمر أنّ هذه التسميات ـ وخلافاً لما يقوله أتباع الخط السلفي الوهابي ـ لا تمثّل شركاً بالله، لأنّ العبودية هنا لا يراد منها عبودية مشابهة لعبادة المخلوق لخالقه، وإنّما هي عبودية الخدمة والطاعة، ولذا لا يعتقد أحد ممن يسمي بهذه الأسماء أنه أو ابنه عبد حقيقي للحسين أو لعلي عليهما السلام. بيد أنّ هذه التسميات التي يندفع البعض إليها ـ تعبيراً عن حبّه لأهل البيت عليهم السلام وربما يتوهم أنّها مستحبة ـ لم ترد في الروايات ولم نجد أنّ أحداً من الأئمة عليهم السلام سمى بهذه الأسماء ولا نجد أيضاً أحداً من أصحاب الأئمة عليهم السلام على كثرتهم قد سمّى بهذه الأسماء، كما أنّ الفقهاء لم يدرجوها في عداد الأسماء المستحبة. وإنّما الأسماء التي حثّت الروايات عليها هي ما تتضمّن العبودية لله سبحانه، كـ «عبد الله» أو «عبد الكريم»..

٧ـ المغالاة في الشعارات

السؤال: ما هو رأيكم بمن يقول في شعره لأجل تعظيم الإمام الحسين عليه السلام: يا حسين أنت كبير، يا حسين أنت عظيم، أكبر من الله، أكبر من الصلاة! وقد انتشر هذا الشعر على وسائل الإعلام الطائفي. فما صحّة الاعتقاد بمثل هذه العقائد وهل فيها شرك بالله سبحانه وتعالى؟

والجواب: إنّ إيماننا بمكانة أهل البيت عليهم السلام وفضائلهم ومنزلتهم الرفيعة، لا يجوز أن يدفعنا إلى المغالاة بهم. فإنّ الغلو يمثّل منزلقاً خطيراً، وقد يؤدّي بالإنسان في بعض تعبيراته ومظاهره إلى الخروج عن الدين. ويفترض بأتباع أهل البيت عليهم السلام أن يتأدّبوا بأدبهم عليهم السلام، ولا يرفعوهم فوق المنزلة التي

وضعهم الله فيها، وأن يتجنّبوا مدحهم بالأوصاف المشعرة بالغلو، أو التي قد يستغلها البعض ضد مذهب أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم. وفي ضوء ذلك، فإنّ قول هذا «الشاعر» الذي نُقل في السؤال ـ بالنظر إلى ظاهره ولو صحّت النسبة إليه ـ يمثل شركاً وكفراً، فلا يمكن لمسلم يؤمن بالله تعالى ويعرفه حق المعرفة أن يقول: «الحسين أكبر من الله»! إنها كلمة كفر والعياذ بالله ولا أدري إذا كانت فعلاً صادرة عن شخص مسلم، وإذا وجد البعض لها تأويلاً فهو تأويل بارد، وفي أضعف التقادير فهذا الكلام قد يوقع المستمع أو القارئ في الالتباس، وقد يحمله البعض على تفسير مغلوط، وهو أنّ الإمام الحسين عليه السلام أفضل أو أكبر من الله (معاذ الله تعالى).

كما أنّ هذا الأسلوب في التعبير حول تفضيل الإمام الحسين عليه السلام على الصلاة يحتاج إلى تدقيق، فصحيح أنّ الإمام الحسين عليه السلام باعتباره رمز الولاية هو من أهم أركان الدين كما تنصُّ على ذلك (أهمية الولاية ومحوريتها) الروايات الصحيحة عن أهل البيت عليهم السلام[(١)]، بيد أنّ أهميّة الولاية تكمن في كونها الضامنة لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإقامة الحج وغيرها من معالم الدين وشعائره، والتعبير المذكور ونظائره قد يوحي بدونيّة الصلاة، مع أنّها ركن عظيم من أركان الدين، وقد استشهد الحسين عليه السلام لأجل الصلاة والزكاة وغيرهما من أركان الإسلام، وهكذا فإنّ عليّاً عليه السلام كان لا يغفل عن الصلاة حتى في أشد اللحظات صعوبة، فنجده في ليلة الهرير في صفّين، وقد كانت السّهام تتساقط عليه ينظر إلى السماء مراقباً وقت الصلاة، فقال له ابن عباس: «يا أمير المؤمنين ما هذا الفعل؟

(١) ففي الحديث الموثق عن الفُضَيْل بْن يَسَار عَنْ أَبي جَعْفَر عليه السلام قَالَ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْس عَلَى الصَّلَاةِ والزَّكَاةِ والصَّوْمِ والْحَجِّ والْوَلَايَةِ ولَمْ يُنَادَ بِشَيْءٍ كَمَا نُودِيَ بِالْوَلَايَةِ فَأَخَذَ النَّاسُ بِأَرْبَعٍ وتَرَكُوا هَذِه يَعْنِي الْوَلَايَةَ»، انظر: الكافي ج ١ ص ١٨.

قال: **أنظر إلى الزوال حتّى نصلّي.**

فقال له ابن عباس: إنَّ عندنا لشغلاً بالقتال عن الصلاة!

فقال عليه السلام: **على ما نقاتلُهم؟ إنّما نقاتلهم على الصلاة**»[1].

فيا حبذا لو نحا هذا الشاعر وأمثاله إلى امتداح الإمام الحسين عليه السلام باعتباره شهيد الصلاة، وقد ارتفع إلى الله تعالى والصلاة بين شفتيه، وهذا ما نقوله في زيارته عليه السلام: «**أشهد أنك قد أقمت الصلاة**»[2].

٨ـ رفض تصوير الحسين عليه السلام بمظهر الذِّلة

السؤال: هناك بعض الخطباء يصورون الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء كأنه شخص منكسر أمام الأعداء وأنّه كان يطلب الماء ويستجدي القوم، ما رأيك بذلك شيخنا؟

الجواب عن ذلك:

أولاً: من المؤكد أنّ واحدة من الأخطاء الفادحة التي يرتكبها البعض بحقّ الحسين ونهضته هي تقديم صورة عن الإمام الحسين عليه السلام بهذه الطريقة الهزيلة المذلة، أو تقديم السيدة زينب بصورة المرأة الضعيفة الباكية النادبة، وذلك بهدف إدرار الدمعة وإثارة العاطفة، مع أنّ هذه الغاية لا تبرر استخدام تلك الوسيلة، ولا نحتاج في إثارة العاطفة إلى أكثر من قراءة السيرة الواقعية لأحداث ومجريات يوم عاشوراء دون إضافة أو زيادة عليها، وفي السيرة الواقعية والثابتة والمروية في المصادر المعتبرة ما يكفي لتحريك العواطف الإنسانية. إنّ هذا

(١) انظر: كشف اليقين للعلامة الحلي ص١٢٢، ووسائل الشيعة: ج٤، ص ٢٤٦، الباب ٤١ من أبواب أعداد الفرائض ونوافلها وما يناسبها، الحديث ٢.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٥٧٤، و٥٧٨.

الأسلوب في تصوير الإمام الحسين عليه السلام يسيء إلى صورته الحقيقية وأهداف نهضته.

إنّ الحسين عليه السلام كان شهيد الكرامة والعزة والإباء. كان الشهيد الذي أبى أن يعطي إعطاء الذليل أو أن يقرّ إقرار العبيد، وقدّم دمه ودم أطفاله وأصحابه على مذبح الحرية والعزة.

ثانياً: وأمّا ما ينسب إلى الإمام الحسين عليه السلام من أنّه استجدى طلب الماء، وقال: «اسقوني شربة ماء»، فهو كلام لا أساس له من الصحة ولا يوجد في المصادر التي يعوّل عليها.

إنّ الصورة الحقيقية للإمام عليه السلام هي صورة ذاك الإنسان الشجاع ذي العزيمة والإرادة القوية، والذي يصوّره بعض أخصامه بقوله: «والله ما رأيت مكثوراً قط قد قتل أولاده وأصحابه أربط جأشاً منه ولا أمضى جناناً منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله»[1].

٩ـ تاريخ اللطم

السؤال: ما رأيكم باللطم وهل صحيح أن زينب عليها السلام والنساء كنّ يلطمن الوجوه والصدور بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام ؟

والجواب على ذلك:

أولاً: إنّ اللطم هو تعبير متعارف عن الحزن، فالمكلوم يندفع بشكل عفوي وتلقائي إلى لطم صدره، وهذا الانفعال البشري لم يرد في الشريعة ما يمنع منه، ما لم يبلغ حد الجزع، أو إيذاء النفس إيذاءً كبيراً ومعتداً به. إنّ اللطم جائز شرعاً،

(١) نقله ابن كثير عن عبد الله بن عمار، البداية والنهاية لابن كثير ٨ ص ٢٠٤، ونقله في الإرشاد عن حميد بن مسلم ج ٢ ص ١١١.

بحسب ما تقتضيه القواعد الفقهيّة، التي تنصُّ على الحليّة في كل مورد لم يقم فيه دليل على الحرمة.

ثانياً: لقد أصبح اللطم في الأزمنة المتأخرة طقساً وممارسة منظمة وتتم بشكل جماعي منظم وفق إيقاع واحد، ويُدعى الناس إليها في محفل خاص ومجلس يعقد لغرض اللطم بشكل مستقل، بينما لم يكن اللطم في السابق يؤتى به مستقلاً ولم يكن عملاً مطلوباً لذاته، ولم يُعهد في زمن الأئمة عليهم السلام ـ بحسب ما بلغنا في المصادر ـ وجود مجالس تنظّم لغرض اللطم سواء كان مقروناً بالاستماع إلى مرثية معينة أو مجرداً عن ذلك، وإنّما كان اللطم يأتي بشكل عفوي تلقائي يصدر من المكلوم، ولهذا لو أردنا أن نؤرخ لمسألة اللطم فلا نستطيع أن نعتبر أنّ هذا العمل بصورته وكيفيته الحالية هو عمل ممتد إلى زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام، صحيح أنّهما يشتركان في عنوان اللطم، ولكنّ ثمة تطور ملحوظ في الشكل، وهناك اختلافات بينهما ليس في الكيفية فحسب، بل في المنطلقات، فبينما كان اللطم في السابق غير مقصود لذاته وربما يؤتى به بشكل شبه قهري فقد غدا اليوم مقصوداً ومطلوباً في نفسه ويؤتى به عن سابق عزم، ما يسمح بالشك في اعتبار ما يجري اليوم امتداداً لما كان يجري في الزمن السابق، ومن هنا، فما ورد في الأحاديث(1) من أنّ زينب وأخواتها لطمن الصدور، لا يصلح لإثبات امتداد هذه الممارسة من الناحية التاريخية، ولا يسمح بالتالي لإثبات الشرعية من فعل تلك النسوة لو ثبت أنه بمحضر المعصوم. لكنّ مسألة الشرعية لسنا بحاجة إلى دليل خاص عليها، إذ يكفي فيها التمسّك بالقواعد العامة.

(١) في الأخبار أن ابن سعد أمر حميد بن بكير الأحمري فنادى في الناس بالرحيل إلى الكوفة، وحمل معه أخوات الحسين وبناته ومن كان من الصبيان، وعلي بن الحسين الأصغر مريض .فلطمن النسوة وصحن حين مررن بالحسين، وجعلت زينب بنت علي تقول : «يا محمداه صلى عليك مليك السماء، هذا حسين بالعراء، مرمل بالدماء مقطع الأعضاء»، انظر: أنساب الأشراف ج ٣ ص ٢٠٦.

ثالثاً: اللطم في زماننا يقع على الصدور، ولكن في بعض المأثورات ما يشير إلى وقوعه على الوجه، ففي الزيارة المعروفة بزيارة الناحية: « لما رأين النساء جوادك مخزياً، ونظرن سرجك عليه ملوياً، برزن من الخدور، ناشرات الشعور على الخدود، لاطمات الوجوه سافرت، وبالعويل داعيات، وبعد العزّ مذللات، والى مصرعك مبادرات»[1]. ويُحكى أنّ لطم الخدود فعلته بعض النسوة عند استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام[2]. ولكنّنا نشكّك في صحة صدور هذا النوع من اللطم من السيدة زينب وخروجها على تلك الحالة، لأنّها لا تناسب وقارها وتماسكها المعهود في مثل هذه المواطن، فما يُحكى من خروجها على تلك الهيئة التي ذكرتها رواية الزيارة إنما يعكس حالة من الذهول المسيطر عليها بحيث أفقدها توازنها وفعلت ما لا يليق بها!

وتجدر الإشارة إلى أنّ اللطم مطلقاً و«لطم الوجه» بالخصوص معروف عند عامة النساء وينسب إليهن[3]، حتى في الأوساط غير الإسلامية[4] وقلّ ما ينسب ذلك إلى الرجال.

١٠ـ السفر والعمل في يوم عاشوراء

السؤال: ما حكم الاشتغال ببعض الأعمال أو بالتسوق أو السفر في يوم عاشوراء هل هو مكروه أم محرم؟ وكيف تنظرون إلى تشاؤم البعض من القيام بهذه الأعمال في محرم؟

---

(١) المزار للمشهدي ص ٥٠٥.

(٢) «فعند ذلك صرخت زينب بنت علي عليه السلام وأم كلثوم وجميع نسائه، وقد شقوا الجيوب ولطموا الخدود» انظر: بحار الأنوار ج ٤٢ ص ٢٩٣.،

(٣) عند استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام ذكر أنه «وخرجن النساء يتبعنه لاطمات حاسرات، فمنعهم الحسن عليه السلام ونهاهم عن البكاء والعويل» انظر: بحار الأنوار ج ٤٢ ص ٢٩٥.

(٤) في فتوح الشام أنّ النساء غير المسلمات في بعلبك خرجن «لاطمات الخدود» تستقبلن أحد قادة الجيش غير الإسلامي، انظر: فتوح الشام ج ١ ص ٣٤.

وفي الإجابة عن ذلك نقول:

أولاً: إنّ العمل على اختلاف أنواعه وأشكاله المشروعة والمباحة في غير محرم مباح وجائز ولا غبار عليه في محرّم، بما في ذلك يوم العاشر من المحرم، ولا موجب لحرمته إطلاقاً، ولم يقل أحد من الفقهاء بحرمته، أجل ينبغي للمؤمن في هذه الأيام أن يستعيد ذكرى عاشوراء للعبرة والاستلهام وأن يتحسس ألم المصيبة التي وقعت على الإمام عليه السلام وأهل بيته، ويجدر به أن يظهر هذا الحبّ والتفاعل العاطفي في سلوكه ومظهره، وأن لا يفعل ما يوجب حرمانه من تلاوة السيرة الحسينية الصحيحة أو الاستماع إليها، أو ما يوجب حرمانه من ثواب زيارة الإمام الحسين عليه السلام، ولهذا فحريٌّ به أن يأخذ فرصة ساعات أو يوم من عمله لأجل أن يحيي هذه الذكرى الطيبة والتي فيها إحياء للدين وإقامة لشعائره.

ثانياً: وما قلناه في شأن العمل نقوله في شأن الزواج وكذلك الأكل والشرب وغير ذلك من الأفعال البشرية، فلا يحرم إجراء عقد الزواج في شهري محرم وصفر، وكذا لا تحرم المعاشرة الخاصة بين الزوجين كما أنّ من الطبيعي أنّ الأكل والشرب ليسا محرمين، أما تشاؤم البعض من العمل أو السفر في يوم عاشوراء، فهو غير مبرّر ولا موجب له، لأن التشاؤم عادة جاهلية وقد محاها الإسلام، وليس ثمّة أيام منحوسة في الإسلام، وقد فندنا فكرة التشاؤم بالأيام والأشياء في كتاب «ظواهر ليست من الدين» فراجع.

١١ـ أداء خطباء المنبر

السؤال: المنبر الحسيني يمثل أحد أهم الشعائر التي انبثقت من ملحمة عاشوراء، كيف ترون أداء خطباء المنبر في ظلّ التحديات الفكرية والعقائدية المعاصرة التي تعصف بالإسلام عموماً والتشيع خصوصاً؟

الجواب: يؤسفني القول إنه وبالرغم من وجود بعض الإضاءات والأسماء الناجحة في مجال الخطابة الحسينية فإن الظاهرة العامة لا توحي بالارتياح، وأعتقد أن الخطيب الحسيني هو العنصر الأهم في تطوير قضية الخطابة الحسينية ووصولها إلى أهدافها، فنجاح المنبر الحسيني مدين بنسبة كبيرة لكفاءة الخطيب وقدرته على إيصال الرسالة إلى المتلقي، ولا مجال للحديث عن أي تطور للمنبر الحسيني اذا لم يتم إيلاء هذا العنصر الأهمية المطلوبة. وما يمكن الإشارة إليه في هذا المقام أن قيام الخطيب بدوره يتوقف على امتلاكه جملة من المؤهلات وعلى رأسها المؤهلات الثقافية والملكات الروحية. بالإضافة إلى امتلاكه فن مخاطبة الجمهور. والمحزن أن شريحة كبيرة ممّن يعتلون المنبر لا يمتلكون المؤهلات الكافية، ولذا فقد يساهمون في تجهيل المخاطب وتلقينه معلومات غير دقيقة أو أفكار خرافية أو مفاهيم مغالية أو متشدّدة بما يساهم في زيادة أو ارتفاع منسوب العصبيات في المجتمع الاسلامي ويؤدي إلى تقديم صورة مشوهة لخط أهل البيت عليهم السلام.

ومردّ ذلك كلّه إلى عدم إيلاء قضية المنبر الحسيني الأهمية اللازمة من قبل الحوزات العلمية، لذا رأينا ونرى أن معظم أهل الفضل يعزفون عن التصدّي لمهمة الخطابة الحسينية معتبرين أن ذلك لا يليق بهم، وبذلك تركوا هذا العمل لمن ليس له قدم راسخة في سوق العلم. كما أنه لم تقم إلى الآن معاهد متخصصة للخطابة الحسينية وإن كنا نتطلع إلى بعض المشاريع بأمل وتفاؤل كبيرين. وأعتقد أن مهمّة الخطابة الحسينية هي مهمّة رساليّة وجليلة ولا ينهض بها أشخاص يخضعون لبعض الدورات السريعة، بل لا بد ان ينخرطوا في الدراسة الحوزوية بما يمنحهم قاعدة وأرضية علمية صلبة ينطلقون منها ويتكئون عليها في مهمتهم الجليلة تلك.

١٢ـ استثمار عاشوراء في نشر الإسلام

السؤال: القضية الحسينية قضية إنسانية وعقائدية في الوقت عينه، كيف يمكن استثمار رسالة عاشوراء، في بيان معالم الدين الإسلامي الذي يتعرّض للتشويه المستمر من الداخل والخارج؟

والجواب: أعتقد أن الاستثمار الصحيح لرسالة عاشوراء في هذه المرحلة، يتمثّل باتباع الخطوات التالية:

الخطوة الأولى: الحرص على بيان القيم الأخلاقية والروحية التي جسدتها هذه النهضة من قبيل قيمة الإيثار والبذل والعطاء دون حدود أو قيمة الالتزام بالمبادئ وعدم اللجوء إلى الأساليب الملتوية وأساليب الخداع والتضليل والتي تجسّدت في موقف مسلم وعزوفه عن قتل عبيد الله بن زياد في بيت هانئ بن عروة التزاماً بمبدأ قاله النبي ﷺ «الإيمان قيد الفتك»... إلى غير ذلك من القيم من قيم الصبر والشهادة والنبل التي جسدتها هذه النهضة.

الخطوة الثانية: التركيز على «الحسين عليه السلام» بوصفه مثلاً أعلى قابلاً للاقتداء والاحتذاء وليس شخصية غيبية نبالغ في تصوير عجزنا عن التمثل بهديه، إن الحسين عليه السلام هو سفينة النجاة كما قال النبي ﷺ عنه وصمام أمان في الأمة، وليس شخصية مذهبية أو عنصر توتر بين المسلمين.

الخطوة الثالثة: الابتعاد عن كل الكلمات التي تثير الفتنة واللبس أو يؤدي إلى تشويه النهضة الحسينية وكذلك الحال في الطقوس التي تشوه خط أهل البيت عليهم السلام وتوجب نفور الآخرين، كما أن من الضروري عدم أسر عاشوراء بالدمعة والبكاء، فإن الدمعة على أهميتها لا يمكن أن تكون غاية في نفسها. المطلوب أن تكون دمعة واعية ومغيرة لحال الإنسان الباكي بأن تجعل منه إنساناً قوياً لا ضعيفاً، وأن تكون مدخلاً لتغيير حقيقي في سلوك الإنسان. إن نجاحنا هو بمقدار

إيصالنا للحسين رسالة وهدياً إلى الآخرين وفتح قلوبهم على مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وهذا هو هدف الإحياءات العاشورائية، إن هدفها باختصار يتمثل في قول الأئمة عليهم السلام: «**حببونا إلى الناس**».

١٣ـ التنافي بين شعر مسلم رضي الله عنه وكلام الحسين عليه السلام!

السؤال: نُسب إلى مسلم أنه ارتجز عندما هاجمه جنود عبيد الله بن زياد في الكوفة، قائلاً:

أقسمت لا أقتل إلا حُرّا وإن رأيت الموت شيئاً نكرا

بينما روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال: « **فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين الا برماً**»[1]. والسؤال: كيف يرى مسلم أنّ الموت شيئاً نكراً بينما يراه الحسين عليه السلام سعادة.

وفي الجواب على ذلك أقول، لدي وقفتان:

الوقفة الأولى: البيت المذكور المروي عن مسلم بن عقيل رضي الله عنه ذُكر في العديد من المصادر الأساسية على النحو المتقدّم في السؤال[2]، لكن في بعض المصادر ورد على الشكل التالي:

أقسم لا أقتلُ إلا حرّا وإن رأيت الموت شيئاً مراً[3]

وفي مصدر آخر ورد على الشكل التالي:

أقسمت لا أقتل إلا حرا ولو وجدت الموت كأسا مرا[4]

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ج ٣ ص ١١٥، ومجمع الزوائد للهيثمي ج ٩ ص ١٩٢.

(٢) الإرشاد للمفيد ج ٢ ص ٥٨، ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ٢٤٤، والملهوف لابن طاووس ص ٣٤، وتاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٨٠. والكامل في التاريخ ج ٤ ص ٣٣.

(٣) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص٥٨،

(٤) الفتوح لابن الأعثم الكوفي ٥ ص ٥٤.

وقد يتوّهم أنّ ملاحظة الصيغة الأخيرة تدفع الإشكال المطروح في المقام، ولكن الحقيقة أنّ الإشكال ـ لو كان وارداً ـ فإنه لا يرتفع بمثل ذلك، وذلك لأنّ رؤية الموت كأساً مرّاً هي غير رؤيته مبعثاً على السعادة كما في الكلام المرويّ عن الإمام الحسين عليه السلام. والواقع أنّ الإشكال المذكور غير وارد، وذلك لما سيأتي في الوقفة التالية.

الوقفة الثانية: مع التسليم بسند الروايتين الناقلتين لكلام الإمام الحسين عليه السلام وشعر مسلم بن عقيل رضي الله عنه، فيمكن القول في حلّ مشكلة التعارض بينهما:

أولاً: إنّ مقام الحسين عليه السلام أرفع من مقام مسلم رضي الله عنه، فالإمام عليه السلام في كمالاته الروحية والمعنوية لا يصل إليها أحد ولو كان عظيماً كمسلم. كيف لا وهو سيد شباب أهل الجنة(١)، ولذا فقد كان من الطبيعي أن يرى في الموت سعادة، بينما لا يرى مسلم مثل هذا الأمر.

ثانياً: إنّ الشعر الذي تمثل به مسلم لا يعني أنه كان جازعاً من الموت أو خائفاً وإنما هو يشير إلى حقيقة أن الموت صعب لأنه يمثل نهاية الحياة والانتقال من نشأة إلى أخرى، بيد أنه وحيث كان هذا الموت في سبيل الكرامة والحرية فإنّ مسلم يراه عذباً ويرحّب به. والحسين عليه السلام لا ينفي ما قاله مسلم من صعوبة الموت في نفسه، وإنما يشير إلى المعنى الثاني في كلام مسلم، وهو أنّ الحياة مع الظالمين هي كالموت، بينما الموت في سبيل الحرية هو سعادة وعذوبة وحياة. فما يثبته مسلم في شعره لا ينفيه الحسين عليه السلام في كلامه، وإنما هما متفقان في المعنى وفي الروح، ولعل هذا الوجه في الجمع هو أرجح من الوجه الأول.

(١) المستدرك للحاكم النيسابوري ج ٣ ص ١٦٧، وسنن ابن ماجة ج ١ ص ٤٤.

١٤ـ لماذا لم يذهب الحجيج مع الإمام الحسين عليه السلام ؟!

السؤال: لقد قلب الإمام الحسين عليه السلام حجه إلى عمرة مفردة، وترك مكة في يوم الثامن من ذي الحجة، فلماذا لم يتبعه الحجيج، وهل يقبل حجهم وهم لا يستجيبون لإمام زمانهم؟

والجواب عن هذا السؤال من خلال نقطتين:

النقطة الأولى: إنّ قضيّة تحويل الإمام عليه السلام لحجه إلى عمرة مفردة مع أنه مشهور على بعض الألسنة، ولكنه لا يتوافق مع ما جاء في الأخبار الصحيحة عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام والتي تنصُّ أنّه عليه السلام كان من الأساس قد نوى العمرة المفردة، ففي صحيحة إبراهيم بن عمر اليماني، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن رجل خرج في أشهر الحج معتمرا ثم رجع إلى بلاده ؟ فقال: **لا بأس، وإن حج من عامه ذلك وأفرد الحج فليس عليه دم، فإن الحسين بن علي عليهما السلام خرج قبل التروية بيوم إلى العراق وقد كان دخل معتمراً**»[١]. وفي معتبرة مُعَاوِيَةَ بْن عَمَّار قَالَ: قُلْتُ لأَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام: مِنْ أَيْنَ افْتَرَقَ الْمُتَمَتِّعُ والْمُعْتَمِرُ؟ فَقَالَ: **إِنَّ الْمُتَمَتِّعَ مُرْتَبِطٌ بِالْحَجِّ، والْمُعْتَمِرَ إِذَا فَرَغَ مِنْهَا ذَهَبَ حَيْثُ شَاءَ، وقَدِ اعْتَمَرَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام فِي ذِي الْحِجَّةِ، ثُمَّ رَاحَ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ إِلى الْعِرَاقِ والنَّاسُ يَرُوحُونَ إِلى مِنًى**»[٢].

النقطة الثانية: إنّ تكليف الحجاج بضرورة الخروج مع الإمام الحسين عليه السلام هو رهن أن يكون الامام عليه السلام قد دعاهم إلى الخروج معه وأبلغهم بهذا الأمر مقيماً الحجة عليهم . وهذا الأمر ـ أي دعوة الإمام الحسين عليه السلام للحجيج للالتحاق به ـ ليست واضحة، وليس في المصادر التاريخية أو غيرها ما يؤيد

(١) تهذيب الأحكام ج ٥ ص ٤٣٦.
(٢) الكافي ج ٤ ص ٥٣٥.

وجود مثل الدعوة العامة، ولا سيّما أنه قد يقال: إن هدف الحسين عليه السلام في الخروج والذهاب إلى الكوفة لم يكن ـ بحسب ظاهر الأمور ـ بهدف القتال والحرب، ليحتاج إلى ذاك العدد الكبير من المقاتلين معه، وإنّما كان هدفه المرحلي تلبية نداءات أهل الكوفة الذين دعوه إليهم، وبايعوه على النصرة، وكان من الطبيعي أن يقدر الإمام عليه السلام بعد ذلك إن كان بحاجة إلى استنفار الجيوش والمقاتلين، وحينئذٍ كان يدعو الأمة لنصرته والانخراط في جيشه، هذا كله لو أخذنا بالنظرية التي تقول إنّ الإمام الحسين كان يرمي إلى إقامة السلطة العادلة وإسقاط نظام يزيد، وأما لو أننا أخذنا بالنظرية التي تفسر حركة الإمام بأنها حركة استشهادية ترمي إلى صدمة الأمة روحياً ومعنوياً وإيقاظ الضمائر الميتة فسوف يغدو الأمر أكثر وضوحاً وأنّه ليس بحاجة للكثرة العددية معه بقدر ما هو بحاجة إلى النوعيات الذين يؤثر استشهادهم في إيقاظ الأمة.

١٥ـ تطبير الأنبياء عليهم السلام!

السؤال: يذكر البعض من أنصار التطبير أنّ مستندهم في ذلك أنّ نبي الله إبراهيم عليه السلام مرّ على كربلاء وأدمى رأسه هناك، فما رأيكم بذلك؟

الجواب: إنّ الرواية التي يقصدها هؤلاء هي ما ورد من «أنّ إبراهيم عليه السلام مرّ في أرض كربلا وهو راكب فرساً فعثرت به وسقط إبراهيم وشج رأسه وسال دمه، فأخذ في الاستغفار وقال: إلهي أي شيء حدث مني ؟ فنزل إليه جبرئيل وقال: يا إبراهيم ما حدث منك ذنب، ولكن هنا يقتل سبط خاتم الأنبياء، وابن خاتم الأوصياء، فسال دمك موافقة لدمه. قال: يا جبرئيل ومن يكون قاتله؟ قال: لعين أهل السماوات والأرضين والقلم جرى على اللوح بلعنه بغير إذن ربه، فأوحى الله تعالى إلى القلم إنك استحققت الثناء بهذا اللعن. فرفع إبراهيم عليه السلام يديه ولعن يزيد لعناً كثيراً وأمن فرسه بلسان فصيح فقال إبراهيم لفرسه: أي شيء

عرفت حتى تؤمن على دعائي؟ فقال: يا إبراهيم أنا أفتخر بركوبك علي فلما عثرت وسقطت عن ظهري عظمت خجلتي وكان سبب ذلك من يزيد لعنه الله تعالى»[1].

إلا أنّ هذا الاستدلال لا يعوّل عليه في سوق العلم، وذلك:

اولاً: إن هذه الرواية المذكورة لا سند لها، فهي ضعيفة جداً بحسب موازين علم الرجال، ناهيك عن أن الكتاب الذي نقل العلامة المجلسي هذه الرواية عنه لم يُعرف مؤلفه.

ثانياً: إنّ الخبر بالإضافة إلى ضعفه سنداً قد اشتمل على أمور مستغربة، ومنها أنّ القلم كتب على اللوح ما لم يأمره الله به من لعن يزيد، ولكن الله أمضى استنباطه واجتهاده بعد ذلك! وكذلك الحال في تأمين الفرس على لعن إبراهيم ليزيد، ثم حوار إبراهيم مع الفرس.

ثالثاً: لو تجاوزنا ذلك، فإن هذا الخبر لا علاقة له بالتطبير، لا من قريب ولا من بعيد، لأنه ينصُّ على أنّ الفرس عثرت بإبراهيم عليه السلام فوقع وشج رأسه، وهذا أمر ليس باختياره ولا فعله بإرادته، فهو لا يكون موضعاً للاقتداء به لأنك تقتدي بالأنبياء عليهم السلام فيما فعلوه بإرادتهم، وإلا هل يمكن أن نقتدي بالإمام بأن نشرب السم لأنه عليه السلام سُقي السم؟! وكون الله تعالى فعله به لا يعني أنّ يجوز للإنسان أن يفعله بنفسه، فالله تعالى يفعل ذلك بنا لأنه المالك لنا، ولذا قد يبتلي عز وجل العباد بالأمراض فهل يجوز لنا إيقاع أنفسنا أو الآخرين بالأمراض؟!

(١) بحار الأنوار ٤٤ ص ٢٤٣.

١٦ـ المشي إلى زيارة الحسين عليه السلام

السؤال: ما رأيكم في المشي إلى زيارة الإمام الحسين عليه السلام حيث يحارب البعض ظاهرة المشي ويعتبرها عملاً متخلّفاً أو غير لائق؟

والجواب: إنّ مقاربة هذه القضايا يجب أن تتم بمنتهى الدقة، ومن الخطأ التسرع في تقديم إجابة عليها قبل البحث والإلمام بالموضوع من جميع حيثياته وجوانبه، ولذا فإنني شخصياً أرفض اتخاذ موقف متعجل في هذه القضايا، ومن هنا فأحب تسجيل نقطتين:

النقطة الأولى: المشي ليس أمراً طارئاً على الثقافة الدينية، ولذا لا يمكن عدّه عملاً سفهياً أو غير لائق أو غير حضاري، فالمتأمل في العبادات الدينية يجد أنّ بعضها لا تبتعد عن المشي فقد ورد ما يدل على استحباب المشي إلى المسجد أو في قضاء حوائج المؤمن أو في الجنازة(١)، وفي الحج يلاحظ أنّ بعض هذه الأعمال تقوم على المشي، كالطواف والسعي، وإن جاز الركوب فيهما، وقد ورد في الأخبار أن الإمام الحسن عليه السلام كان يحج ماشياً والمحامل تساق أمامه، والعديد من الروايات الصحيحة تؤكد على استحباب المشي إلى بيت الله الحرام، وإن اختلفت الأخبار في أفضلية المشي على الركوب(٢) أو العكس، فبعضها تؤكد على أفضلية المشي على الركوب، وبعضها يفضل الركوب على المشي لأنّه «أقوى على الدعاء والعبادة»(٣)، وهذا التعليل قد يكون وجهاً للجمع

---

(١) يمكن القول: إنّ المشي في هذه الموارد ولا سيما الأخيرين ليس في مقابل الركوب، وعليه فلا موضوعية له بل هو مأخوذ على نحو الطريقية.

(٢) من قبيل: صحيحة عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**ما عُبد الله (تعالى) بشيء أشدّ من المشي ولا أفضل**. وصحيحة الحلبي قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن فضل المشي فقال: إن الحسن بن علي عليه السلام قاسم ربه ثلاث مرات، حتى نعلاً ونعلاً وثوباً وثوباً وديناراً وديناراً، وحج عشرين حجّة ماشياً على قدميه». وعن محمد بن إسماعيل بن رجاء الزبيدي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : «**ما عبد الله بشيء أفضل من المشي**».

(٣) ففي صحيح عن سيف التمار قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنا كنا نحج مشاة فبلغنا عنك شيء فما ترى؟ قال: **إنّ الناس ليحجّون مشاة ويركبون**. قلت: ليس عن هذا أسألك. قال: **فعن أي شيء سألت**؟ قلت: أيهما أحبُّ إليك أن نصنع؟ قال: **تركبون أحبُّ إليّ، فإنّ ذلك أقوى لكم على الدعاء والعبادة**».

بين الأخبار، فيكون المشي هو الأفضل عند الله تعالى، إلا إذا كان يتعب المكلف عن العبادة والدعاء فيرجح الركوب عندها، نظير استحباب الصوم يوم عرفة لمن لم يشق عليه الدعاء.

النقطة الثانية: في خصوص الزيارة، فقد وردت عدّة أخبار تؤكد على فضيلة السعي إلى زيارة الإمام الحسين عليه السلام ماشياً، وقد عقد الشيخ الحر باباً خاصاً لهذه الأخبار، تحت عنوان: «باب استحباب المشي إلى زيارة الحسين عليه السلام وغيره»[1]. وقد أفتى جمع من الفقهاء بالاستحباب استناداً إلى هذه الأخبار، وهذه الأخبار لا تخلو من نقاش في أسانيدها، لكن الفقهاء أفتوا بالاستحباب استناداً إليها، إمّا للتسامح في أدلة السنن، عند من يقول بهذه القاعدة، أو استناداً إلى دعوى حصول الوثوق بصدور المضمون الوارد في هذه الأخبار، أو استناداً إلى بعض الإطلاقات الواردة في المشي، من قبيل صحيحة عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « ما عُبد الله (تعالى) بشيء أشدّ من المشي ولا أفضل». وعلى القول بالاستحباب فهل استحباب المشي يمكن تعميمه للمشي إلى سائر الأئمة عليهم السلام ؟ هناك من عمم الحكم استناداً إلى استظهار معين[2] ومنهم من استشكل في التعميم. وليس المقام هنا للتوسع في هذا البحث، فهذا موكول إلى المجال الفقهي.

النقطة الثالثة: إنّ من الضروري والبديهي أن يكون المشي لله تعالى، فهو عبادة ويحتاج إلى الإخلاص، وفي الواقع فهو سياحة روحيّة حيث يتحرّك الماشي في جوٍ من الروحانية بعيداً عن الاستعراض والمباهاة أو الرياء أو غيرها من مفسدات العبادة، ويجدر بالمبلغين والعلماء أن ينبهوا إلى شروط هذا العمل، وأهمّها شرط الإخلاص، وتنزيه هذا العمل عن الأعمال المشينة ومنها الاختلاط المشبوه بين

(١) وسائل الشيعة ج ١٤ ص ٤٣٩، الباب ٤١ من أبواب المزار.
(٢) الأنوار الإلهية في المسائل العقائدية ص ١٣٠.

الجنسين، كما يجدر بهم السعي إلى ترشيد هذه الظاهرة، من خلال الانخراط مع المشاة ولا سيما في مواقع استراحتهم وأماكن تجمعهم وتلاقيهم للصلاة أو غيرها، بحيث يعمل المبلغ على تعليم الناس أحكام دينهم وتوعيتهم ثقافياً بما يساهم في تعرّف الماشي على الحسين عليه السلام أو غيره من الأئمة، ليكون بالفعل مصداقاً للزائر العارف بحقّهم، كما جاء في الرواية « من زاره عارفاً بحقّه»[1]، وهكذا يرجع الزائر من رحلته تلك بحصيلة ثقافية وروحية تغني حياته وتنقلها إلى الأفضل.

١٧ـ الحسين ثار الله!

السؤال: جاء في بعض الزيارات «السلام عليك يا ثار الله»، فكيف يكون الحسين عليه السلام ثاراً لله تعالى؟ وهل يثأر الله من أحد؟

الجواب: ورد في بعض الروايات أنّه يقال في زيارة الإمام الحسين عليه السلام: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا ثَارَ اللَّه وابْنَ ثَارِه**»، وفي بعضها ورد قبيل ذاك المقطع قوله: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا قَتِيلَ اللَّه وابْنَ قَتِيلِه**»[2].

ولو صحّت الروايات في ذلك، فإنّ المقصود بهذا المقطع:

أولاً: أن يكون الحسين عليه السلام ثأراً لله، فهذا يمثل إخراجاً لمقتل الحسين عليه السلام عن قضية الحسابات الشخصية والثارات العشائرية التي كانت ولا تزال تنتشر في واقعنا العربي والإسلامي من خلال منطق الأخذ بالثأر والذي لا يراعي حدود الله في كثير من الأحيان. فثأر الحسين عليه السلام طبقًا لنص الزيارة هو ليس ثأراً عشائرياً

(١) في الخبرعن أَبي عَبْدِ اللَّه عليه السلام «**مَنْ أَتَى قَبْرَ الْحُسَيْنِ عليه السلام عَارِفاً بِحَقِّه كَتَبَ اللَّه لَه أَجْرَ مَنْ أَعْتَقَ أَلْفَ نَسَمَةٍ وكَمَنْ حَمَلَ عَلَى أَلْفِ فَرَسٍ مُسْرَجَةٍ مُلْجَمَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّه**»، انظر: الكافي ج ٤ ص ٥٨١.

(٢) الكافي ج ٤ ص ٥٧٦، وكامل الزيارات ص ٣٢٨، ٤٠٦، ومن لا يحضره الفقيه ج ٢ ص ٥٩٥، وتهذيب الأحكام ج ٦ ص ٥٠، ومصباح المتهجد للشيخ الطوسي ص ٧٧٤.

تتولاه عشيرة بني هاشم أو أقاربه وإنما ثأره عند الله تعالى، ونحن نعلم أنّ الله ليس له حسابات وعداوات شخصية، وإنما حساباته هي حسابات الحق والعدل، الأمر الذي يحتم علينا أن نفهم المعركة مع قتلة الحسين عليه السلام في هذا السياق، أي إنّ كل من يعادي الحق ويسير في خط الظلم فهذا هو عدو الحسين وهو من نطلب ثأرنا منه، وبهذا تتحول القضية إلى مسألة حركية ومستمرة على مدى الأزمان والدهور، فطالما هناك حق وهناك باطل، فعلينا أن نقف إلى جانب الحق في وجه الباطل ونأخذ بثأرنا للحسين عليه السلام ولأبيه علي عليه السلام ولكل من قدموا أنفسهم على مذبح العدالة والحرية، نأخذ بثأرنا لهم بالانطلاق في خط العدل.

ثانياً: ومن جهة أخرى، فإننا قد نستوحي من أن الحسين عليه السلام ثأر الله، أنّ الله تعالى هو من يتكفل بالانتقام العادل لمقتل الحسين عليه السلام، وذلك قد يكون بالتدخل المباشر، أو من خلال السنن التي أجرى الله عليها هذا الكون. ومن هذه السنن أنّ الظلم لا يمكن أن يستمر أو يستقر بل لا بد أن يأتي اليوم الذي يُشاد فيه صرح العدل على أنقاض الظلم والظالمين، وهذا ما قد يؤشر عليه الدعاء المعروف «اللهم اجعلنا من الطالبين بثأره مع امام منصور من بيت آل محمد»، فالمهدي عجل الله فرجه الشريف يأخذ بثأر الحسين عليه السلام، ليس بالمعنى العشائري (كما قلنا)، بل بالمعنى الرسالي، فهو عجل الله فرجه الشريف يواجه الظالمين والمفسدين، ويقيم دولة الحق، وبذلك يثأر للحسين، ويكون الحسين عليه السلام فعلًا «ثأر الله».

١٨ـ شاء الله أن يراني قتيلاً!

السؤال: هل حقاً قال الإمام الحسين عليه السلام: «شاء الله أن يراني قتيلاً وشاء الله أن يراهن سبايا»؟ وإذا كان قاله فكيف نفهم ذلك؟

والجواب عن ذلك في وقفتين:

الوقفة الأولى: هل ثمّة مصدر يعول عليه لهذه الرواية بفقرتيها؟

لقد روي هذا الحديث في بعض المصادر، فيما أجاب به الحسين عليه السلام أخاه محمد بن الحنفية عند وداعه له ولكننا لم نجده في مصادر الدرجة الأولى، كتاريخ الطبري، أو الإرشاد للمفيد أو غيرها من المصادر الأولية التي أرّخت لوقعة كربلاء، وإنما وجدناه مروياً في المصادر المتأخرة كالملهوف للسيد ابن طاووس وإليك نص روايته قال: ورويت من كتاب أصل لأحمد بن الحسين بن عمر بن يزيد الثقة، وعلى الأصل إن [أنه] كان لمحمد بن داوود القمي، بالإسناد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سار محمد بن الحنفية إلى الحسين في الليلة التي أراد الخروج في صبيحتها عن مكة، فقال يا أخي إن أهل الكوفة من قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى، فإن رأيت أن تقيم فإنك أعز من في الحرم وأمنعه. فقال: يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت، فقال له ابن الحنفية: فإن خفت ذلك فصر إلى اليمن أو بعض نواحي البر، فإنك أمنع الناس به ولا يقدر عليك أحد فقال: أنظر فيما قلت. فلما كان السَّحَر ارتحل الحسين عليه السلام فبلغ ذلك ابن الحنفية، فأتاه فأخذ زمام ناقته التي ركبها. فقال له: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك؟ قال بلى، قال: فما حداك على الخروج عاجلا فقال: أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما فارقتك، فقال: يا حسين أخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً، فقال له ابن الحنفية: إنا لله وإنا إليه راجعون فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذه الحال؟ قال فقال له قد قال لي إن الله قد شاء أن يراهن سبايا وسلم عليه ومضى»[1].

وورد المقطع الثاني في كتاب «مختصر بصائر الدرجات» للشيخ حسن

(١) الملهوف ص ٤٠، وانتقل الحديث بعد ذلك إلى البحار، ووجدنا هذا المعنى أيضاً في كتاب ينابيع المودة لذوي القربى للقندوزي (ت ١٢٩٤هـ) ج ٣ ص ٦٠.

سليمان الحلي (من علماء أوائل القرن التاسع الهجري) قال وهو يتحدث عن المشيئة الإلهية: «ومثله ما روي في الحديث عن حريم الحسين بن علي عليه السلام شاء الله أن يراهن سبايا»[1].

وكذلك روي المقطع الثاني في كتابي «إثبات الوصية» للمسعودي و«عيون المعجزات» للحسين بن عبد الوهاب، وينص الخبر: «وخرج محمد بن الحنفية يشيعه عند توجهه إلى العراق وقال له عند الوداع الله الله يا أبا عبد الله في حرم رسول الله فقال عليه السلام له أبى الله إلا أن يكنَّ سبايا»[2].

(١) مختصر بصائر الدرجات، تأليف الشيخ حسن بن سليمان الحلي (من أوائل علماء القرن التاسع الهجري) الطبعة: الأولى، سنة الطبع : ١٣٧٠ ـ ١٩٥٠ م الناشر : منشورات المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف، انتشارات الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله ـ قم.

(٢) انظر: إثبات الوصية ص ١٧٦، وعيون المعجزات، تأليف: الشيخ حسين بن عبد الوهاب، (من علماء القرن الخامس)، سنة الطبع : ١٣٦٩، المطبعة: الحيدرية ـ النجف، الناشر: محمد كاظم الشيخ صادق الكتبي ص ٦١، وكتاب عيون المعجزات هذا وقع الكلام في اسم مؤلفه فبينما نسبه البعض إلى السيد المرتضى، دون تأكيد النسبة، ومن هؤلاء الشيخ الحر العاملي في كتابه إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات ج ١ ص ٢٨، ومنهم العلامة المجلسي الذي قال: «ينسب إليه أي السيد المرتضى، ولم يثبت عندي، إلا أنه كتاب لطيف، عندنا منه نسخة قديمة». بحار الأنوار ج ١ ص ١١، رجح آخرون أنه من تأليف الشيخ حسين بن عبد الوهاب، وهذا ما أصر عليه الميرزا عبد الله الأفندي في رياض العلماء، مضيفاً أن هذا الرجل كان معاصرا للرضي والمرتضى ومشاركاً لهما في بعض مشايخهما، و«كان بصيراً بالأخبار وناقداً للأحاديث فقيهاً شاعراً مجيداً»، وأكد أنّ نسبته إلى المرتضى «غلط وسهوٌ بيّن، لأنّ هذا الشيخ هو نفسه قد صرّح في عدّة مواضع من هذا الكتاب بأن مؤلفه الحسين بن عبد الوهاب»، رياض العلماء وحياض الفضلاء ج ٢ ص ١٢٣. لكنّ ما ذكره الأفندي وتبعه المحدث النوري في خاتمة المستدرك، لم يوضح لنا الغموض حول المؤلف، ودعوى الفقاهة فيه لا ندري من أين أتى بها الأفندي، مع أنّ الرجل لا وجود لاسمه في تراجم المتقدّمين ولم يترك أثراً فقهياً تعرف مكانته من خلاله، ولم يعرف من خلال أساتذته أو تلامذته، ولذا قال بعض المحققين المعاصرين: «لا نعرف عنه سوى اسمه وكتابه عيون المعجزات»، فهرس التراث ص ٢٩٧، ثم من أين استنبط الأفندي بصيرته بالأخبار ونقده للأحاديث مع أنّ كتابه هذا اشتمل على أخبار لا يمكن التصدّيق بها كما لا يخفى على المراجع، فثمة معاجز وكرامات عظيمة وقد حدثت بمرأى المئات من الناس ومع ذلك يتفرد هذا الكتاب في نقلها، ولا نجد لها عيناً ولا أثراً في غيره، ونجده يروي بعض روايات الغلاة، من قبيل أنّ الزهراء عليها السلام «أولدت الحسن والحسين من فخذها الأيسر»، عيون المعجزات ص ٥١، وهي موجودة في كتاب الهداية الكبرى للخصيبي ولكن جاء فيه: «أنها ولدت الحسن والحسين من فخذها الأيمن وأم كلثوم وزينب من فخذها الأيسر»، وكتاب الخصيبي هذا هو من جملة المصادر التي يعتمد عليه حسين بن عبد الوهاب، انظر كتاب «عيون المعجزات» ص ١٠١، كما أنّ بعض تعبيرات الكتاب مستغربة وبعيدة عن التعبيرات المألوفة والمنتشرة على ألسنة المسلمين، فمثلاً نراه في أكثر من مورد يعبّر عن النبي محمد صلى الله عليه وآله بـ«السيد

وفي بعض الروايات أنّه عليه السلام قال ذلك لأصحابه عندما رميت عليهم السِّهام من جماعة عمر بن سعد، ففي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن الحسين بن علي عليه السلام قال لأصحابه يوم أصيبوا: أشهد أنه قد أُذن في قتلكم، فاتقوا الله واصبروا**»(١).

الوقفة الثانية: كيف نفهم المشيئة الإلهية بشكل يبعد حركة الإمام الحسين عليه السلام عن الجبر؟ وكونها حركة جبرية شاء الله أن يقتل الحسين فيها يعني أنّ الإمام عليه السلام مسيّر وليس مختاراً في حركته فلا يستحق الثناء والمديح، كما أنّ ذلك يرفع المسؤولية عن يزيد وقتلة الإمام عليه السلام باعتبار أنهم ينفذون مشيئة الله تعالى ؟! هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإنّ الحسين إذا كان عارفاً بأنه سيُقتل وتُسبى عياله، فكيف له عليه السلام أن يخرج إلى حتفه ومصيره المعلوم سلفًا مع أنّ هذا من إلقاء النفس في التهلكة؟

محمد»، انظر: ص ٤ و٨ من الكتاب. على أنّ المشكلة الأخرى في هذا الكتاب هي عدم الوثوق بصحة نسخته التي وصلت إلى المتأخرين من علمائنا في القرن الحادي عشر، ولا سيما بملاحظة ما قاله العلامة الأفندي من «أن نسخ كتاب العيون المذكور العتيقة التي وقفنا عليها في «كازرون» و«لحسا» (الأحساء) وبحرين (البحرين) وغيرها أكثرها مقطوعة الأول ولا يعلم منها اسم الكتاب»، رياض العلماء ج ٢ ص ١٢٤. ثمّ نبّه الأفندي إلى ما أسماه بـ«وجوه عدم ملائمة سياق مع ما أورده في أول الكتاب لما ذكره في آخر كتابه، مع أنّ النسخ في اسم كتابه مختلفة أيضاً» وقد ذكرها الأفندي بأجمعها، انظر: رياض العلماء ج ٢ ص ١٢٥. وتجدر الإشارة إلى أنّ رواية المتأخرين عنه لا تعني توثيق الكتاب ولا الوثوق بالمؤلف، وإنما أوردوها من باب التأييد، فالحر العاملي الذي جعله من مصادر كتابه «إثبات الهداة» يروي فيه أيضاً عن « مشارق أنوار اليقين» للحافظ البرسي مع أنّه لا يروي عنه في الوسائل» كما صرّح في الخاتمة، انظر وسائل الشيعة ج ٣٠ ص ١٥٩، وقد صرّح الحر العاملي بهذا الأمر في خصوص هذا الكتاب، ففي أمل الآمل وبعد أن ذكر أنّ لديه كتباً لا يعرف مؤلفيها وعدّ منها «عيون المعجزات» قال: «ينسب إلى المرتضى ولم يثبت»، ثمّ عقّب على ذلك قائلاً: «وأمثال هذه الكتب لا يعتمد على نقلها لكنه مؤيد لغيره»، أمل الآمل ج ٢ ص ٣٤٦. ومن جهة أخرى فقد وقع الكلام في اسم الكتاب الكامل، فقد ذكر له أكثر من اسم، والذي يبدو أنّ المؤلف اختصره من كتاب آخر له باسم « بصائر الدرجات في تنزيه النبوات»، كما يظهر مما نقله الميرزا عبد الله الأفندي عن ديباجة الكتاب، انظر: رياض العلماء ج ٢ ص ١٢٤، وإن كان الأفندي بعد ذلك يشير إلى أنّ بصائر الدرجات هذا ربما كان لغيره كما يلوح من بعض النسخ، انظر المصدر عينه ج ٢ ص ١٢٦، إلا أن السيد الأمين رجّح أن يكون الكتاب له، أعيان الشيعة ج ٦ ص ٨٣.

(١) كامل الزيارات ص ١٥٢

والجواب: إنّ المشيئة الإلهية في هذه الموارد وأمثالها على نحوين:

أولاً: المشيئة التشريعية: من قبيل أنّ الله شاء للناس أن يأخذوا بالعدل والحق، وأن يبتعدوا عن الظلم، وهذا النحو من المشيئة ليس مرادًا من الكلمة المُشار المذكورة لأنه من غير المعقول أن يُشرِّع الله قتل الحسين عليه السلام ! إلا بناء على رؤية شاذة وباطلة ومخالفة للإجماع الأمة وهي التي تقول إنّ الحسين «قتل بشرع جده»، وهو ما أفتى به القاضي أبو بكر المالكي الأندلسي، وصار موضع انتقاد من سائر العلماء ومنهم « ابن خلدون» في تاريخه، وقد قدمنا حديثاً عن ذلك فليراجع.

ثانياً: المشيئة التكوينية: بمعنى أنّ قتل الحسين عليه السلام جارٍ وفق القدر الإلهي، وقد استُخدمت المشيئة بهذا المعنى في القرآن الكريم كثيراً من قبيل قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَشَاؤونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[التكوير: ٢٩] ونظائرها من الآيات. وبناء على هذا التفسير للمشيئة، يرد الإشكالان المتقدّمان.

والجواب على ذينك الإشكالين فيما يلي:

أما الإشكال الأول: وهو إشكال الجبر، فملاحظتنا عليه أنّ المشيئة التكوينيّة هي أيضاً على نحوين(١):

الأول: المشيئة الحتمية التي لا تتخلّف، وهي من قبيل العلة التامة التي يكون وجود المعلول بعدها ضرورياً، وهي التي تتجسد بها حركة هذا الكون، فخلق

(١) كما نبه عليه الشيخ حسن بن سليمان الحلي تعليقاً على الحديث المذكور حيث قال: «اعلم أنّ المشية قد تكون مشية حتم كمشية الله سبحانه وتعالى لخلقنا على الصفات الجارية في علمه السابق فهو يقع كما شاء. وقد تكون مشية تخليته للعبد بينه وبين فعله كما يخلي الله تعالى بين العصاة وبين معاصيهم إذ لم يتفضل عليهم ويعصمهم منها، فمشيته فيها عدم عصمته لهم وتركه إياهم وأنفسهم بعد ما بين لهم من أمره ونهيه فوافق علمه السابق في علمه لتمام حكمته وبلوغ ما جرى من علمه من الثواب للمطيع والعقاب للعاصي، فمشيته في الشر التخلية من غير عصمة». مختصر بصائر الدرجات ص ١٣٢.

الكون والمخلوقات ومنها الإنسان وأنواع الكائنات واختلاف الليل والنهار، مع ما تسير عليه من قوانين الحياة والموت والهرم والشيخوخة، إلى خصائص الأشياء ومنها خصائص الإنسان وكثير مما يدور حوله هو من هذه المشيئة التي لا تتخلف.

الثاني: المشيئة غير الحتمية، وهي من قبيل المقتضي الذي يتوقف تأثيره في مقتضاه على وجود الشروط وفقد الموانع، ومن أبرز مصاديق هذه المشيئة، ما يتّصل بأفعال الإنسان، فالله تعالى قد شاء للإنسان أن يكون مؤمنا أو كافراً لكنّ هذه المشيئة لا تعني القاهرية المطلقة التي تُفقد الإنسان اختياره وإرادته، لقد شاء ذلك وأراده وقدره بناءً على علمه بما سيفعله هذا الإنسان باختياره، وبعبارة أخرى: إنّ المشيئة الإلهية فيما يتّصل بأفعال الإنسان، هي في طول مشيئة العبد؛ وعليه فلا يكون الإنسان أمامها كالريشة في مهب الريح، وهذه ـ في الواقع ـ هي نظرية أو عقيدة الأمر بين الأمرين التي يؤمن بها الشيعة استنادًا إلى ما ورد عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام.

وفي ضوء هذه العقيدة (الأمر بين الأمرين)، تنحلُّ الإشكالية في الكثير من الآيات التي تنسب الضلالة والهدى إلى الله، منها: ﴿**وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾[الرعد: ٣٣] ومنها قوله تعالى: ﴿**مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا**﴾[الكهف: ١٧] وغيرها من الآيات.. فما يُقال في تفسير هذه الآيات وتوجيهها يُقال بعينه في توجيه حديث «شاء الله أن يراني قتيلاً لو ثبتت صحته.

وما يقال بشأن حديث المشيئة السالف يقال بشأن حديث الإذن المتقدّم، وهو الذي قال فيه الإمام لأصحابه «قد أُذن في قتلكم»، فهو نظير الإذن في قوله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ**

شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[التغابن: ١١].

وأما الإشكال الثاني فنقول بشأنه: إنّ علم الإمام الحسين عليه السلام بمصيره لا يمنعه من الحركة والعمل الجاد في سبيل الإصلاح، والثورة على الظلم والطغيان، لأنّ شروط الثورة متوفرة، وهي تحتّم عليه اتخاذ موقف والوقوف في وجه السلطان الجائر، وعدم بيعته أو الإقرار له، مهما كانت النتائج، أو كان الثمن غالياً، وهذا أمر أقرّته الشريعة الإسلامية، وأقرته ـ أيضاً ـ الأعراف العقلائية، التي ترى بأساً في الوقوف ضد الظالم والمعتدي والمحتل حتى لو علم الثائر أنّ هذا الوقوف سوف يكلفه حياته. وليس كل خروج هو من إلقاء اليد في التهلكة وليس كل إلقاء لليد في التهلكة محرماً، بل إنّ بعضه راجح، وذلك فيما إذا كان الدين مهدداً بخطر التحريف، أو كانت معالمه مهددة بالزوال، كما أوضحنا ذلك فيما سلف. (أنظر: الفصل الأول، المحور الثالث).

١٩ـ صوم عاشوراء

السؤال: ما رأيكم بصوم يوم عاشوراء؟ فقد روى أتباع المذهب السني روايات تؤكد على استحبابه، منها ما رواه البخاري عن ابن عباس أنّه قال: «قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال صلى الله عليه وآله وسلم: فأنا أحقُّ بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه»؟

الجواب: وتعليقاً على ذلك نقول: إنّ هذا المضمون هو موجود في العديد من الروايات المروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن هذه المسألة خضعت للبحث من أكثر من جهة، وقد ألف بعضهم رسائل خاصة حول صوم يوم عاشوراء، ونحن نسجل النقاط التالية حول هذا الموضوع:

أولاً: يوم عاشوراء هو يوم العاشر من المحرّم، وقيل[1] هو التاسع، والصحيح هو الأول، ولفظ «عاشوراء» يدل على صحة القول الأول، قال العلامة الحلي: «والمراد بيوم عاشوراء هو اليوم العاشر من المحرم، وبه قال سعيد بن المسيب والحسن البصري؛ وروي عن ابن عباس: أنه التاسع من المحرم، وليس بمعتمد»[2].

ثانياً: ثمّة إجماع لدى فقهاء الفريقين (السنة والشيعة) على أنّ صوم يوم عاشوراء كان مشروعاً في صدر الإسلام، لكنهم يختلفون في أنّ صومه كان واجباً[3] أم لا؟ فذهب البعض من فقهاء الفريقين إلى أنّ صومه كان واجباً ورأى آخرون عدم الوجوب، هذا كله قبل نزول القرآن بصوم شهر رمضان المبارك، وأمّا بعد نزوله بذلك، فلا ريب أنّ صومه لم يبق على الوجوب، ولكنه غدا مستحباً كغيره من الأيام، وأفتى بعض فقهاء الإمامية بالكراهة[4]، والكراهة في الأمور العبادية هي بمعنى قلة الثواب قياساً على غيره من الأيام.

ثالثاً: إنّ الروايات المعظِّمة لشأن يوم عاشوراء والتي تنصُّ على أنّ الله تعالى قد أنجى فيه العديد من الأنبياء عليهم السلام من أعدائهم وفراعنة زمانهم ـ وبصرف النظر عن صحة الروايات ـ، فإنّها قد استُغلّت بعد مصرع الإمام الحسين عليه السلام من قبل بعض النواصب وبني أمية الذين دعوا إلى صوم يوم عاشوراء تبركاً وفرحاً

(١) وتبناه ابن حزم، انظر: المحلّى ج٧ ص ١٧.
(٢) تذكرة الفقهاء ج ٦ ص ١٩٣.
(٣) قال النووي في المجموع: «اختلف أصحابنا في صوم يوم عاشوراء هل كان واجباً في أول الاسلام ثم نسخ أم لم يجب في وقت أبداً على وجهين مشهورين لأصحابنا وهما احتمالان ذكرهما الشافعي (أصحهما) وهو ظاهر مذهب الشافعي وعليه أكثر أصحابنا وهو ظاهر نص الشافعي بل صريح كلامه أنه لم يكن واجباً قط (والثاني) انه كان واجباً وهو مذهب أبي حنيفة وأجمع المسلمون على أنه اليوم ليس بواجب وأنه سنة». المجموع ج ٦ ص ٣٨٣، وقال الكحلاني: «أما صوم يوم عاشوراء وهو العاشر من شهر المحرم عند الجماهير فإنه قد كان واجباً قبل فرض رمضان ثم صار بعده مستحباً»، انظر: سبل السلام ج ٢ ص ١٦٦،
(٤) صراط النجاة ج ٢ ص ١٣٤.

بقتل الحسين عليه السلام، وكرّسوه كونه عيداً يحتفل فيه، وأخطر ما في الأمر أنه تمّ وضع روايات بهذا الشأن، وقد تنبّه بعض علماء السنة إلى ذلك، بمن في ذلك ابن تيمية، حيث قال: «وَقَوْمٌ مِن الْمُتَسَنِّنَةِ رَوَوْا وَرُوِيَتْ لَهُمْ أَحَادِيثُ مَوْضُوعَةٌ بَنَوْا عَلَيْهَا مَا جَعَلُوهُ شِعَاراً فِي هَذَا الْيَوْم.. مِثْلَ الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ الَّذِي رُوِيَ فِيهِ: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ لَمْ يَمْرَضْ ذَلِكَ الْعَامَ وَمَنْ اكْتَحَلَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ لَمْ يَرْمَدْ ذَلِكَ الْعَامَ» وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مِنْ «الْخِضَابُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَالْمُصَافَحَةُ فِيهِ» وَنَحْوُ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ وَنَحْوَهُ كَذِبٌ مُخْتَلَقٌ بِاتِّفَاقِ مَنْ يَعْرِفُ عِلْمَ الْحَدِيثِ وَإِنْ كَانَ قَدْ ذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَقَالَ: إنَّهُ صَحِيحٌ وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِ فَهَذَا مِن الْغَلَطِ الَّذِي لا رَيْبَ فِيهِ كَمَا هُوَ مُبَيَّنٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَلَمْ يَسْتَحِبَّ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الِاغْتِسَالَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَلَا الْكُحْلَ فِيهِ وَالْخِضَابَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ وَلَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يُقْتَدَى بِهِمْ وَيُرْجَعُ إلَيْهِمْ فِي مَعْرِفَةِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ وَلا فَعَلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

وقد دلّت العديد من الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام على تبرك بني أمية بهذا اليوم، من ذلك ما رُوي عن جعفر بن عِيسَى قَالَ: سَأَلْتُ الرِّضَا عليه السلام عَنْ صَوْمِ عَاشُورَاءَ وَمَا يَقُولُ النَّاسُ فِيهِ؟ فَقَالَ: **عَنْ صَوْمِ ابْنِ مَرْجَانَةَ تَسْأَلُنِي، ذَلِكَ يَوْمٌ صَامَه الأَدْعِيَاءُ مِنْ آلِ زِيَادٍ لِقَتْلِ الْحُسَيْنِ ع وهُوَ يَوْمٌ يَتَشَأَّمُ بِه آلُ مُحَمَّدٍ ص ويَتَشَأَّمُ بِه أَهْلُ الإِسْلَام والْيَوْمُ الَّذِي يَتَشَأَّمُ بِه أَهْلُ الإِسْلَام لَا يُصَامُ ولَا يُتَبَرَّكُ بِه**»[2]. الأمر الذي دفع أهل البيت عليهم السلام إلى النهي عن صومه إذا كان الصوم تبركاً أو فرحاً بمقتل الحسين عليه السلام ولذلك أفتى فقهاء الشيعة الإمامية بحرمة الصوم إذا صيم تبركاً وفرحاً بمقتل الحسين عليه السلام، وبالجواز إذا صيم كما يصام غيره من الأيام. وطبيعي فإنّ غالب المسلمين ولا سيما في أيامنا هذه

(١) مجموعة الفتاوى ج ٤ ص ٥١٤.

(٢) الكافي ج ٤ ص ١٤٦. وتهذيب الأحكام ج ٤ ص ٣٠١.

لا يظن ولا يعتقد أنّهم يفرحون لمقتل الحسين عليه السلام، فإذا صاموه فليس بهذا الداعي، وإذا أظهروا الفرح في عاشوراء فإنما هي عادات موروثة قد لا يدرك القائمون أنها من مخلفات وتأثيرات «السنة» التي سنّها بنو أمية بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام.

وبالالتفات إلى ما تقدّم يتضح وجه الجمع بين طائفتين[1] من الأخبار وردتا عن أهل البيت عليهم السلام، طائفة دلّت على استحباب صوم يوم عاشوراء وطائفة منعت ونهت عن ذلك، فالمنع أو الجواز هو بلحاظ كيفية الصوم، فإن صيم تبرّكاً وفرحاً حرم، وإن صيم تقرباً إلى الله تعالى، مع الاستذكار لمصاب الحسين عليه السلام وعطشه فهو جائز ومستحب[2].

رابعاً: إنّ الرواية الواردة في السؤال لا تخلو من إشكال، من جهة أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رأى اليهود تصومه، قال: ما هذا؟ قالوا: يوم صالح نجى الله فيه نبي إسرائيل من عدوهم، وصامه موسى، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إنا أحق بموسى منكم، فصام»[3]. فإنّ اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لليهود في هذا الأمر يُشكّ في صدقيته، ولو كان صيامه مطلوباً لكان صلى الله عليه وآله وسلم يصومه تبعاً لأمر الله ووحيه وليس تبعاً لليهود.

٢٠ـ قصة الملك فطرس

السؤال: ما قصة الملك فطرس الذي عصى أمر الله تعالى، فقص الله جناحه ورماه في جزيرة من جزر البحر، وظلّ مرمياً فيها إلى أن ولد الحسين عليه السلام فجاء جبرائيل ليبشّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بولادته، فتوسل إليه فطرس أن يحمله معه، فحمله، فتمسح فطرس بمهد الحسين فشفي وعاد إلى الملأ الأعلى؟

(١) راجع وسائل الشيعة ج ١٠ ص ٤٥٩، الباب ٢١ من أبواب الصوم المندوب.
(٢) وقد أشار إلى كيفية الجمع هذه الشيخ الطوسي في الاستبصار ج ٢ ص ١٣٦.
(٣) صحيح البخاري ج ٢ ص ٢٥١،

والإجابة على ذلك من خلال الوقفات التالية:

الوقفة الأولى: بالنسبة لمصدر الرواية، فقد وردت في عدّة مصادر حديثيّة[1]، مع شيء من الاختلاف، وفي العموم فمصادرها لا تحسب من مصادر الدرجة الأولى، ونحن ننقلها من مصدرين:

الأول: ما رواه ابن إدريس في مستطرفات السرائر بسنده، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: وذكره غير واحد من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام: «أنّ فطرسَ ملك كان يطيف بالعرش، فتلكّأ في شيء من أمر الله، فقصّ جناحه ورمى به على جزيرة من جزائر البحر. فلمّا ولد الحسين عليه السلام هبط جبرئيل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يهنيه بولادة الحسين عليه السلام فمّر به، فعاذ بجبرئيل عليه السلام، قال: قد بعثت إلى محمد أهنّيه بمولود ولد له، فإن شئت حملتك إليه، فقال: قد شئت، فحمله فوضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبصبص بإصبعه إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: امسحْ جناحك بالحسين، فمسح جناحه بحسين عليه السلام فعرج»[2].

الثاني: ما رواه في بصائر الدرجات «بإسناده عن الأزهر البطيخي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله عرض ولاية أمير المؤمنين فقبلها الملائكة وأباها ملك، يقال له فطرس فكسر الله جناحه، فلمّا ولد الحسين بن علي عليه السلام بعث الله جبرئيل في سبعين ألف ملك إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم يهنئهم بولادته فمر بفطرس فقال له فطرس: يا جبرئيل إلى أين تذهب؟ قال: بعثني الله إلى محمد يهنئهم بمولود ولد في هذه الليلة فقال له فطرس: احملني معك وسلْ محمداً يدعو لي فقال له جبرئيل: اركبْ جناحي، فركب جناحه، فأتى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فدخل عليه وهنّأه فقال

(١) فبالإضافة إلى مستطرفات السرائر، والبصائر، فقد رواها ابن قولويه في كامل الزيارات ص ١٤٠ وكذلك الصدوق في الأمالي ص ٢٠٠. واختيار معرفة الرجال للكشي ج ٢ ص ٨٥٠. ودلائل الإمامة للطبري ص ١٩٠، ثم تردد صداها بعد ذلك في الكتب المتأخرة، ووجدنا الأشارة إليها في المصباح للشيخ الطوسي ص ٨٢٧.

(٢) السرائر ص ٥٨٠.

له: يا رسول الله ﷺ إن فطرس بيني وبينه أخوة وسألني أن أسألك أن تدعو الله له أن يردّ عليه جناحه، فقال رسول الله ﷺ لفطرس: أتفعل؟ قال: نعم، فعرض عليه رسول الله ﷺ ولاية أمير المؤمنين عليه السلام فقبلها، فقال رسول الله ﷺ شأنك بالمهد فتمسّح به وتمرّغ فيه، قال: فمضى فطرس فمشى إلى مهد الحسين بن علي ورسول الله يدعو له قال: قال رسول الله: فنظرت إلى ريشه وإنه ليطلع ويجري منه الدم ويطول حتى لحق بجناحه الآخر وعرج مع جبرئيل إلى السماء وصار إلى موضعه»[1].

والرواية من حيث السند غير معتبرة[2].

الوقفة الثانية: ملاحظة متن الروايات، وما فيه من اختلاف حول سبب تمرد فطرس، وفي أمور أخرى، ففي حين أجمعت الروايات حول هوية فطرس وأنّه ملك من الملائكة، فإنها اختلفت في المهمّة المناطة به، فيذكر بعضها أنه كان «من الحملة» بينما يذكر بعضها الآخر أنّه كان يطيف بالعرش، واحتمال وحدة المهمتين وارد، فالطواف بالعرش هو تعبير آخر عن كونه من الحملة، وفي حين أجملت بعض المصادر سبب تمرد فطرس فجاء التعبير فيها أنّه «بعث في شيء فأبطأ فيه»[3]، أو «فتلكّأ في شيء من أمر الله»[4]، وتختلف الروايات حول المدّة التي قضاها فطرس في تلك الجزيرة في عبادة الله قبل أن يمرّ عليه جبريل، ففي

(١) بصائر الدرجات ص ٨٨.

(٢) ففي متطرفات السرائر وردت مرسلة، وفي البصائر فإنّ في سندها عدد من المجاهيل الذين لم نجد لهم ترجمة في كتب الرجال، من قبيل «الأزهر البطيخي» الذي لم يرد اسمه إلا في هذه الرواية، فهو مجهول. وفي كامل الزيارة اشتمل السند على موسى بن سعدان الحناط، وهو «ضعيف في الحديث»، كما يقول النجاشي في رجاله ص ٤٠٤ وفي رجال الكشي، حدّث بالقصة محمد بن سنان من دون أن ينقلها عن أحدٍ من الأئمة عليهم السلام. وأما رواية الأمالي ففي سندها عبد الله بن صباح المزني وهو مجهول، وفي السند أيضاً إبراهيم بن شعيب المزني، ويحتمل كونه شعيب بن صالح المذكور في رجال الكشي، ويظهر أنّه كان من أصحاب الصادق والكاظم والرضا عليهم السلام، وكان واقفياً وفي كل الأحوال فلم تثبت وثاقته، انظر: مجمع الرجال للقهبائي ج ١ ص ٤٨..

(٣) كامل الزيارة ص١٤٠.

(٤) كما مرّ في رواية مستطرفات السرائر. ونحوه ما في أمالي الصدوق.

حين تذكر بعضها أنها «ستمائة عام»[1] وفي أخرى أنه عبده مدة « سبعمائة عام»[2]، ومن موارد الاختلاف أيضاً ما نجده في عدد الملائكة الذين اصطحبهم جبريل معه لتهنئة النبي ﷺ بولادة الحسين عليه السلام، ففي بعض الروايات أنّ عددهم كان ألفاً[3]، بينما أنهتهم رواية البصائر إلى سبعمائة ألف.

الوقفة الثالثة: وبالإضافة إلى ضعفها سنداً فإنّ الرواية من ناحية المضمون لا تصح ولا يمكننا الوثوق بها، لأنّها تشتمل على ما ينافي العقيدة الإسلامية، حيث إنّها تفترض أنّ هذا الملك وهو المسمى بـ «فطرس» قد طلب منه الله تعالى الإيمان بولاية أمير المؤمنين عليه السلام أو طلب إليه تنفيذ مهمّة معينة، لكنه أبى الإقرار بالولاية أو أبى تنفيذ المهمّة، وهذا معناه أنّه قد تمرّد على الله تعالى وعصاه، وهذا ينافي عقيدة المسلمين في أنّ الملائكة معصومون عن الخطأ، ولا يخالفون أمر الله تعالى ولا نهيه، وهي عقيدة مستمدة من قوله تعالى: ﴿**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾[التحريم: ٦]، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإنّ ثمّة تساؤلاً يطرح في البين: هل أنّ لعلي وسائر أئمة البيت عليهم السلام ولاية على الملائكة حتى تعرض عليهم؟! وما الدليل على ذلك؟ وهل الملائكة مأمورون بإطاعة علي عليه السلام وتنفيذ أوامره؟ وبماذا يأمرهم يا ترى؟! وافتراض أن الولاية تمتد إلى الملائكة يعني أن النبوّة كذلك لأن الإمامة فرع النبوّة، ومعلوم أنّ نبينا محمد ﷺ لم يدل دليل على أنّ له ولاية على جبريل أو غيره من الملائكة، ولذا كان يتأخر عنه جبريل أحياناً حتى يضيق صدره بذلك، كما في قضية تغيير القبلة وما جاء في أسباب نزول سورة « الضحى» فلو كان له ولاية عليه لاستدعاه إليه وأمره بعدم التأخر مرة أخرى!

---

(١) كما في كامل الزيارة.

(٢) كما في أمالي الصدوق.

(٣) كما في رواية كامل الزيارة، والأمالي.

وما السِّر في تمرّد هذا الملك أمر الله تعالى؟

والسؤال الآخر أنّ ولاية أمير المؤمنين عليه السلام إنما عرضت على الناس في يوم الغدير وهذا في السنة الأخيرة من حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحينها لم يكن الحسين عليه السلام في المهد، بل كان له عدّة سنوات، فهل عرضت ولاية علي عليه السلام على الملائكة قبل أن تعرض على الناس.

ومما يثير الريبة في الرواية بحسب نقل «بصائر الدرجات» تصويرها للملائكة بأنّهم من لحم ودم، وأنّ أجنحتهم من الريش، فقد نقل فيها عن رسوله الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «فنظرت إلى ريشه وإنه ليطلع ويجرى منه الدم ويطول حتى لحق بجناحه الآخر». فهل جناح الملائكة كجناح الطيور مكوّن من ريش؟! وهل إنّ جسد الملائكة مكوّن من لحم ودم فتكون كالإنسان أو الحيوان، بينما هم مخلوقات مختلفة عن جنس الإنسان وتكوينه؟!

على أنّ إثبات ولاية الإمام علي عليه السلام على الملائكة هو أمر لا يمكن إثباته بأخبار الآحاد لو كانت صحيحة فكيف لو كانت ضعيفة السند!

ونظير هذه الرواية من هذه الجهة رواية أخرى تتحدث عن ملك اسمه دردائيل.

٢١ـ التشكيك في نسب من لا يؤمن بمحبة أهل البيت عليهم السلام!

إن هذا المضمون الوارد في بعض الروايات والذي يطعن بطهارة نسب غير الموالي لأهل البيت عليهم السلام هو محل إشكال من جهة أنه ينافي ما ورد عن الأئمة عليهم السلام من الأخبار الصحيحة من أنه لا يجوز الطعن في نسب الناس حتى من غير المسلمين لأن «**لكلّ قوم نكاح يعتصمون به عن الزنا**»، ما يعني أن كل قوم له زواج ويميزون به بين العلاقة الشرعية والأخرى غير الشرعية فزواجهم صحيح ولا يطعن فيه، وعليه فلا يعقل صدور طعن عام بنِسَب كل من لم يكن موالياً لهم

عليه السلام . اللهم إلا إذا كان المقصود بالأحاديث أن حب الأئمة عليهم السلام هو مما قامت عليه بديهة الدين وإجماع المسلمين لتضافر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تنص على محبتهم، وبالتالي فلا يعقل أن تجد مسلماً يبغض آل البيت عليهم السلام إلا إذا كان خبيثاً معانداً للحق، ومعاندته للحق هذه لها مناشىء وأحد مناشئها هو خبث الولادة. قد يشكل علينا بأن من لم يكن طاهر المولد لا يلام هو، وإنما يُلام والداه اللذان أقاما العلاقة غير المشروعة فإذا كان سبب كرهه للأئمة مرده إلى خبث مولده فهو يعاقب على أمر لم يختره؟ والجواب: إن خبث المولد ليس علة تامة لانحراف الإنسان عن الهدى، وإلا لصح الإشكال، وإنما هو مقتض للانحراف، بمعنى أن ذلك يجعله مهيئا للانحراف والفساد لأن بيئته تكون غير سليمة وغير طيبة، ولكن تبقى إرادته موجودة واختياره قائماً، وقد يختار طريق الهدى والإيمان، كما نرى ذلك في حياتنا وقد بحثنا هذا الأمر بالتفصيل في كتاب «هل الجنة للمسلمين وحدهم؟» فليراجع.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الأمين، السيد محسن، أعيان الشيعة، دار المعارف للمطبوعات ـ بيروت، ١٩٨٣م.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت: ٣٥٦هـ)، كتاب الأغاني، دار إحياء التراث العربي، لبنان.
- الأصفهاني، عبد الله الأفندي (القرن ١٢هـ)، رياض العلماء وحياض الفضلاء، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مكتبة آية الله المرعشي، ط١، قم ـ إيران.
- الأربلي، علي بن أبي الفتح،(٦٩٣هـ)، كشف الغمة في معرفة الأئمة، دار الأضواء، بيروت ـ لبنان.
- الأصفهاني، أبو الفرج (ت: ٣٥٦هـ)، مقاتل الطالبيين، إشراف: كاظم المظفر، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم ـ إيران، الطبعة الثانية.
- الأندلسي، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت: ٤٥٦هـ)، المحلى، دار الفكر، لبنان، طبعة مصححة ومقابلة على عدة مخطوطات كما قوبلت على النسخة التي حققها الشيخ أحمد محمد شاكر.
- إسحاق، الشيخ محمد، النظرة الخاطفة في الاجتهاد، مؤسسة دار الكتاب، قم ـ إيران، ط١، ١٤١٣هـ.

- الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، المواقف، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- آغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- ابن الأعثم، أحمد بن أعثم الكوفي (ت: ٣١٤هـ)، الفتوح، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ابن الأثير، (بن أبي الكرم)، محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد المعروف بالشيباني (ت: ٣٦٠هـ)، الكامل في التاريخ، دار صادر للطباعة والنشر ـ بيروت، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م.
- ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ـ محمود محمد الطناحي، مؤسسة اسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم ـ إيران، ١٣٦٤هـ. ش.
- ابن قولويه القمي، جعفر بن محمد (ت: ٣٦٨هـ)، كامل الزيارات، تحقيق: الشيخ جواد القيومي، مؤسسة نشر الفقاهة، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ابن سينا، الحسين بن عبدالله (٣٧٠ ـ ٤٢٧هـ)، الإشارات والتنبيهات، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، لا. ط، ١٩٦٨م.
- ابن أبي الحديد المعتزلي (ت: ٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة الجامعية للدراسات الإسلامية.
- أبو داوود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت:٢٧٥هـ)، سنن أبي داوود، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- ابن حنبل، الإمام أحمد، (ت: ٢٤١هـ)، مسند أحمد، دار صادر، بيروت.
- ابن خلدون(ت: ٨٠٨)، تاريخ ابن خلدون، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.

- ابن سعد، محمد بن سعد، (ت: ٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، دار صادر ـ بيروت.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي (٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، مكتبة الرياض الحديثة، طبع على مطابع دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان.
- ابن العربي، محمد بن عبد الله الأندلسي المالكي (ت: ٥٤٣هـ)، العواصم من القواصم، تحقيق: أبو مسلم المسعودي، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.
- ابن عبد البر، الاستيعاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ابن طاووس، علي بن موسى بن جعفر (ت: ٦٦٤هـ)، الملهوف على قتلى الطفوف، تحقيق: الشيخ فارس تبريزيان، دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ. ق.
- ابن شهر آشوب، محمد بن علي المازندراني (ت: ٥٨٨هـ)، مناقب آل أبي طالب، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، انتشارات علامة، قم ـ إيران.
- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله (ت: ٥٧١هـ)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٩٥م.
- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، تحقيق: علي شيري، انتشارات الشريف الرضي، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ابن كثير، إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت:٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.
- ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني(ت:٢٧٥هـ)، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- البخاري، محمد بن اسماعيل (ت: ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٨١م.

- البرقي، أحمد بن محمد بن خالد (ت: ٢٧٤هـ)، المحاسن، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية ـ إيران.
- البلاذري، أحمد بن يحيي بن جابر (ت: ٢٧٩هـ)، أنساب الأشراف، تحقيق: الشيخ محمد باقر محمودي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت:٤٥٨هـ)، السنن الكبرى، دار الفكر- بيروت.
- البحراني، السيد هاشم، مدينة المعاجز، مؤسسة النعمان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
- البروجوردي، الشيخ مرتضى، شرح العروة الوثقى، (موسوعة السيد الخوئي)، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م.
- البلخي، أبو القاسم والقاضي عبد الجبار، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، الدار التونسية للنشر، ١٣٩٣م.
- الترمذي، محمد بن عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، الجامع الصحيح المعروف بسنن الترمذي، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- التستري، الشيخ محمد تقي، قاموس الرجال، تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، الطبعة الثالثة، ١٤٢٩هـ.
- التبريزي، الميرزا جواد الأنوار الإلهية في المسائل العقائدية، دار الصديقة الشهيدة، الطبعة الأولى، إيران، ١٤٢٢هـ.
- التيجاني، الدكتور محمد، الشيعة هم أهل السنة، مركز الأبحاث العقائدية، الطبعة الأولى، قم ـ إيران، ١٤٢٧هـ.
- الثقفي، إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال (ت: ٢٨٣هـ)، الغارات، تحقيق: السيد جلال الدين المحدث، إيران.

- الجلالي، السيد محمد حسين الحسيني، فقه التراث، تدقيق ومراجعة: الشيخ عبدالله دشتي الكويتي، دار الولاء للطباعة والنشر، الطبعة الرابعة، بيروت- لبنان، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥.

- الحر العاملي، الشيخ محمد بن الحسن (١١٠٤هـ)، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة المعروف اختصاراً بـ"وسائل الشيعة" مؤسسة آل البيت لإحياء التراث- قم، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

- الحر العاملي، نفسه، إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، تعليق: أبو طالب التجليل التبريزي، المطبعة العلمية، قم.

- الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر (ت: ٧٢٦هـ)، تذكرة الفقهاء، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ـ قم، ١٤١٢هـ.

- الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر (ت: ٧٢٦هـ)، كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين، تحقيق: حسين الدركاهي، طهران ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٩٦١م.

- الحلي، محمد بن أحمد بن إدريس العجلي (ت: ٥٩٨هـ)، مستطرفات السرائر، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.

- الحلي، الشيخ حسن بن سليمان (من أوائل علماء القرن التاسع الهجري)، مختصر بصائر الدرجات، - ١٩٥٠ م الناشر : منشورات المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، انتشارات الرسول المصطفى (ص) - قم، الطبعة الأولى، سنة الطبع : ١٣٧٠هـ.

- الحلي، محمد بن منصور بن أحمد بن ادريس (ت: ٥٩٨هـ)، السرائر، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.

- الحلي، محمد بن جعفر بن أبي البقاء بن نما (ت: ٦٤٥هـ)، مثير الأحزان، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.

- الحراني، الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة (القرن الرابع)، تحف العقول عن آل الرسول (ص)، تحقيق، علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم إيران ، ط ٢ ، ١٤٠٤هـ.
- الخشن، حسين أحمد، هل الجنة للمسلمين وحدهم؟ المركز الإسلامي الثقافي- مجمع الإمامين الحسنين (ع)، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- الخشن، نفسه، العقل التكفيري قراءة في المنهج الإقصائي، المركز الثقافي الإسلامي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.
- الخشن، نفسه، حقوق الإنسان في الإسلام، دار المحجة البيضاء، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.
- الخشن، نفسه، عاشوراء قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء، دار الملاك، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.
- الخشن، نفسه، أصول الاجتهاد الكلامي، المركز الإسلامي الثقافي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٥.
- الخشن، نفسه، في بناء المقامات الدينية المشروعية، الأهداف، الضوابط، المركز الثقافي الإسلامي، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.
- الخشن، نفسه، ظواهر ليست من الدين، ظواهر ليست من الدين، المركز الإسلامي الثقافي، الطبعة الأولى، لبنان، ٢٠١١م.
- الخشن، نفسه، المرأة في النص الديني، تحت الطبع.
- الخشن، نفسه، وهل الدين إلاّ الحب؟، المركز الإسلامي الثقافي، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٤م.
- الخشن، نفسه، تحت المجهر- قراء في مفاهيم وسلوكيات ومعتقدات، المركز الإسلامي الثقافي، لبنان- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.
- الخشن، نفسه، في فقه السلامة الصحية التدخين نموذجاً، دار التآخي للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا- دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

- الخوئي، السيد أبو القاسم الموسوي (ت: ١٤١٣هـ)، صراط النجاة (استفتاءات)، الطبعة الأولى، قم، ١٤١٦هـ.
- الخوئي، نفسه، معجم رجال الحديث، الطبعة الخامسة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
- الخميني، روح الله، المكاسب المحرمة، إسماعيليان، قم- إيران، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.
- الدينوري، أحمد بن داود المعروف بـ بن قتيبة(٢٨٢هـ)، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م.
- الخونساري، أحمد الصفائي (ت: ١٣٥٩هـ)، كشف الأستار عن وجه الكتب والأسفار، مؤسسة آل البيت، ط ١ ، قم ـ إيران، ١٤١١هـ.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت: ٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- الريشهري، محمد، موسوعة الإمام الحسين في الكتاب والسنة والتريخ، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى.
- الزمخشري، محمود بن عمر (٥٣٨) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق: عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٢م.
- الزركلي، خير الدين (ت: ١٤١٠هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.
- الرديسي، حمادي وأسماء نويرة، «الرد على الوهابية في القرن التاسع عشر: نصوص الغرب الإسلامي نموذجاً»، دار الطليعة، بيروت.
- السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت:٥٦٢هـ)، الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٨م.

- السبكي، الشيخ تقي الدين (ت: ٦٨٣هـ)، «كشف السقام في زيارة خير الأنام».

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: ٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، مطابع معتوق أخوان، بيروت، توزيع دار التعاون، مكة المكرمة.

- السبحاني، الشيخ جعفر، معاصر، الإلهيات على هدي الكتاب والسنة والعقل، الدار الإسلامية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

- الشافعي، محمد بن طلحة (ت: ٦٥٢هـ)، «مطالب السؤول في مناقب آل الرسول» تحقيق: ماجد أحمد العطية.

- شبر، جواد، أدب الطف أو شعراء الحسين (ع)، مؤسسة التاريخ العربي، ط١، بيروت – لبنان، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١ مـ.

- شتيويّ، أحمد أحمد، ديوان الإمام علي، دار الغد الجديد للنشر والتوزيع، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

- الشهيد الثاني، زين الدين الجبعي المعروف بالشهيد الثاني(ت: ٩٦٥هـ)، منية المريد، تحقيق: رضا المختاري، مكتب الإعلام الإسلامي الطبعة الأولى، قم ـ إيران، ١٤٠٩هـ.

- الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم، القواعد الفقهية، مدرسة الإمام أمير المؤمنين، الطبعة الثالثة، قم ـ إيران، ١٤١١هـ.

- الشريف الرضي، محمد بن الحسين (ت:٤٠٦هـ)، نهج البلاغة، تعليق وشرح: الشيخ محمد عبده، دار الذخائر، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

- الشريف الرضي، نفسه، المجازات النبوية، تحقيق: طه محمد الزيني، بصيرتي، قم ـ إيران، لا. ط، لا. ت.

- الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن حسين بن موسى بن محمد بن بن موسى إبراهيم بن موسى بن جعفر عليهما السلام، ديوان الشريف الرضي، منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى، إيران، ١٤٠٦هـ.

- الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
- الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم، القواعد الفقهية، مدرسة الإمام أمير المؤمنين(ع)، قم ـ إيران، ط٣، ١٤١١هـ.
- شبر، السيد جواد، أدب الطف.
- الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (ت:٣٨١هـ)، الخصال، تحقيق: علي أكبر الغفاري، جماعة المدرسين ـ قم، ١٤٠٣هـ.
- الصدوق، نفسه، عيون أخبار الرضا(ع)، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، ١٤٠٤هـ.
- الصدوق، نفسه، علل الشرائع، المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف، ١٩٦٦م.
- الصدوق، نفسه، الأمالي، مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- الصدوق، نفسه، كمال الدين وتمام النعمة، مؤسسة النشر اللإسلامي، قم ـ إيران، لا. ط، لا. ت.
- الصدوق، نفسه، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي أكبر الغفاري، جماعة المدرسين– قم، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
- الصدوق، محمد بن علي، (ت: ٣٨١هـ)، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، تقديم: السيد محمد مهدي الخرسان، الطبعة الثانية، منشورات الشريف الرضي، قم، ١٣٦٨هـ. ش.
- الصنعاني، محمد بن إسماعيل الكحلاني (ت: ١١٨٢هـ)، سبل السلام، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر، الطبعة الرابعة، ١٣٧٩هـ.
- الصفار، محمد بن الحسن بن فروخ (ت: ٢٩٠هـ)، بصائر الدرجات، تعليق وتصحيح: الحاج ميرزا حسن كوتشه باغي، منشورات الأعلمي، تهران، ١٤٠٤هـ.
- الصفدي، خليل بن أيبك (ت: ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

- الطبراني، سليمان بن أحمد (ت: ٣٦٠هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد، دار إحياء التراث العربي، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.
- الطبراني، نفسه، المعجم الأوسط، تحقيق: قسم التحقيق بدار الحرمين، الناشر: دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، مصر ـ القاهرة، ١٩٩٥م.
- الطبراني، نفسه، المعجم الأوسط، تحقيق: قسم التحقيق بدار الحرمين، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥م.
- الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري الصغير (من أعلام القرن الخامس الهجري)، دلائل الإمامة، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية مؤسسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- الطبرسي، العلامة حسين النوري (ت: ١٣٣٠هـ)، اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر العلامة، تعريب الشيخ إبراهيم البدوي، دار البلاغة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م ـ ١٤٢٣هـ.
- الطبرسي، أحمد بن علي(ت:٥٦٠هـ)، الاحتجاج، تحقيق: محمد باقر الخرسان، دار النعمان ـ النجف، ١٩٦٦م.
- الطبرسي، الحسن بن الفضل (ت: ٥٤٨هـ)، مكارم الأخلاق، الناشر: منشورات الشريف الرضي، الطبعة السادسة، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.
- الطبرسي، الفضل ابن الحسن (ت: ٥٤٨هـ) إعلام الورى بأعلام الهدى، مؤسسة أهل البيت(ع) لإحياء التراث، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- الطوسي، محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)، تهذيب الأحكام، تحقيق: السيد حسن الخرسان، دار الكتب الإسلامية ـ إيران، ١٣٦٥هـ.
- الطوسي، نفسه، مصباح المتهجد، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- الطوسي، نفسه، الاستبصار في ما اختلف من الأخبار، تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الرابعة، ١٣٦٣هـ. ش.

- الطوسي، نفسه، اختيار معرفة الرجال للكشي، (رجال الكشي)، تعليق السيد الميرداماد الاسترابادي، تحقيق، السيد مهدي الرجائي، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث،قم ـ إيران، ١٤٠٤هـ.
- الطريحي، الشيخ فخر الدين بن محمد علي بن أحمد بن طريح النجفي، (المتوفى سنة خمس وثمانين وألف) «المنتخب في جمع المراثي والخطب».
- الطبري، محمد بن جرير(ت:٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك المعروف بـ «تاريخ الطبري»، تحقيق: نخبة من العلماء الأجلاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- الطبطبائي، السيد عبد العزيز (ت: ١٤١٦هـ)، أهل البيت في المكتبة العربية، مؤسسة آل البيت، الطبعة الأولى، قم ـ إيران، ١٤١٧هـ.
- عبد الوهاب، الشيخ حسين بن عبد الوهاب (من علماء القرن الخامس)، عيون المعجزات، المطبعة: الحيدرية ـ النجف، الناشر: محمد كاظم الشيخ صادق الكتبي، سنة الطبع : ١٣٦٩.
- العاملي، السيد محسن الأمين، كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب.
- العياشي، محمد بن مسعود السمرقندي (ت: ٣٢٠هـ)، تفسير العياشي، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.
- العيني، محمود بن أحمد، عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، (ت:٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- العسكري، السيد مرتضى (ت: ٣٢٨هـ)، مرآة العقول في شرح أخبار الرسول، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٩٨ق ـ ١٣٥٦ش.
- العقاد، عباس محمود، كتاب أبو الشهداء الحسين بن علي (كتاب الهلال).
- العسكري، أبي هلال، الأوائل.
- القمي، الشيخ عباس، نفس المهموم في مصيبة سيدنا الحسين المظلوم، تحقيق: الشيخ رضا أستادي، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، ١٤٠٥هـ. ق.

- القمي، نفسه، مؤسسة النشر الإسلامي، منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، طبعة جامعة المدرسين. الطبعة الأولى، قم، ١٤١٥هـ.
- القزويني، الشيخ فضل علي (ت: ١٣٦٧هـ)، الإمام الحسين وأصحابه، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، إيران.
- القزويني، الدكتور جودت، تاريخ عزاء طويرج، الخزائن لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م
- القندوزي، سليمان بن إبراهيم (ت: ١٢٩٤هـ)، ينابيع المودة لذوي القربى، تحقيق: السيد على جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، قم ـ إيران، ١٤١٦هـ.
- القهبائي، عناية الله (القرن الحادي عشر للهجرة)، مجمع الرجال، تصحيح وتعليق: السيد ضياء الدين، مؤسسة اسماعيليان، قم ـ إيران.
- كاشف الغطاء، جعفر النجفي المعروف بالشيخ الكبير (١٢٢٧هـ)، الحق المبين في تصويب المجتهدين وتخطئة الإخباريين، حجرية، إيران.
- المناوي، محمد عبد الرؤوف (ت: ١٠٣١هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، تصحيح: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
- المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، (٨٨٨ ـ ٩٧٥هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حيّاني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥م ـ ١٤٠٥هـ.
- المصطفوي، الشيخ حسن (معاصر)،التحقيق في كلمات القرآن الكريم، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- المشهدي، محمد بن جعفر (القرن السادس)، المزار، تحقيق: جواد القيومي، الطبعة الأولى، قم ـ إيران، نشر القيوم، ١٤١٩.

- مغنية، الشيخ محمد جواد(ت: ١٤٠٠هـ)، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م.
- المرعشي، السيد شهاب الدين، شرح إحقاق الحق، الناشر: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم ـ إيران، ١٤١٨هـ.
- المجلسي، محمد باقر(ت:١١١١هـ)، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.
- المجلسي، نفسه، جلاء العيون في سيرة المعصومين الأربعة عشر (فارسي).
- المسعودي، علي بن الحسين ابن علي (ت: ٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
- المسعودي، نفسه، (ت: ٣٤٦هـ) التنبيه والإشراف، دار صعب، بيروت ـ لبنان.
- المنقري، نصر بن مزاحم، (ت: ٢١٢هـ) وقعة صفّين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم ـ إيران، ١٤٠٣هـ. ق.
- المفيد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (٣٣٦ـ٤١٣هـ) الشيخ المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، الناشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، قم- إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.
- النسائي، أحمد بن شعيب (ت: ٣٠٣هـ)، السنن، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٣٠م.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج، (ت: ٢٦١هـ)، صحيح مسلم، دار الفكر ـ بيروت.

- النيسابوري، محمد بن عبد الله الحاكم(ت:٤٠٥هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان لا.ط.
- النيسابوري، محمد ابن الفتّال (ت:٥٠٨هـ)، روضة الواعظين، منشورات الشريف الرضي، قم ـ إيران.
- النووي، الميرزا حسين (ت: ١٣٢٠هـ)، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى، قم ـ ١٤٠٨هـ.
- الهيثمي، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر، (ت: ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٩٨٨م.
- الواسطي، علي بن محمد الليثي (ق: ٦)، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: السيد حسين الحسني البيرجندي، دار الحديث ـ قم، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- الواقدي، محمد بن عمر (ت: ٢٠٧هـ) فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي، (ت: ٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت ـ لبنان.

المحتويات

المقدمة ٥
فصول الكتاب:.. ٨
أحبتي القراء ٨

الفصل الأول

كيف نفهم النهضة الحسينية؟

المحور الأول: عاشوراء مشروع إيقاظ الأمة والعودة إلى الذات ١٣
الأمة وسؤال الهوية ١٤
أين مكمن الداء؟.. ١٤
محاور البحث وعناوينه الرئيسة: ١٥
المطلب الأول: مرض الأمة، أسبابه ومخاطره.. ١٦
النقطة الأولى: مرض الأمة: فقد الثقة بالذات ١٦
النقطة الثانية: مخاطر فقد الثقة بالذات وأعراضه ١٩
المطلب الثاني: التفكير في سبل العلاج ٣١
أولاً: وعي الذات والاعتراف بالمرض ٣١
ثانياً: المراجعة النقديّة.. ٣٢
ثالثاً: استخلاص العبر.. ٣٣

رابعاً: السعي في بناء الثقة بالذات ٣٤
خامساً: الحاجة إلى الثائر والمصلح ٣٦
سادساً: إضاءة على ضوابط العمل الثوري وأساليبه ٣٧
المطلب الثالث: كيف أسهمت الثورة الحسينيّة في إيقاظ الأمة؟ ٤١
المحور الثاني: ثورة الحسين عليه السلام حركة إصلاحية أم استشهادية؟ ٤٧
تفسيرات ونظريات خاطئة ٤٨
نظريتان مقبولتان في تحليل النهضة الحسينية ٥١
هل طلب الحسين من ابن سعد أن يسمح له بالذهاب إلى يزيد؟ ٥٩
نظرية جامعة: حركة تغييرية ٦١
مرتكزات هذه النظريّة ٦٢
المحور الثالث: الثورة الحسينية في عناوينها الإسلامية وأهدافها الإنسانية ٦٧
معيار الإسلامية ٦٨
أولاً: إسلامية القيادة ٦٩
ثانياً: إسلامية القضية والشعارات والأهداف ٧١
معوقات أمام امتداد الثورة إسلامياً وإنسانياً ٧٤
ثالثاً: إسلامية الممارسة الثورية ٧٥
كيف نترجم إسلامية الثورة؟ ٧٧

الفصل الثاني

النهضة الحسينية ومواجهة نظام الفساد

المحور الأول: الفساد طبيعته ومخاطره ٨٢
١ـ مناشئ الفساد وأسبابه ٨٢
٢ـ الفساد خصائصه وأعراضه ٨٣
٣ـ الفساد أنواع ومستويات ٨٥
المحور الثاني: الإصلاح ضوابطه وشروطه ٩٤

١ـ من هو المؤهّل لقيادة عملية الإصلاح؟ ٩٤
٢ـ ضوابط العمليّة الإصلاحيّة.. ٩٨
٣ـ الإصلاح كلفته وشروطه.. ١٠١
٤ـ مقارنة بين الحسين عليه السلام ويزيد ١٠٤
المحور الثالث: مدخل الإصلاح: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٠٧
١ـ المنكر وأنواعه.. ١٠٧
٢ـ إدمان المنكر وانقلاب الموازين...................................... ١٠٨
مثال من الواقع ١٠٩
٣ـ القرآن والنهي عن المنكر ١١٠
٤ـ النهي عن المنكر وبقاء الإسلام ١١١
٥ـ حماية أنفسنا من عدوى المنكر ١١٢
٦ـ الصالحون والتعايش مع المنكر! ١١٣
٧ـ النهي عن المنكر والحرية الشخصيّة ١١٤
٨ ـ تحمّل الأذى والنتائج ١١٥
٩ـ تطوير الأساليب في مواجهة المنكر ١١٧
١٠ـ شهادة الحسين عليه السلام ومواجهة المنكر ١١٧
١١ـ المنكر يتسرّب إلى إحياء الذكرى وبعض المفاهيم المتصلة بها ١١٨
المحور الرابع: أعمدة نظام الفساد.. رؤية قرآنية ١٢٠
أولاً: ثلاثي الفساد في السلطة والإدارة والمال ١٢١
ثانياً: العناصر المكمّلة ١٢٣
ثالثاً: مقارنة بين نظام يزيد ونظام فرعون.............................. ١٣٠
رابعاً: أساليب الطغاة في مواجهة القادة والدعاة ١٣٩
خامساً: المواجهة والسقوط ١٤٤

الفصل الثالث

الإمام الحسين عليه السلام نبض الحياة

المحور الأول: الحسين عليه السلام أمن وأمان........................ ١٥٩
الجاهلية والأمن السليب ١٦٠
الإسلام والأمن ١٦١
الأمن قبل الاقتصاد وقبل العبادة........................... ١٦٣
معادلة الإيمان والأمان ١٦٤
صمّامات الأمان في الأمة ١٦٥
الحسين عليه السلام والأمن ١٦٨
الجناية على الحسين عليه السلام ١٦٩
المحور الثاني: الحسين عليه السلام مشعل الهداية........................ ١٧٢
١ـ الهداية الإلهية: تكوينية وتشريعية ١٧٣
٢ـ المهدي والهادي........................... ١٧٤
٣ـ الأئمة أعلام الهدى ١٧٥
٤ـ الحسين عليه السلام مشعل الهداية ١٧٧
٥ـ الشهادة الهادية ١٨١
٦ـ عاشوراء مدرسة الهداية........................... ١٨٣
٧ـ لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة سالكيه ١٨٤
المحور الثالث: الحسين عليه السلام مهاجراً إلى الله تعالى ١٨٦
١ـ الهجرة النبوية في بعدها الاستراتيجي ١٨٦
٢ـ الهجرة: انتقال من وطن إلى وطن........................... ١٨٧
٣ـ هجرات متعددة وأهداف متقاربة ١٩١
٤ـ الحسين عليه السلام مهاجراً إلى الله ١٩٦
٥ـ ما الذي يجمع بين هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهجرة الحسين عليه السلام؟ ١٩٧

المحور الرابع: الحسين عليه السلام إمام في العلم وقدوة في الجهاد ١٩٨
١ـ الحسين عليه السلام مرجعية علمية........................... ١٩٨
٢ـ عندما يخون العالم رسالة العلم! ٢٠٠
٣ـ العالم وحراسة الدين ٢٠١
٤ـ علماء السوء وتخريب الدين ٢٠٢
٥ـ القرآن وتصوير العالم المنحرف ٢٠٣
٦ـ كيف نميّز العالم الصالح عن غيره؟ ٢٠٥
تحسّر علي عليه السلام على افتقاده حملةً لعلمه! ٢٠٧
المحور الخامس: الحسين عليه السلام شهيد الحب الإلهي ٢٠٨
أولاً: عاشوراء.. مدرسة الحب........................... ٢٠٩
ثانياً: حبّ الله تعالى وحبّ الحسين عليه السلام ٢١٠
ثالثاً: الحسين عليه السلام شهيد الحبّ الإلهي ٢١٢
رابعاً: معسكر المتفانين في الله وفي حبّ وليّه ٢١٦
خامساً: عندما يحبّ القاتل قاتله!........................... ٢١٨
الحسين عليه السلام صاحب مشروع إحيائي وليس انتقاميّاً........................... ٢٢٠
الحسين عليه السلام والصورة الدموية ٢٢١
بيّض قلبك والبس ما شئت........................... ٢٢٢

الفصل الرابع

في الخطاب العاشورائي

المحور الأول: قراءة نقدية في الخطاب العاشورائي المعاصر ٢٢٦
١ـ ما المقصود بالخطاب العاشورائيّ؟........................... ٢٢٦
٢ـ وقفة مع الخطيب والمخاطب........................... ٢٢٨
٣ ـ المزايا الإيجابية للخطاب العاشورائي ٢٣١
٤ ـ سلبيات في الشكل والمضمون........................... ٢٣٢

٥ ـ الصمت ومحاولات التوجيه؟! ٢٣٥
محاولات التوجيه........................ ٢٣٦
٦ـ المصادر المعتبرة للثقافة العاشورائيّة........................ ٢٣٨
٧ ـ المصادر غير المعتبرة ٢٤٥
أوّلاً: الأخبار والرّوايات غير الموثّقة ٢٤٥
ثانياً: الكتب غير المعتبرة ٢٤٧
ثالثاً: المنامات والأحلام ٢٥١
رابعاً: اعتماد لسان الحال........................ ٢٥٣
خامساً: أخبار العجائب والغرائب ٢٥٦
حسين الحياة لا الحقد ٢٦٢
المحور الثاني: كيف ندير الاختلاف حول الشعائر؟ ٢٦٤
١ـ مشروعيّة الاختلاف ٢٦٤
٢ـ العاطفة ودورها الإيجابي والسلبي ٢٦٥
٣ـ معايير إدارة الاختلاف ٢٦٨
٤ـ مراعاة ضوابط النقد........................ ٢٧١
٥ـ زيارة الأربعين والمشي ٢٧٢

الفصل الخامس

حوارات من وحي عاشوراء

١ـ المجالس العاشورائية والصوت المرتفع ٢٧٧
٢ـ فلسفة الحزن على الحسين عليه السلام ٢٧٩
٣ـ أيهما أفضل: الزيارة عن قرب أم عن بعد؟........................ ٢٨١
٤ـ التمسّح والتبرّك بالأضرحة........................ ٢٨٣
٥ـ ركضة طويريج........................ ٢٨٦
٦ـ ما رأيكم باسم عبد الحسين؟........................ ٢٨٨

٧ـ المغالاة في الشعارات ٢٩٠
٨ـ رفض تصوير الحسين عليه السلام بمظهر الذِّلة ٢٩٢
٩ـ تاريخ اللطم ٢٩٣
١٠ـ السفر والعمل في يوم عاشوراء ٢٩٥
١١ـ أداء خطباء المنبر ٢٩٦
١٢ـ استثمار عاشوراء في نشر الإسلام ٢٩٨
١٣ـ التنافي بين شعر مسلم وكلام الحسين عليه السلام ! ٢٩٩
١٤ـ لماذا لم يذهب الحجيج مع الإمام الحسين عليه السلام ؟! ٣٠١
١٥ـ تطبير الأنبياء عليهم السلام ! ٣٠٢
١٦ـ المشي إلى زيارة الحسين عليه السلام ٣٠٤
١٧ـ الحسين ثار الله! ٣٠٦
١٨ـ شاء الله أن يراني قتيلاً! ٣٠٧
١٩ـ صوم عاشوراء ٣١٣
٢٠ـ قصة الملك فطرس ٣١٦
٢١ـ التشكيك في نسب من لا يؤمن بمحبة أهل البيت عليهم السلام ! ٣٢٠
المصادر والمراجع ٣٢٣
المحتويات ٣٢٣